قضية ضائعة

بقلم

جراهام جرين

ترجمة

محمود مسعود

دار الهلال

روايات الهلال

Rewayat Al - Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال

العدد ٣٥٢ ـ ابريل ١٩٧٨ ـ ربيع الثانى ١٣٩٨
No. 352 — April 1978

رئيسة مجلس الإدارة : **أمينة السعيد**

نائب رئيس مجلس الإدارة : **صبرى أبو المجد**

رئيس التحرير : **الدكتور حسين مؤنس**

سكرتير التحرير : **موسى عيد**

بيانات ادارية

ثمن العدد : فى جمهورية مصر العربية ١٥٠ مليما ، عن الكميات المرسلة بالطائرة ـ فى سوريا ولبنان ٢٠٠ قرشا ، فى الاردن ٢٠٠ فلسا ، فى العراق ٣٠٠ فلسا ـ فى الكويت ٣٠٠ فلسا ـ فى السعودية ٣ر٥ ريال سعودى

قيمة الاشتراك السنوى : « ١٢ عددا » فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٥٠ قرشا صاغا ـ فى سائر أنحاء العالم ٦ دولارات أمريكية أو ٢ر٥ جنيه والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال . فى جمهورية مصر العربية والسودان [illegible]

روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمي

الغـــــلاف بريشـة
الفنان احمـد الوردجى

تقديم

تتميز مؤلفات الكاتب الانجليزى جراهام جرين التى ناهزت الأربعين كتابا بالواقعية التى لعله استمدها من جولاته واسفاره الكثيرة فى شتى انحاء العالم ـ ومنها ماكان بتكليف من وزارة الخارجية أو الكنيسة الكاثوليكية لتقصى الحقائق سياسية كانت او دينية او لغير ذلك من الأغراض ـ ولعله استمدها كذلك من عمله محررا بجريدة التيمس وناقدا فنيا بمجلة سبكتاتور . ومن هنا جاءت رواياته معبرة عن موضوعية لابسها بنفسه وعايش واقعها ودرسها عن كثب ، سواء كانت مسارحها فى فيتنام أو المكسيك او فى كثير من انحاء افريقيا خاصة ، ولكنه ينحو مع ذلك فيما يؤلف من روايات وقصص الى الرمزية التى وان اتخذت من الواقع خلفية لها ودعامة ترتكز عليها ، فانما تستعين بالأحداث والظروف الجغرافية والطبيعية لخلق شخوص ومواقف اجتماعية وانسانية وابتكار حبكات روائية واستنباط محاورات فكرية وفلسفية ودينية تدور فيها الصراعات العقلية بين مختلف الأطراف والمحاور وتتتابع فى غير مهادنة ولا لين ، حتى ولو انتهت بمصرع طرف او محور فكرى استمساكا بالمذهب وذودا عن العقيدة . وهو حين ينحو هذا المنحى لا يتمسك بشخصية بذاتها من شخصياته لكى يجلى لها البطولة ويعقد عليها لواء النصر والظفر بنهاية سعيدة مرضية ، وانما يدع التفاعل الواقعى الحتمى والتصارع الفكرى يأخذان مجراهما الطبيعى فى مسار الأحداث وتطورات القضية ، بغض النظر عما قد يبدو فى مجال الصراع الآن بين الخير والشر وبين الحق والضلال وبين الصدق والزيف وبين الجمال والقبح وبين الفضيلة والرذيلة من انتكاسات عارضة هى فى أساسها وليدة مافى الحياة الواقعية ذاتها من صراعات مريرة مضطرمة بين تلك العوامل جميعا ، ولكن فى غير ماتعاطف مع تلك الانتصارات الوقتية الموهومة ، لانها اذ تبدو على هذه الصورة المحافية لحق او صلاح او خير او جمال ، يغدو فرسانها المجلون فى الظاهر وهم الى الهزيمة والاندحار اقرب بما انكشف من سوءاتهم وتعرى من معدنهم وافتضح من نحائزهم الضاربة جذورها فى منابت الفساد أو المداجاة أو الاثرة أو

الجشع او الاستعلاء . وانما تبقى فى هذه المعركة الكبرى بين كل ماهو انسانى كريم وماهو أنانى زئيم قلوب شجاعة منطوية على الايمان الراسخ ، وعقول وهاجة تنير الدياجير ، وعزائم صلاب تشحذ الهمم وسواعد شداد ترفع الرايات المنكسة ، لكى يمضى الركب الى الغاية التى تتوخاها الرسالات الانسانية الى غاياتها المرموقة .

ولكى ننتقل من التعميم الى التخصيص فقد اختار جراهام جرين لروايتنا هذه اقليما استوائيا فى صميم غابات افريقيا مسرحا لها ، تتفاعل فيه العوامل الطبيعية والجغرافية والمناخية فتفشى فيه امراضا خطيرة لعل اخطرها مرض الجذام البغيض ، ولكن قلوبا كريمة انطوت على نوازع الخير والانسانية التى لا تتاثر بمعوقات الجنس او اللون او الدين أو اللغة او الفوارق العنصرية عموما ـ تتصدى لهذا الداء الوبيل بالعلاج بما يؤدى الى الشفاء برغم مايتخلف عنه من تشويهات . وقد جسد المؤلف لتحقيق هذه الغاية الانسانية النبيلة شخصية الدكتور كولين ـ التى صاغها المؤلف على مثال شخصية طبية حقيقية عرفها ونوه بها فى صدر روايته اعترافا بالفضل وامتنانا ـ تلك الشخصية التى تمضى فى اداء رسالتها بعزم خارق برغم ضعف الامكانات المادية والضن بالمعاونة حتى من اولئك المستوطنين الاثرياء الذين انحصر كل همهم فى استنزاف خيرات القارة والعكوف على أسمارهم ومباذلهم ، وحتى برغم مامنى به الطبيب الانسانى الخير من فقد زوجته وشريكة حياته صريعة مرض النوم وهى تطرق صميم الغابة حثا للمصابين بالداء على التقدم للمداواة والعلاج ، ولكن المعاونة التى طالما تمناها الطبيب لا تلبث أن تلوح بوادرها فى الافق بقدوم وافد غريب الى المنطقة اكتنف شخصيته غموض اغرب . ويدور على الاثر صراع حامى الوطيس بين أطراف كثيرة لاستكناه حقيقة الرجل المجهول الغامض : أهو شخصية عالمية مشهورة لها من البواعث ما ناى بصاحبها عن الاستمتاع بحياة الشهرة والمجد ومالهما من آثار مدمرة للنفس أحيانا وماجاء به الى هذا الركن القصى فى صميم الغابات يلتمس فيه نهاية له ضيقا بكل مجد وزهادة فى كل نعيم وانكارا لكثير من القيم ويأسا من كل ماخاله حبا وكان فيه ضاربا بسهم وفير ؟ وماهى النوازع التى كانت تحدوه فى ماضيه العريض الى البروز وبعد الصيت ؟ وكيف هوى الى هذا الدرك السحيق من يأس مطبق وانكار لقيم وسعى جاهد للانزواء والضياع ؟

وكيف استطاع الطبيب بفكره الثاقب وروحه المتسامية ان ينفض الغبار عن نفس الغريب المتآكلة وعزيمته المتخاذلة ويذكى فيه عزما وليدا ينتشله من وهدة الضياع ويدفعه الى مؤازرة الطبيب بما تفرد به من مقومات لكي يمضي الاثنان قدما فى اتمام تلك الرسالة الانسانية فى هذا الركن القصي من العالم وضرب مثلا يمكن ان يحتذى فى أركان اخرى من العالم يفتك الداء بضحايا آخرين له يجاوز تعدادهم خمسة عشر مليونا ، ليكون فى هذا اسوة حسنة ينشدها المصلحون وارباب الرسالات الانسانية فى شتى الأقطار والأمصار ؟ مثال واحد نزجيه من طبيعة تلك النوازع الانسانية التى تحدو الطبيب فى اداء رسالته حين يساله الوافد الغريب عن دوافعه لما ينبعث اليه ، التماسا لما يمسك على الوافد ايمانه ، فيقول الطبيب : « اريد ان اتكلم قليلا عن التغيير والتطور . لو اننى ولدت مجرد « اميبا » ذات الخلية الواحدة ، فمن كان يحلم بعصر « الرئيسات » وهى الثدييات التى تشمل الانسان والقرد كما تعرف ؟ ان التطور قد استقر بصفة نهائية فى عقل الانسان وقلبه . ان النملة والسمكة وحتى القرد ، كلها قد وصلت الى اقصى مايمكن ان تصل اليه . اما فى عقولنا وقلوبنا فان التطور يمضي فى طريقه بسرعة مذهلة . ويكاد الانسان ان ينسى كم من عديد مئات الملايين من السنين قد تعاقب فيما بين عصر « الديناصور » وعصر « الحيوانات الرئيسة » ، ولكننا شهدنا فى عصرنا هذا ، التغير والانتقال من محرك الديزل الى المحرك النفاث ، والى شطر الذرة . اننا نمتطى موجة تطورية عظمى . افرض ان الحب قدر له ان يتطور فى اذهاننا بمثل السرعة التى تطورت وتتطور بها المهارة الفنية . ان التاثير هنا قمين بأن يذهب مذاهب تفوق حدود التصور ، كما فى أصحاب الرسالات الانسانية والمصلحين . والتطور اليوم يمكن ان يفرز لنا اشخاصا كهتلر ، مثلما يفرز أصحاب الرسالات الانسانية ، اذا وجد التربة الصالحة التى تزكو فيها البذرة »

ولكن ، هل يكتفى مجتمع المتفرجين اللاهين العاكفين على اجتناء المصالح الذاتية والمتشدقين بالشعارات الجوفاء بنكوصهم عن الاسهام فى هذه الرسالة الانسانية ، أم تراهم يعمدون الى بث العوائق وتخذيل العزائم وتحويل الرسالة عن غايتها المرجوة ؟ وأى سلاح يستخدمونه لذلك سوى سلاح المراة وهو سلاح ذريع ان يكن الرجل الغامض قد جاء الى هذا الركن القصى ضيقا به وازدرارا عن مقرياته ،

ومفاتنه ، فهل يغدو الآن وهو فى جهاده النبيل مع صفيه الطبيب وشريكه فى المعركة عرضة للتأثر به ، لا انقيادا لغرائز ماضية خبت جذواتها ولكن استهدافا لعوامل اخرى متسامية يأخذ بها الآن فى نهجه الجديد فى الحياة ؟ وكيف تفضى طاقات الحمقى وجهالات الجهال وتخرصات المراجعين ذوى الشعارات الجـــوفاء الى تلك العواقب الوخيمة التى تصير اليها الأمور ؟

للقارىء أن يستخلص لنفسه من كل أولئك مايشاء ، الا ان يكون ذلك ايذانا بنهاية المعركة بين الخير والشر ، وبين الحق والضلال ، وبين الصدق والزيف ، وبين الفضيلة والرذيلة ، وبين الجمال والقبح برغم كل انتكاس عارض لايمكن أن يحول أبدا دون الاضطلاع من جديد بحمل أعباء الرســـالة ، ليكون هـــذا منهاجا لأصحاب الرسالات الانسانية فى كل موقع من عالمنا المثقل بويلات لم تقلع ذروة الحضارة البشرية المعاصرة فى استئصالها من جذورها .

محمود مسعود

القسم الأول

الفصل الأول

— ١ —

كتب راكب السفينة في دفتر يومياته وهو في (الصالون) محاكيا الفيلسوف ديكارت سخرية وتهكما هذه العبارة : « انني اشعر بالمشقة والعناء ، واذن فانا حي » ، ثم جلس والقلم في يده دون أن يكون لديه مزيد يدونه . وكان ربان السفينة في ردائه الكهنوتي الأبيض قرب نوافذ (الصالون) المفتوحة يقرأ في كتاب الصلوات اليومية ، ولم يكن ثمة هواء كاف لتحريك حتى حوافي لحيته ... ان الاثنين ظلا وحيدتين معا على صفحة النهر مدى عشرة أيام — او بالأحرى باستثناء هيئة البحارة الستة الأفريقيين وركاب سطح السفينة الاثنى عشر أو نحوهم ممن كانوا يتغيرون بلا تفريق بين أحد منهم عند كل قرية كانت السفينة تتوقف لديها ... وكانت السفينة المملوكة للأسقف تشبه سفينة مجدافية بالية صغيرة من سفن نهر المسيسيبي المزودة بعجلات التجديف وقد غدا طلاؤها الأبيض في امس الحاجة الى التجديد ... ومن نوافذ (الصالون) كان من الممكن رؤية النهر امامهم وهو ينبسط ، ومن تحتهم الركاب وقد جلسوا فوق الأطواق وهم يمشطون شعرهم بين كتل الخشب اللازمة للمحرك .

واذا كان عدم التغيير معناه السكينة ، فقد كانت هذه هي السكينة حقا ، يجدها الانسان كبندقة في قلب قشرة صلبة من المشقة والعناء — من حرارة تطبق عليهم حيث يضيق النهر الى مجرد مائتي متر ، ومياه « دش » ساخنة دائما بتأثير آلات السفينة ، ومن بعوض في المساء ، ومن ذباب « تسي تسي » في النهار باسطا أجنحته خلفا وكأنه طائرات نفاثة مقاتلة صغيرة ... والواقع أن لافتة عند ضفة النهر لدى آخر قرية مرت بها السفينة حملت تحذيرا بثلاث لغات يقول : (منطقة مرض النوم . احترسوا من ذباب تسي تسي) ... وكان

الربان يقرأ كتاب الصلوات وبيده مذبة ، وكان كلما قتل ذبابة رفع جثتها الضئيلة للمسافر كي يفحصها قائلا : « تسي تسي » ــ وكان ذلك اقصى الحوار بين الاثنين ، اذ لم يكن احدهما يتكلم لغة الآخر في يسر او دقة .

واحيانا كانت الفرصة تسنح لحديث عابر بين الربان والمسافر الوحيد (بالقمرة) بعد تناول العشاء وقبل التهيؤ للنوم ، اذ قال المسافر بعد ان سرى الى سمعه غناء الركاب الذي لم يفهم كلماته ، وكان الحديث بينهما يدور بالفرنسية او الفلمنكية محرفا :

ــ ماذا يغنون يا أبي ؟.. اي نوع من الغناء هذا ؟ أهي اغنيات حب ؟...

فأجاب الربان قائلا :

ــ لا . ليست اغنيات حب . انهم يتغنون فقط بما حدث اثناء اليوم ، وكيف ابتاعوا لدى القرية الأخيرة أواني طهي جميلة سوف يبيعونها بربح طيب على امتداد النهر ،كما انهم بالطبع يتغنون بك وبي .

ــ وما الذي يتغنون به عني ؟

ــ انهم يتغنون الآن فيما أظن . هل اترجم لك مايقولون ؟. انه ليس مديحا كله .

ــ نعم ، اذا تفضلت .

ــ « هذا رجل ابيض ليس من الآباء ولا من الأطباء . وليست له لحية . وهو قادم من مكان بعيد ــ لا نعرف من أين ــ ولا يقول لأحد الى اين هو ذاهب ، ولا لماذا . وهو رجل غني ، لأنه يشرب (الويسكي) كل ليلة ويدخن طول الوقت . ومع ذلك فهو لا يقدم سيجارة لأحد » .

ــ ان هذا لم يخطر ببالي قط .

فقال الربان :

ــ طبعا ، انا اعرف اين انت ذاهب . لكنك لم تخبرني أبدا لماذا .

ــ ان الطريق الذي سدته الفيضانات . ولم أجد سوى النهر .

ــ ليس هذا ماعنيته بكلامي :

وكان مثل هذا الحوار ختام يوم آخر من أيام الرحلة النهرية .

ــ ٢ ــ

بعد ستة أيام وصلت السفينة الى مكان قام فيه معهد لاهوتي كالح ، فوق ربوة من الطمي على ضفة النهر . وفي هذا المعهد تولى الربان

فيما مضى تعليم اللغة اليونانية ، وهكذا توقفت السفينة فى هذا الموضع لقضاء الليل ، ومن ذلك احياء الذكرى القديمة ، وكذلك لشراء الكتل الخشبية اللازمة لوقود السفينة بسعر ارخص مما تبيع به شركة (أوتراكو) المحتكرة الكبرى لمنتجات النهر وروافده :

وبعد تناول العشاء اجتمع الرهبان فى القاعة العامة يحتفون بالربان والمسافر ، ولكنهم انصرفوا أكثر ماانصرفوا الى لعب الورق ، والاستماع الى الراديو أحيانا ، وكانت ضحكاتهم تجلجل فى القاعة ومع هذا فقد شعر المسافر بالأمن بينهم ، فانهم لن يبادروه بأسئلة فضولية ، ولو انه كان قاتلا هاربا من وجه العدالة ، فما من أحد بينهم كان يحفزه الفضول للتدسس الى سره ونبش جراحه القديمة . ومع ذلك ــ ودون أن يعرف لهذا سببا ــ فان ضحكهم كان يضايقه ، وكأنه طفل صخاب أو قرص موسيقى (جاز) ... لقد ضاق بما كانوا يبدون من بهجة بالأشياء الصغيرة ــ حتى بزجاجة (الويسكى) التى جاءهم بها من السفينة ، وبدا له أن من يترهبون يمكن أن يروضوا انفسهم على المعيشة الدنيوية ...

وما لبث المسافر أن نهض متبرما وابتعد الى ناحية اخرى فى القاعة الموحشة . لقد طالعته صورة للبابا الجديد معلقة على الحائط . وفوق منضدة قاتمة للزينة رأى بضع روايات بوليسية ومجموعة كبيرة من الصحف المخصصة للبعثات التبشيرية . ورأى فوق الحائط تقويما يحمل صورة ارسالية كهذه الارسالية ، ولعلها مدرسة لاهوتية مماثلة أو منافسة ، وبدا له بناؤها شنيعا أيضا ، وقد تجمع الآباء امامها وهم يضحكون لذلك ... فلم يتمالك أن تساءل فى نفسه ترى متى بدأ نفوره من الضحك وكراهيته له وكأنه رائحة فاسدة !

ثم خرج الى الظلمة التى ينيرها ضوء القمر . فضافحت بصره شموع قلائل كانت لاتزال موقدة فوق أطراف السفينة ، ومشعل يتحرك فوق سطحها العلوى ، وهى علامات دلته على موضع رسو السفينة ، فترك النهر ووجد دربا وعرا يبدأ من خلف الفصول الدراسية وقد يفضى الى مايسميه الجغرافيون قلب افريقيا . فسار فيه مسافة قصيرة لا لسبب يعرفه ، مستهديا بضوء القمر والنجوم . فسرى الى سمعه من أمام لون من الموسيقى . وقد افضى من الدرب الى قرية كان أهلها ايقاظا ربما بسبب اكتمال القمر ، ولو صح هذا لكانوا ادق من مفكرة يومياته فى تحديد مواقيت القمر . وكانوا يدقون

الطبول ويرقصون ، وراحوا يحدقون اليه من خلال نيران صغيرة اشعلوها ، وشعر بضحكاتهم البريئة وكانها سخرية تلسعه .. انهم لم يكونوا يضحكون منه ، بل كانوا يضحكون بعضهم مع بعض ، وقد شعر بانه معزول عنهم كما كان معزولا في القاعة العامة بمعهد اللاهوت في نطاقه الخاص حيث الضحك بمثابة مقاطع لغة معادية .

فما لبث أن استدار وعاد أدراجه الى المعهد .

كانت القاعة خاوية ، وانفض اللاعبون ، فمضى الى غرفة نومه . لقد تألقت «قمرته» الصغيرة في السفينة الى حد انه شعر بانه أعزل في هذه القاعة الفسيحة التي لم يكن بها سوى منضدة للغسل وابريق وحوض وكوب ومقعد وزجاجة ماء مغلى على الأرض . ثم طرق بابه احد الآباء ، ولعله رئيس الرهبان ، ودخل ، وقال له :

ـ هل أنت بحاجة الى اى شيء ؟

ـ لاشيء . لا أريد شيئا .

وكاد يشفع هذا بقوله :

ـ هذه هي مشكلتي .

فنظر رئيس الرهبان في ابريق الماء ليرى ان كان ممتلئا وقال :

ـ سوف تجد لون الماء قاتما ، ولكنه نظيف جدا .

ورفع غطاء اناء الصابون للتأكد من وجود الصابون به ، فبدت له قطعة جديدة برتقالية اللون ، حتى قال مباهيا :

ـ من نوع (عوامة النجاة) .

فرد المسافر قائلا :

ـ انني لم استعمل هذا النوع منذ كنت طفلا .

ـ كثير من النـــاس يقولون انه جيد في الحرارة الشديدة . ولكنني لا أعاني أبدا من مثل هذه الحرارة .

وفجأة وجد المسافر أن من العسير الا يتكلم ، فرد بقوله :

ـ ولا انا . انني لا أعاني من اى شيء . انني ماعدت أعرف ماهي المعاناة . انني وصلت الى المنتهى في كل هذا ايضا .

ـ ايضا ؟

ـ مثل كل شيء . لقد بلغت نهاية كل شيء .

فتحول عنه رئيس الرهبان دون فضول ، وقال .

ـ لا بأس . انت تعرف أن المعاناة هي شيء سوف يظل استحضاره ماثلا على الدوام كلما حدث الدواعي اليه . طاب نومك . ســـوف اوقظك في الساعة الخامسة صباحا .

الفصل الثانى

— ١ —

فحص الدكتور كولين سجل الاختبارات التى اجريت على الرجل : لقد بين البحث عن بكتير الجذام فى المسحات التى اخذت من الجلد على مدار ستة شهور نتيجة سلبية . ان الرجل الذى وقف امامه بعصا تحت كتفه قد فقد كل اصابع قدميه ويديه . قال له الدكتور:

— بديع . لقد شفيت .

اقترب الرجل خطوة أو اثنتين من مكتب الطبيب . لقد بدت قدميه عديمتا الأصابع ، كعودين أو « قضيبين » ، وكان اذا مشى كمن يدق الأرض ويسطحها . وقد قال فى اشفاق :

— هل لابد أن اذهب من هنا ؟.

نظر الدكتور كولين الى العقب الذى بسطه الرجل كقطعة خشب شكلت بصورة جافية الى ما يشبه يد انسان ، كانت القاعدة السارية فى مستعمرة الجذام هذه الا تؤدى سوى الحالات المرضية المعدية . وكان على البارئين من المرض ان يعودوا الى قراهم ، أو — اذا تيسر — ان يتابعوا مايلزم من علاج كمرضى من الخارج فى مستشفى بلدة « لوك » ، عاصمة الاقليم . لكن « لوك » كانت تبعد اياما كثيرة سواء بطريق البر او النهر . وقال الدكتور كولين اخيرا :

— من العسير أن تجد عملا لك فى الخارج . وسأرى مايمكن عمله من أجلك . اذهب وكلم الأخوات .

والواقع ان العقب بدا بلا فائدة ، ولكن كان من الخوارق مايمكن ان تؤديه اليد المبتورة الأصابع بعد التطبيم . فهناك رجل فى مستعمرة الجذام بغير اصابع علموه كيف يخيط مثل اية اخت . ولكن حتى النجاح فى هذا كان مثيرا للحزن ، اذ كانت نتيجته مضيعة للجهد والمادة ، لقد ظل الطبيب على مدار خمسة عشر عاما وهو يحلم بيوم تتهيأ فيه الاعتمادات المالية لاستحداث ادوات خاصة تلائم كل حالة من حالات التشوه ، ولكنه الآن لايجد من المال مايكفى حتى لتزويد المستشفى (بمراتب) صالحة .

وقد سأل الطبيب الرجل عن اسمه ، فاجاب :
ـ ديوجراتياس .
وفي تضجر نادى الطبيب الرقم التالى .
طوال خمسة عشر عاما لم يعرف الدكتور كولين الا يومين اشد حرارة من هذا اليوم . وحتى ابناء الاقليم كانوا شاعرين بوطأة الحرارة ولم يصل الى المستوصف هذا اليوم اكثر من نصف عددهم المعتاد . ولم تكن هناك حتى مروحة ، وكان الدكتور كولين يقوم بعمله تحت مظلة في الشرفة ، بها منضدة ، ومقعد خشبى صلب ، ومن خلفه غرفة المكتب الصغيرة التى كان يرتاع من دخولها لعدم كفاية التهوية .
وتعاقب المرضى يكشفون اجسامهم امامه واحدا بعد الآخر . وكان يجرى أصابعه على سطح المريض ويدون ملاحظاته بصورة تكاد تكون آلية . كان يعلم أن الملاحظات غير ذات قيمة لدى المرضى ، ولكن لمس اصابعه كان يهيىء راحة نفسية لهم . فبهذا يدركون أنهم غير « منبوذين » . والواقع ان الطبيب يضع فى حسبانه دائما انه بعد ايجاد العلاج للمرض بدنيا ، فان الجذام سيظل دائما مشكلة نفسانية .
ثم ترامى الى سمع الدكتور كولين صوت جرس سفينة . وفى هذه اللحظة مر رئيس الرهبان بالمستوصف راكبا دراجته متجها الى الشاطىء . وقد لوح بيده فرفع الطبيب يده ردا للتحية . لعل هذا اليوم هو موعد وصول سفينة شركة أوتراكو التى تأخرت عن موعدها طويلا . كان المفروض أن تصل مرة كل أسبوعين بالبريد ، ولكن لم يكن يمكن الاعتماد عليها بحال .
وكانت الساعة تناهز الثانية عشرة عندما انهى الطبيب عمله لهذا اليوم . فدخل الى المكتب الصغير الحار ومسح يديه بالكحول .
ولم يلبث ان سار الى الشاطىء . كان ينتظر كتابا مرسلا اليه من اوربا ، هو اطلس الجذام اليابانى ، ولعله وصل الآن مع البريد .
كان الشارع الطويل فى قرية المجذومين يؤدى الى النهر . كانت به بيوت صغيرة من حجرتين مبنية بالآجر ، وقد الحقت بها فى الساحات الخلفية أكواخ من الطين . وعندما جاء الى هنا منذ خمسة عشر عاما لم يكن ثمة سوى اكواخ الطين ـ وهى الآن تستخدم كمطابخ ومع ذلك فقد جرت العادة عندما يوشك احد على الموت أن ينسحب الى الساحة الخلفية . لاينبغى له أن يموت فى سكينة فى غرفة مزودة بجهاز راديو وصورة للبابا . انما هو يتأهب للموت فقط حيث

مات اسلافه من قبل ، فى الظلام الذى تكتنفه رائحة الطين اليابس والاوراق الجافة . وفى الفناء الخلفى الثالث الى اليسار كان هناك شيخ يقضى نحبه الآن ، جالسا فى مقعد فى عتمة باب المطبخ .

وكانت الأرض فيما وراء القرية وقبيل النهر بقليل يجرى تمهيدها ليوم تتيسر فيه اقامة المستشفى الجديد . كانت مجموعة من المجذومين تدق الرقعة الأخيرة فى الموقع تحت اشراف الأب جوزيف الذى كان يعمل معهم جنبا لجنب ويدق الأرض بنفسه مرتديا بنطلونه « الجاكى » العتيق وقبعته الرخوة التى نال منها الزمن .

قال الدكتور كولين مناديا الأب جوزيف :

ـ سفينة أوتراكو !...

فرد الأب جوزيف قائلا :

ـ لا . هى سفينة الأسقف .

ومضى فى تمهيد الأرض بقدميه قائلا :

ـ يقولون هناك مسافر على ظهر السفينة .

ـ مسافر ؟

وشارف الدكتور كولين فى سيره مدخنة السفينة التى برزت بين اكداس الكتل الخشبية المعدة للوقود . وشاهد رجلا يتقدم الى ناحيته . ورفع الرجل قبعته ، فبدا فى مثل سنه ، فى أواخر الخمسينات ، فى وجهه منابت لحية بادية المشيب ، وكان يرتدى بذلة استوائية مجعدة ، وقال يعرفه بنفسه :

ـ اسمى كيرى .

ولم تكن جنسيته أوضح من لهجته . فقال الطبيب :

ـ انا الدكتور كولين . هل تبقى هنا ؟

ـ ان السفينة لن تسير الى أبعد من هذا المكان .

قال الرجل هذه الكلمات وكأنها كانت التفسير الوحيد للموقف .

ـ ٢ ـ

كان الدكتور كولين ورئيس الرهبان يقومان مرة كل شهر بمراجعة حسابات الارسالية فيما بينهما . ان الانفاق على مستعمرة الجذام كان فى نطاق مسئولية (الأخوية الرهبانية) التى تنتمى اليها الارسالية ، اما مرتب الطبيب وتكاليف الأدوية فكانت الحكومة تتكفل بها . وكانت الحكومة هى الطرف الأغنى ، ولكن الأقل رغبة فى البذل ، ومن ثم كان الطبيب يبذل قصارى جهده لتخفيف العبء عن (الأخوية الرهبانية) . وفى كفاح الاثنين للعدو المشترك وهو الداء

المضال نشأت بين الرجلين صداقة وثيقة . وكان الدكتور كولين يشهد القداس احيانا ، وان كان معروفا انه الى العلمانية اقرب منه الى التدين . وكانت المشكلة الوحيدة التي يعانيها الطبيب هي سيجار (الشيروت) الذي لم يكن يفارق شفتي الراهب والذي كان رماده يتناثر بين اوراق الطبيب بلا انقطاع ، خصوصا هذه المرة عندما جلس الدكتور كولين بعد تقديره لكبير الأطباء في (لوك) عن حاجة الارسالية الى ساعة حائط جديدة وثلاث (ناموسيات) ، لتحويله بدوره الى الحكومة .

قال رئيس الرهبان معتذرا عن رماد السيجار الذي تناثر بين صحائف اطلس الجذام الياباني الذي كان الطبيب يتصفحه ، وهو اشبه في الوانه الزاهية ورسومه الخلقية باحدى لوحات فانجوخ .

ـ انا آسف . هذا في الحقيقة شيء لا يطاق . لكنك سوف تعذرني . فانني تلقيت زيارة من مسيو ريكيه . انه يثير اعصابي .

ـ وماذا يريد ؟

ـ آه . انه اراد ان يستقصي موضوع زائرنا الجديد . ثم انه بالطبع كان على أتم استعداد لشرب (الويسكي) الذي جاء به الزائر .

ـ هل كان هذا يساوي رحلة ثلاثة أيام ؟

ـ حسنا . انه نال (الويسكي) على الأقل . وقد قال ان الطريق البري ظل مستحيلا لمدة أربعة أسابيع ، وانه شعر بانه (يتصور) لحديث ثقافي يشبع نهمه الفكري .

ـ وكيف حال زوجته ـ ومزرعة النخيل ؟

ـ ان ريكيه يسعى الى المعلومات ، ولا يشفي الغليل بمعلومات لغيره . وقد بدأ متلهفا للمناقشة في مشاكله الروحية .

ـ ماكنت اتصور قط ان له اية مشاكل روحية .

ـ اذا لم يكن للانسان مايتباهى به ، فانه يتباهى بمشاكله الروحية . وبعد ان شرب كأسين من الويسكي ، بدأ يحدثني عن صلاة المائدة .

ـ وماذا فعل ؟

ـ لقد أعرته كتابا . وبالطبع لن يقراه . ان ست سنوات امضاها شكلا في معهد اللاهوت لم تجده نفعا . لكن بغيته الحقيقية كانت اكتشاف من هو كيري زائرنا الجديد ، ومن أين جاء ، والى متى سيبقى هنا . وقد كنت على استعداد لكي اخبره بهذا لو انني كنت أعرف شخصيا . ومن حسن الحظ ان ريكيه يخاف المجذومين ، وقد تصادف وقتها ان دخل علينا تابع كيري . لماذا خصصت

ديوجراتياس لكيرى ؟

ـ ان الفتى قد شفى ، لكنه من الحالات (المحترقة) ، وهى كما تعرف حالات المجذومين الذين يفقدون اطرافهم بسبب المرض قبل تمام شفائهم ، ولم يكن فى نيتى ابعاده والاستغناء عنه . ففى قدرته أن يكنس الأرض ويعد فراشا للنوم بغير اصابع اليدين والقدمين .

ـ ان زائرينا احيانا شديدو الحساسية ويصعب ارضاؤهم .

ـ اؤكد لك ان كيرى لا يهتم بهذا . والواقع انه طلب ديوجراتياس شخصيا . فقد كان الشاب هو اول مجذوم شاهده عندما هبط من السفينة . وطبعا قلت له ان الشاب قد شفى .

ـ ان ديوجراتياس جاءنى برسالة أثناء اجتماعى مع ريكيه ، ولا اظن انه استحب أن المسها . وقد لاحظت انه لم يصافحنى عند انصرافه . يالغرابة الأفكار التى تخطر للناس عن الجذام يادكتور !

ونفض رئيس الرهبان رماد سيجاره فى المنفضة ، ولكن التوفيق لم يكن يحالفه تماما فى هذه العملية ، بينما ساله الطبيب :

ـ مارايك فى كيرى يا أبى ؟ ماظنك فيما جاء به الى هنا ؟

ـ ان مشاغلى الكثيرة لا تسمح لى بالتدسس الى الدوافع التى تحرك اى انسان . انني هيأت له غرفة وفراشا . ان فما آخر نطعمه ليس مشكلة . وانصافا له فانه بدا على أتم استعداد لمديد المعاونة ـ ان كان هناك اية معاونة يمكنه تقديمها . ولعله لايعدو أن يكون بسبيل البحث عن مكان هادىء ينالَ فيه الراحة .

ـ قليل من الناس من يمكن أن يختاروا مستعمرة جذام مكانا للاستجمام .

ـ لن يجدينا كثيرا أن نفتش عن الدوافع عند كيرى . انه لايسىء الى أحد فى شىء .

ـ فى اليوم الثانى لوجوده هنا اخذته الى المستشفى ، فقد اودت أن اختبر ردود الفعل عنده . كانت هى المعتادة فى الواقع : الغثيان لا الاستهواء . وقد اضطررت ان اعطيه نشقة من الأثير .

ـ انا لست متشككا مثلك يادكتور فيما يحرك الناس من دوافع . هناك أناس يحبون الفقر ويتعاطفون معه . فهل هذا مدعاة للانتقاد والتشكك فى الدوافع ؟

ـ ان المتعاطف مع المجذومين يصبح ممرضا خائبا وينتهى بأن يلحق بمرضى الجذام .

ـ ورغم هذا فقد قلت انت يادكتور ان الجذام هو مشكلة

نفسانية. وقد يجدي على المجذوم اكبر الجدوى أن يشعر بمن يحبه.
ـ يوسع المريض دائما أن يميز ان كان محبوبا لذاته أو أن الجذام فقط هو مبعث الحب . انا لا أريد أن يكون الجذام محبوبا انني أريد استئصاله . هناك خمسة عشر مليونا من المجذومين في العالم . اننا لانريد أن نضيع الوقت مع ذوى الأعصاب المضطربة يا أبى .
ـ ليتك تجد وقتا تضيعه يادكتور. فانك تجهد نفسك في العمل.
لكن الدكتور كولين لم يكن منصتا الى هذا الكلام ، فقد قال :
ـ هل تتذكر مستعمرة الجذام الصغيرة في قلب الغابات ، تلك التي كانت تشرف عليها الراهبات ؟ عندما اكتشف عقار (دى ـ دى ـ اس) لشفاء الجذام فان المرضى هناك تناقص عددهم حتى أصبح يعد على أصابع اليد . فهل تعرف ماذا قالت لي احدى الراهبات ؟ « هذا فظيع يادكتور . عن قريب لن نجد عندنا مجذومين بتاتا » . هذا بالتأكيد طراز من المتعاطفين مع الجذام .
فقال رئيس الرهبان :
ـ يا للمسكينة ! انك لم تنظر الى الجانب الآخر .
ـ أي جانب آخر ؟
ـ جانب العانس المتقدمة في السن ، ذات الأفق المحدود ، المتلهفة لفعل الخير ، ولأن تكون ذات نفع . ان الدنيا ليس فيها مكان متسع لاناس من هذا الطراز . وقد أدى استعمال أقراص العقار الأسبوعية الى ملاشاة ماكانت تمارسه من الانبعاث الى الخير والخدمة الاجتماعية .
ـ ظننتك يا أبى لا تعنى بالدوافع الحافزة الى العمل والتصرف .
ـ آه . انني أستقصي فقط الظواهر السطحية مثلما تفعل في تشخيصك يادكتور . لكن قد يكون من الخير لنا جميعا اذا نحن قنعنا حتى بهذه السطحية . ليس هناك ضرر حقيقي في حكم يبنى على السطحية ، لكن اذا نحن بدأنا في سبر ماهو كائن وراء تلك الرغبة في حب الخير ونفع الغير ، فقد نجد أشياء رهيبة ، ويستحوذ علينا اغراء بالتوقف عند هذا الحد ... ومع ذلك اذا واصلنا التعمق وسبر الأغوار ، فمن يدري ماذا تكون النتيجة ؟ ـ ان هذه الأشياء المرهوبة قد لاتعدو أن تكون طبقات قليلة تحت السطح . على أي حال فان الأدعى الى السلامة هو تقبل الأحكام الظاهرية . بالامكان دائما نبذها ، حتى من جانب الضحايا .
ـ وكيري ؟ ماذا عنه ؟ من ناحية الظواهر السطحية بالطبع .

القسم الثانى

الفصل الأول

ـ ١ ـ

من الضرورى دائما للغريب اذا حل فى منطقة غير مألوفة أن يبادر الى احاطة نفسه بجو يعهده وسكن اليه ، كأن يتزود بآلة فوتوغرافية أو بمجموعة كتب جاء بها معه . لكن كيرى لم يتزود بآلة فوتوغرافية ولا كتب ، وكل ماجاء به هو دفتر يومياته . وفى صباح أول يوم عندما أوقظ من نومه فى الساعة السادسة على صوت الصلوات المنبعث من الكنيسة الصغيرة الملاصقة لبابه ، استحوذ عليه ألم بالغ ، هو ألم الوحدة المطبقة والعزلة الشاملة عن البيئة التى جاء اليها .

وقبل أن يسترسل فى تحليل هذه المشاعر التى تضرب جذورها فى الماضى البعيد سمع صوت ديوجراتياس وهو يطرق الباب . كان الصوت فى الحقيقة صرير (عقب) يديه وهو يعالج رفع رتاج الباب وكان معه دلو ماء حمله معلقا على معصمه . ان كيرى كان قد سأل الدكتور كولين قبل استخدام ديوجراتياس أن كان الشاب يعانى من الألم ، فطمأنه الطبيب مؤكدا أن فقد أصابع اليدين والقدمين هو البديل للألم .

وهكذا بدأ كيرى منذ صباح يومه الأول يهيىء لنفسه هذا الجو المعهود فى نطاق غير المعهود . كانت هذه هى سنة البقاء ، وكذلك كان كل صباح يفطر فى الساعة السابعة مع الآباء فى الارسالية . كانوا يتوافدون الى القاعة العامة من حيث كانوا يباشرون مختلف الأعمال الموكولة اليهم فى الساعة الماضية ، منذ انتهاء الصلوات . وقد كان الأب بول والأخ فيليب مسئولين عن المولد الذى يمد بالكهرباء الارسالية ومستعمرة الجذام . وكان الأب جان معهودا اليه باقامة القداس فى بيت الراهبات ، وكان الأب جوزيف يشرف على العمال

وهم يمهدون الأرض لاقامة المستشفى الجديد . اما الأب توماس ذو العينين الغائرتين فى وجهه الشاحب المغبر فكان يزدرد قهوته مسرعا وكأنها دواء مقزز ، ثم ينثنى مهرولا للاشراف على المدرستين .

ولكن كيرى تحرى أن يعزل نفسه عن صحبتهم . فقد كان خائفا من الأسئلة التى يمكن أن يبادروه بها ، حتى بعد يدرك انهم — مثل رهبان معهد اللاهوت على النهر — لن يبادروه باسئلة ذات شأن ، وحتى الأسئلة التى كانوا يرونها ضرورية كانت تصاغ بعبارات تقريرية مثل : « يوم الأحد يصل الى هنا أتوبيس فى الساعة السادسة والنصف اذا رغبت فى حضور القداس » . ولم يكن كيرى مطالبا بأن يرد عليهم بقوله انه تخلى عن شهود القداس منذ أكثر من عشرين سنة . وهكذا فان غيابه لن يكون ملحوظا .

وبعد الافطار كان يأخذ كتابا استعاره من مكتبة الطبيب الصغيرة ويقصد الى ضفة النهر . كان النهر يتسع عند هذه البقعة الى نحو ميل . وكان يجلس فوق صندل عتيق مهجور يلوذ به من النمل ، وكانت جلسته تمتد حتى الساعة التاسعة عندما تصبح الحرارة غير محتملة . كان يقرأ أحيانا ، واحيانا اخرى كان يراقب جريان النهر بما يحمل من جزر الحشائش والنباتات المائية فى مسيرة لا نهاية لها من قلب افريقيا الى مصبه فى البحر السحيق .

فاذا اشتدت الحرارة واستحال الجلوس فى الشمس انضم الى الطبيب فى المستشفى أو المستوصف ، فاذا انتهت هذه الفترة كان ذلك ايذانا بتنصف النهار . ولم يعد الآن يشعر بالغثيان من أى شىء يبصره ، وغدا فى غير حاجة الى زجاجة الأثير .

وبعد شهر على هذا النحو تحدث الى الطبيب ، فقال له :

— الا ترى أن الأيدى العاملة تنقصك وانت تتعامل مع ثمانمائة من الناس ؟

— هو ذاك .

— لو تيسر أن تكون لى فائدة عندك — انا أعرف اننى غير مدرب .

— انك ستفارقنا قريبا ، أليس كذلك ؟ . .

— لم أضع أية خطط لى .

— هل لك أية دراية بالعلاج بالكهرباء ؟

— لا .

— يمكن تدريبك ، اذا كنت ترغب . ستة أشهر فى أوربا .

فقال كيرى :

ـ لا أريدان اعود الى أوربا .
ـ ابدا ؟
ـ ابدا . انا خائف من العودة .
ان هذه العبارة بدت فى سمه درامية ، فحاول سحبها قائلا :
ـ لست اعنى الخوف بمعناه . لمجرد هذا السبب او ذاك .
اجرى الطبيب اصابعه فوق البقع البادية على ظهر طفل . ان الطفل كان يبدو لغير العين المتمرسة تام الصحة . ولكن الدكتور كولين قال :
ـ هذه حالة سوف تكون متفاقمة . تحسس هنا .
كان تردد كيرى غير ملحوظ مثل الجذام ذاته . ولأول وهلة لم تستشف اصابعه شيئا ، ولكنها لم تلبث أن تعثرت فى مواضع بدا فيها جلد الطفل وقد نمت فوقه طبقة اضافية . فقال الطبيب :
ـ هل لك اية دراية بالكهرباء ؟
ـ انا آسف .
ـ ذلك لأننى فى انتظار بعض الأجهزة من اوربا . لقد تأخر وصولها طويلا . وبهذه الأجهزة سوف يكون فى استطاعتى أن اقيس درجة حرارة الجلد فى عشرين موضعا فى وقت واحد . لا يمكنك أن تستشف هذا باصابعك ، ولكن هذه العقدة الصغيرة اكثر حرارة من باقى البشرة حولها . وفى المأمول ان اتمكن ذات يوم من أن اعرف مثلها مسبقا واتخذ الاجراءات اللازمة . انهم يحاولون هذا فى الهند الآن .
فقال كيرى :
ـ انك تتكلم عن أشياء مستعصية على . انا رجل ذو مهنة واحدة . موهبة واحدة .
فقال الطبيب :
ـ وماهى هذه المهنة ؟ نحن هنا كمدينة مصغرة ، وليس هناك سوى مهن قليلة لا نستطيع أن نجد لها مكانا عندنا .
وتطلع الى كيرى بارتياب مفاجيء ، قائلا :
ـ لعلك لست من الكتاب ؟ لامكان الكاتب هنا . اننا نريد أن نعمل فى سلام . اننا لانريد أن تكتشف الصحافة العالمية وجودنا هنا كما اكتشفت شفايتزر .
ـ انا لست كاتبا .
ـ أو مصور ؟ ان المجلومين هنا لن يقبلوا أن يكونوا معروضات

فى أى متحف للرعب .

ـ لست مصورا . صدقنى اننى أريد السلام بالقدر الذى تريده انت . ولو استطاعت السفينة أن تتقدم الى ابعد من هنا لما هبطت منها عندكم .

ـ اذن قل لى ماهى مهنتك ، لكى اضعك فيما انت مؤهل له .

فقال كيرى :

ـ اننى هجرت المهنة .

ومرت فى هذه اللحظة احدى الاخوات فوق دراجة لمشغلة تعنيها فمضى كيرى يقول :

ـ الا يوجد شىء بسيط يمكن ان اكسب منه قوتى ؟ التضميد مثلا ؟ اننى لم اتدرب على هذا ايضا ، لكن لن يصعب تدريبى . من المؤكد وجود شخص ما يتولى غسل الأربطة والضمادات . بامكانى ان احتل مكانا أوفر به عاملا أكثر نفعا .

ـ هذا اختصاص الاخوات . وحياتى هنا ماكانت تجدى نفعا لو اننى تدخلت فى اختصاصاتهن . هل تشعر بالقلق وعدم الاستقرار ؟ ربما تستطيع عند عودة السفينة الى هنا فى المرة القادمة أن تعود الى العاصمة . هناك فرص كثيرة فى (لوك) .

فقال كيرى :

ـ لا أنوى أن اعود أبدا .

فقال الطبيب ساخرا :

ـ فى هذه الحالة يحسن ان تنذر الآباء .

ثم نادى عامل المستوصف قائلا :

ـ كفى مرضى لهذا اليوم .

وبينما جعل يغسل يديه بالكحول ادار راسه نحو كيرى قائلا بعد أن صارا وحدهما :

ـ هل انت مطلوب للبوليس ؟ لا لزوم للخوف من أن تقول لى ـ او لأى احد بيننا . سوف تجد مستعمرة الجذام هنا مكانا مامونا كل الأمن .

ـ لا . انا لم ارتكب جريمة . أؤكد لك انه ليس فى حالتى اى شىء يثير الاهتمام . اننى اعتزلت ، وهذا كل شىء . واذا كان الآباء لا يريدوننى هنا ، ففى امكانى دائما أن امضى فى طريقى .

ـ لقد قلتها انت نفسك : ان السفينة لا تستطيع التقدم ابعد من هنا .

ـ هناك الطريق البرى .
ـ نعم . فى اتجاه واحد . هو الطريق الذى جئت منه ، وهو ليس مفتوحا دائما . هذا فصل الأمطار .
فقال كيرى :
ـ هناك دائما قدماى .
بحث كولين عن ابتسامة فى وجه كيرى ، لكنه لم يجد لها اثرا . فقال :
ـ اذا كنت تريد مساعدتى حقا ولا تمانع فى رحلة شاقة ، فيمكنك ان تركب سيارة النقل الثانية وتذهب الى (لوك) . ان السفينة قد لاتعود الى هنا قبل اسابيع ، واجهزتى الجديدة لابد انها وصلت الآن الى البلدة . ان الرحلة سوف تستغرق حوالى ثمانية أيام ذهابا وايابا ـ اذا حالفك الحظ . فهل تذهب ؟ سيكون معنى هذا ان تنام فى الغابة ، واذا لم تكن (المعديات) عاملة فسوف تضطر الى العودة .
ثم استطرد الطبيب قائلا وقد صمم فى نفسه الا يتهمه رئيس الرهبان بانه الح على كيرى بالذهاب :
ـ هذا فقط اذا كنت تريد المساعدة من ناحيتك ... فانت ترى ان رحلة كهذه مستحيلة لاى احد منا هنا . لا يمكن الاستغناء عنا .
ـ بالطبع . سوف ابدأ الرحلة فى الحال .
بدا للطبيب انه قد يكون هنا ايضا امام حالة من (الالتزام) ، لكنه ليس التزاما لاية قوة قدسية او اجتماعية ، وانما لاى شىء مما تسوقه المقادير . واستطرد قائلا :
ـ ويمكنك ايضا ان تأخذ معك بعض الخضر واللحم المحفوظ . بامكانى أنا والآباء ان نجتزىء بما عندنا تغييرا لنمط الغذاء . وهناك ثلاجات فى (لوك) . قل لديوجراتياس ان يجهز لك فراشا سفريا من بيتى . واذا وضعت دراجة فى سيارة النقل فيمكنك ان تمضى الليلة الأولى عند اسرة (بيران) ، لكن لن يمكنك الوصول الى مقرهم بالسيارة ، لانهم على مبعدة من النهر . وهناك ايضا اسرة شانتان بعدهم بحوالى ثمانى ساعات ـ اللهم الا اذا كانوا قد عادوا الى اوربا لست اتذكر تماما ، وبعد هذا كله هناك دائما ريكيه قرب المعدية الثانية ، على مدى نحو ست ساعات من (لوك) . انا واثق انك سوف تلقى ترحيبا حارا منه .
فقال كيرى :

ـ انني افضل أن انام فى سيارة النقل . انا لست رجلا اجتماعيا .
ـ انني احذرك . ليست هذه رحلة سهلة . وبامكاننا دائما أن ننتظر عودة السفينة .
وتوقف برهة حتى يرد كيرى ، ولكن كل ماتيسر لكيرى ان يقوله هو :
ـ يسرنى أن تكون لى فائدة .
والواقع أن الارتياب بين الاثنين أمات كل حوار جديد . وبدا للطبيب أن العبارات الوحيدة التى يمكن أن يلتمسها للتعبير الآمن السليم هى من قبيل العقاقير المطهرة المحفوظة فى ركن قصى بالمستوصف !

ـ ٣ ـ

كان النهر يخترق الغابات بمنحنى شديد ، وقد عجز الحكام المتعاقبون عن شق طريق عبر هذا المنحنى يمتد من بلدة لوك العاصمة بسبب تكاثف الغابات وغزارة الأمطار . وكان الدرب الوحيد المطروق مجازا ضيقا لا يجسر أحد على اجتيازه اثناء الأمطار . وكانت المستوطنات القليلة القائمة فى الغابة تغدو عندئذ معزولة تماما ، اللهم الا باستخدام الدراجة التى تصل براكبيها الى النهر حيث يعسكرون فى احدى قرى الصيد انتظارا لوصول سفينة .
وفى الليلة الأولى لرحلة كيرى توقف بسيارة النقل الصغيرة عند منعطف فى الطريق يتفرع منه درب يؤدى الى مزرعة أسرة (بيران) وقد فتح علبة حساء وعلبة لحم محفوظ بينما أعد له ديوجراتياس فراشا فى الجزء الخلفى من سيارة النقل واشعل موقد الطهى ، وعرض كيرى عليه أن يشاركه طعامه ، ولكن الشاب كان قد جاء معه بطعام خاص ، وجلس كلاهما معتزلا عن الآخر يتناول عشاءه فى صمت . وبعد العشاء اقترب منه كيرى وفى نيته ان يبادره بكلام ما ، ولكن الشاب نهض على قدميه ونأى عن الحديث على نحو اوقف الكلمات على لسان كيرى وكأنما تطفل عليه فى كوخه بالقرية .
وهكذا سار مبتعدا مسافة قليلة عن السيارة لشعوره بأن النوم عصى عليه ، فسمع وقع قدمى ديوجراتياس من خلفه . لعله تبعه بفكرة حمايته ، أو لعله خاف أن يبقى وحيدا فى الظلام قرب سيارة النقل . فاستدار كيرى متبرما اذ لم تكن لديه رغبة فى أية صحبة ، واذا الرجل منتصب أمامه على قدميه المستديرتين بلا أصابع ، مستندا على عصاه ، فكان أشبه بشىء نبت فى هذه البقعة منذ

أجيال يعلم به الناس فى يوم معين يحملون اليه القرابين والهدايا .
قال له كيرى :
ـ هل هذا الدرب يؤدى الى مستوطنة اسرة بيران ؟
فرد الرجل بالايجاب . ولكن كيرى كان يعرف انه رد تقليدى لا يؤكد شيئا . وهكذا عاد ادراجه الى السيارة وتمدد فوق الفراش السفرى . وسمع ديوجراتياس وهو يعد لنفسه فراشا اسفل السيارة ، فاستلقى كيرى على ظهره محدقا فى مكان النجوم التى غيبها عن ناظريه سقف (الناموسية) . وقد حلم فى نومه بفتاة عرفها ذات مرة وخال انه أحبها ، فجاءت اليه باكية لأنها كسرت زهرية تعتز بها ، وقد غضبت منه لأنه لم يشاركها الألم والحزن ، وصفعته على وجهه ، ولكنه شعر بالصفعة خفيفة رقيقة على خده ، وقال لها : « انا آسف . ان حالتى متفاقمة ، ولا يمكننى الاحساس بشىء على الاطلاق . انا مجذوم » . وفيما هو يشرح لها مرضه افاق من نومه .
على هذه الشاكلة كانت ايامه ولياليه . لم يكن يكربه شىء ، ولم يضايقه سوى شعور الملل فى الغابة .
ثم تبين أن المعديات صالحة للعمل ، وان الأنهار لم تكن تتعرض للفيضان برغم الأمطار التى تدفقت غزيرة فى ليلتهما الأخيرة . واشرقت الشمس من جديد . وغدا الدرب طريقا سويا على بعد اميال قليلة من (لوك)

(٣)

بحثا طويلا عن جهاز الدكتور كولين قبلما عثرا على اثره .
ابدى قسم البضائع فى شركة أوتراكو أنه لا يعرف شيئا عنه ، واشار بالبحث عنه فى الجمرك .
وفى مكتب الجمرك الصغير رحب المراقب الهولندى بكيرى ودعاه الى الجلوس وتناول كأس من الشراب ، ولكنه عندما سمع أن كيرى [illegible]

المختص الذى ظن أن الطرد ربما كان يحتوى على تمثال مقدس أو كتب لمكتبة الآباء قد أنكر أول الأمر كل علم بأمره . ثم أبدى فى النهاية أن الطرد قد أعيد ارساله الى وجهته على ظهر سفينة شركة أوتراكو فى رحلتها الأخيرة ، وربما كانت السفينة محتجزة فى مكان ما عبر النهر . وهكذا قصد كيرى بسيارة النقل الى مستودع الأغذية المحفوظة للحصول على قدر من البقول ، واضطر ان يقف فى الصف الطويل .

كانت الأصوات من حوله عالية صاخبة ، حتى خيل اليه لحظة انه عاد الى أوربا ، فانكمش على نفسه بحركة غريزية خوفا من ان يعرفه أحد . لقد تجلى له وهو فى هذا المتجر المزدحم أن السكينة التى ينشدها كانت مكفولة الى حد ما عبر النهر وفى شوارع مستعمرة الجذام . وقد سمع صوت امرأة تقول للمدير الأوربى محتجة :

ـ لكن لابد أن يكون عندكم بطاطس . كيف يمكن أن تنكر هذا ؟ انها جاءت بطائرة الأمس ، وهذا ما أخبرنى به قائد الطائرة . اننى دعوت الحاكم للعشاء .

وبهذه العبارة التهديدية الأخيرة ظهرت البطاطس خفية ملفوفة فى كيس من السيلوفان .

وفجأة سمع كيرى صوتا يقول :

ـ أنت كيرى . أليس كذلك ؟

التفت . كان المتكلم رجلا طويلا مقدس القامة مفرطا فى البنية . وكان له شارب صغير أسود مثل بقعة سناج ، ووجه ضيق مسطح ممتد كخطين متوازيين . ومالبث أن وضع يدا حارة قلقة على ذراع كيرى قائلا :

ـ اسمى ريكيه . اننى لم أعثر عليك فى اليوم الفائت عندما زرت مستعمرة الجذام . كيف جئت الى هنا ؟ هل وصلت سفينته ؟

ـ جئت بسيارة نقل .

ـ كنت محظوظا اذ تمكنت من المرور . لابد أن تبقى ليلة فى منزلى وأنت فى طريق العودة .

ـ على أن أعود الى مستعمرة الجذام .

ـ بامكانهم الاستغناء عنك يامسيو كيرى . لابد لهم أن يتصرفوا بغير وجودك . بعد أمطار الليلة الماضية سوف تكون المياه مرتفعة جدا بالنسبة للمعدية . لماذا تنتظر هنا ؟

ـ أردت فقط بعض البقول و ...

فصاح الرجل يومى على الطلب قائلا أن هذا هو الاسلوب المعتاد فى المتجر ، وعاد يقول له :

ـ ان البديل لاقامتك عندنا هو البقاء هنا حتى يهبط منسوب المياه ، واؤكد لك انك لن ترتاح فى الفندق . هذه بلدة محدودة ، وليس فيها مايشوق رجلا مثلك . انت كيرى العظيم ، اليس كذلك ؟

قال ريكيه هذا وقد اطبق فمه كفكى مصيدة وقد لمعت عيناه دهاء ومكرا كعينى مخبر سرى . بينما رد كيرى قائلا :

ـ لست أعرف قصدك .

ـ اننا لا نعيش كلنا معزولين عن العالم تماما مثل الآباء وصديقنا الطبيب المتشكك . هذه طبعا مثل صحراء ، ومع ذلك فاننا نحاول بقدر الامكان ان نكون على اتصال بالعالم . انني بالطبع سوف احترم وجودك متخفيا . لن أقول شيئا . ولك أن تثق بأننى لن افضح ضيفى . انك سوف تكون أكثر أمنا عندى منك فى الفندق . لايوجد سواى وزوجتى . والحقيقة كانت زوجتى هى التى قالت لى : « هل تظن انه يمكن أن يكون هو كيرى نفسه ؟ » .

ـ انت مخطىء .

ـ آه . لا . لست مخطئا . بامكانى أن اريك صورة فوتوغرافية عندما تأتى الى بيتى ـ صورة فى احدى الصحف التى تبقى عند الانسان لاحتمال أن تكون لها فائدة . لها فائدة ؟! هذه الصورة لها فائدة بالتاكيد ، لانه لولاها كنا نظنك مجرد قريب لكيرى أو أن الاسم هو محض مصادفة ؛ اذ من يتوقع أن يجد كيرى العظيم منزويا فى مستعمرة جذام فى قلب الغابة ؟ لابد لى ان اعترف أننى متعجب مملوء بالفضول . لكن بامكانك ان تثق بى ، وتثق بى على طول الخط . ان لى مشكلاتى الخطيرة الخاصة بى ، وهكذا فاننى اتعاطف مع رجل آخر له مشكلاته الخاصة به . انني دفنت نفسى ايضا . يحسن بنا الآن أن نخرج ، ففى بلدة صغيرة كهذه للجدران آذان .

ـ أنا آسف ... انهم ينتظرون عودتى ...

ـ الله وحده هو المتصرف فى احوال الجو . ثق ياسنيو كيرى انك غير مخير .

الفصل الثانى

كان البيت والمصنع يشرفان على مكان المعدية . لم يكن ثمة موقع أفضل من هذا يختاره رجل له طباع ريكيه الفضولية النهمة . وكان مستحيلا على أى انسان يستخدم الطريق البرى المؤدى من البلدة الى داخلية الاقليم الا ويمر بالنافذتين الواسعتين اللتين كانتا اشبه بعدستى منظار مكبر مسلط على النهر . وقد مرت بهما السيارة تحت الظلال القاتمة الزرقة لأشجار النخيل فى اتجاه النهر ، بينما تبعهما سائق ريكيه وديوجراسياس فى سيـــارة كيرى .

قال ريكيه :

ــ هذا هو الموقف ياسسيو كيرى . ان النهر ارتفعت مياهه كثيرا ولا فرصة أمامك للعبور هذه الليلة . ومن يدرى حتى اذا كان يمكن هذا غدا ..؟ وهكذا فأمامنا وقت لأحاديث طريفة ، أنت وانا .

وبينما اجتازت بهما السيارة ساحة المصنع بين الغلايات الضخمة المعرضة للصدأ كانت تفوح من حولهما رائحة قوية تشبه رائحة السمن الصناعى الزنخ ، وهبت لفحة هواء ساخن من خلال مدخل مفتوح الباب ، وبدا هيكل فرن يهدر فى الضوء الخالى . وقال ريكيه .

ــ لابد أن هذا العمل سيبدو فى نظرك بالطبع وأنت معتاد على المصانع فى (الغرب) شيئا عنيفا الى حد ما ، هـذا وان كنت لا اتذكر أنك كنت يوما مهتما بالمصانع ومايتصل بها .

ــ لا .

ــ هناك مجالات كثيرة جدا كان فيها كيرى العظيم مبرزا سباقا .

كان ريكيه يكرر فى حديثه كلمة (العظيم) وكأنها لقب من القاب الشرف لصيق بالاسم .

ومضى ريكيه يقول بينما كانت السيارة تدرج مهتزة بين الغلايات :

ــ ان المصنع يعمل ــ يعمل بطريقته العتيقة . اننا لانترك شيئا هنا تحت يد (العوادم) . عندما ننتهي من الثمار لا يبقى شىء ، فبعد أن يتم عصر الزيت تلقى بالقشور فى الفرن ، وهكذا لانحتاج الى اى وقود آخر لابقاء الفرن مشتعلا .

وتركا السيارتين في الفناء وتقدما الى البيت . ونادى ريكيه في الشرفة وهو يكشط الطين عن حذائه :

ـ مارى . مارى .

فجاءت فتاة ترتدى بنطلونا ازرق من القطن المبقن ذات وجه مليح ساذج وتقدمت مسرعة حول ناصية الشرفة تلبية للنداء . وقد هم كيرى أن يقول : « هذه ابنتك ؟ » عندما سبقه ريكيه قائلا :

ـ زوجتى . وهذا ياعزيزتى هو كيرى العظيم . انه حاول انكار نفسه ، لكننى قلت له أن عندنا صورة فوتوغرافية له .

ـ انا مسرورة جدا بلقائك ، وسوف نحاول أن نوفر لك اسباب الراحة .

لقد انطبع فى خاطر كيرى انها حفظت مثل هذه العبارات المنمقة عن ظهر قلب من مربيتها أو من كتاب (للاتيكيت) . والآن وقد القت الدور المحفوظ مالبثت أن اختفت فجأة كما جاءت . ربما كان جرس المدرسة قد دق للعودة الى فصول الدراسة !

قال ريكيه :

ـ اجلس . ان مارى ستعد الشراب . بوسعك أن ترى لننى دربتها لكى تعرف مايحتاجه الانسان .

ـ هل أنت متزوج منذ فترة طويلة ؟

ـ منذ سنتين . اننى جئت بها الى هنا بعد اجازتى الاخيرة . فى موقع كهذا من الضرورى وجود رفيق . هل أنت متزوج ؟

ـ نعم ـ اعنى اننى كنت متزوجا .

ـ اعرف بالطبع انك تظن . انها صغيرة جدا بالنسبة لى . لكننى انظر الى الامام . اذا كنت تؤمن بالزواج فعليك أن تنظـــر الى المستقبل . مازال امامى عشرون سنة ـ دعنى أمل لحياة نشطة ، وماذا يكون حال امرأة فى الثلاثين بعد عشرين سنة ؟ ان الانسان يحتفظ بحيويته فى المناطق الاستوائية . الا توافق ؟

ـ اننى لم افكر فى شىء من هذا قط ، ومازلت حتى الآن لاأعرف المناطق الاستوائية .

ـ ان مارى سوف تظل غضة شباب مدة كافية . اننى فى اعماق قلبى أؤمن ايمانا شديدا بالحب .

وجاء الساقى فى الشرفة يحمل صفحة تتبعه مدام ريكيه . فتناول كيرى كاسا ووقفت مدام ريكيه الى جانبه بينما رفع الساقى زجاجة (السيفون) ـ توزيعا للاختصاصات ، وسألته :

ـ هلا قلت مقدار الصودا التى تريدها ؟
فقال لها ريكيه :
ـ والآن ياعزيزتى ، غيرى ملابسك بثوب مناسب .
وبين الشراب عاد من جديد الى طرق ماوصفه (بموضوعك) . لقد صار الآن أقرب الى المشير الناصح منه الى المخبر السرى ، مما يؤهله للمشاركة فى الموقف ، وقال :
ـ لماذا انت هنا ياكيرى ؟
ـ لابد للانسان أن يكون فى مكان ما .
ـ ومع ذلك ، فكما قلت هذا الصباح ، لايمكن أن يتوقع احد وجودك عاملا فى مستعمرة جذام .
ـ انا لا اعمل هناك .
ـ عندما ذهبت بسيارتى الى هناك منذ اسابيع ، قال الآباء انك فى المستشفى .
ـ كنت أراقب الطبيب اثناء عمله . اننى موجود بالقرب منهم فقط ، هذا كل ماهناك . لايوجد مايمكن أن أقوم به .
ـ يبدو أن هذا اهدار للموهبة .
ـ ليست لى موهبة .
فقال ريكيه :
ـ يجب الا تحتقرنا نحن ابناء الأقاليم المساكين !
وعندما انتقلوا للعشاء ، وبعد أن ردد ريكيه صلاة مائدة قصيرة ، عادت مضيفة كيرى الى الكلام ، فقالت :
ـ ارجو ان تتهيأ لك الراحة هنا .
وقالت أيضا :
ـ هل تحب (السلطة) ؟
لقد بدا شعرها الأشقر يتخلله ويظلله العرق ، ورأى كيرى عينيها تتسعان اشفاقا عندما مرقت عبر المائدة فراشة سوداء وبيضاء بجناحين زرعهما كجناحى خفاش ، وقالت من جديد وعيناها المحدقتان تتبعان الفراشة عندما استقرت على الحائط كقطعة أشنة :
ـ لابد أن ترتاح هنا وكأنك فى بيتك .
لم يتمالك أن تساءل فى نفسه : ترى هل شعرت بأنها مرتاحة فى بيتها هى نفسها ؟ .
وقالت :
ـ لا يأتينا هنا زائرون كثيرون .

وذكره كلامها هذا بصبية اضطرت الى الترحيب بزائر ريثما تعود امها . وكانت قد ابدلت ملابسها فيما بين الويسكي والعشاء فارتدت ثوبا من القطن تغطيه رسوم أوراق الخريف ، كذكرى من ذكريات اوربا .

ولكن ريكيه قاطعها قائلا :

ـ لا زائر جاءنا مثل كيري العظيم على اى حال .

جاءت عبارته كما لو اسكت جهاز راديو كان مدارا لسماع درس في السلوك والتصرف بعد ان استمع الى مافيه الكفاية . لقد انقطع الصوت على الهواء ، ولكن بدا في عينيها الحذرتين الخجولتين كانما تريد أن تقول دون ان يسمعها أحد :

ـ إن الطقس كان حارا الى حد ما في الفترة الاخيرة ، اليس كذلك ؟ لعل رحلتك بالطائرة من أوربا كانت طيبة ؟

قال لها كيري :

ـ هل تحبين الحياة هنا ؟

روعها السؤال . ولعل الرد لم يكن في كتاب (الجمل المحفوظة) وقد أجابت :

ـ آه . نعم . نعم . انها مشوقة جدا .

وارسلت نظرها عبر منكبه تحدق من خلال النافذة الى حيث قامت الفلايات كتماثيل عصرية في الساحة التي يضيئها القمر ، ثم لم تلبث ان ارتدت بنظرها الى الفراشة فوق الحائط الى جانب سحلية ربضت تنتظر الفريسة .

قال ريكيه :

ـ هاتي لنا تلك الصورة ياعزيزتي .

ـ اية صورة ؟

ـ صورة مسيو كيري .

نهضت تجر قدميها كارهة وقد قامت بدورة لتجنب الحائط الذى حطت عليه الفراشة وربضت السحلية ، ثم عادت على الاثر ومعها نسخة قديمة من مجلة (تايم) .

لقد تذكر كيري صورة « الوجه » الذى يصفره الآن بعشرة أعوام منشورا على صفحة الغلاف (وكان صدور عدد المجلة متوافقا مع زيارته الأولى لنيويورك) . ان الفنان الذى رسم الصورة نقلا عن صورة فوتوغرافية له ، قد أسبغ على ملامحه مسحة رومانسية . فلم يكن هذا هو الوجه الذى كان يطالعه عندما يحلق ذقنه ، ولكن

كان اقرب الى وجه واحد من ابناء عمومته الابعدين . لقد عكست الصورة المرسومة المشاعر والافكار والآمال والدخائل التى لم يفض بها قطما الى اى صحفى . وكانت خلفية الصورة تمثل صرحا من زجاج وفولاذ يمكن ان يخاله الرائى قاعة للموسيقى او حتى دفيئة برتقال ، لو لم يبين صليب ضخم قائم خارج الباب انه مبنى كنيسة.

قال ريكيه :

ـ هكذا ترى انتا نعرف كل شىء .

ـ اننى لا اتذكر ان المقال المنشور كان دقيقا تماما .

ـ اظن ان الحكومة او الكنيسة قد عهدت اليك بانجاز عمل هنا ؟

ـ لا . فاننى اعتزلت .

ـ كنت اظن أن رجلا من طرازك لا يعتزل ابدا .

ـ آه . كل انسان يعتزل فى النهاية .

وعندما انتهى العشاء انصرفت (الفتاة) ، مثلما تفعل طفلة بعد الحلوى . وقال ريكيه :

ـ اظن انها ذهبت لكتابة يومياتها . هذا يوم مشهود بالنسبة لها ، اذ تقابل كبرى العظيم . أنها سوف تجد مما تدونه فى مفكرتها.

ـ هل تجد مادة كثيرة تكتب عنها ؟

ـ لا اعرف . فى البداية كنت القى نظرة هادئة على ماتكتب ، لكنها اكتشفت هذا ، وهى الآن تضع ماتكتب تحت القفل . واظن أننى ضايقتها كثيرا من هذه الناحية . اتذكر مرة انها كتبت فى يومياتها : « رسالة من امى . ان مكسيم المسكينة انجبت خمسة كلاب » . وكان ذلك فى اليوم الذى قلدتنى فيه الحاكم وساما ؛ لكنها نسيت ان تسجل اى شىء عن هذه المناسبة الحافلة .

ـ لابد أن الحياة هنا موحشة بالنسبة لسنها .

ـ آه . لا اعرف . هناك واجبات منزلية كثيرة حتى فى الغابة ، وحتى اكون صريحا كل الصراحة ، اظن ان الحياة اشد وحشة بالنسبة لى . انها ابعد أن تكون رفيقا مثقفا ، كما يمكنك أن ترى هذا بنفسك . وهذه هى احدى مساوىء الاقتران بزوجة صغيرة السن . اننى اذا اردت أن اتكلم فى المسائل التى تهمنى وتشوقنى فعلا ، يتعين على ان اقصد بالسيارة الى حيث يقيم الآباء . وماأطوله من طريق يقطعه الانسان من اجل حديث ! ان من يحيا الحياة التى احياها لديه وقت موفور لكى يفكر ويقلب الامور . انا متدين طيب فيما ارجو ، لكن هذا لايمنع من أن تكون لى مشاكل روحية . كثير

من الناس يأخذون عقيدتهم الدينية ماخذا يسيرا ، ولكنني امضيت ست سنوات وانا شاب مع الجزويت . ولو كان رئيسي وانا مترهب اكثر انصافا لما وجدتني هنا . لقد فهمت من ذلك المقال المنشور عنك في مجلة (تايم) انك من الكاثوليك أيضا .

فقال كيرى للمرة الثانية :

ـ اننى اعتزلت .

ـ آه . دع عنك هذا الكلام . الانسان لايكاد يعتزل هذا .

في هذه اللحظة وثبت السحلية فوق الحائط على الفراشة واخطأتها ، فربضت جامدة مرة اخرى ، ناشرة مخالبها الضئيلة على الحائط كانها أوراق سرخس .

وقال ريكيه :

ـ اقول لك الحقيقة . اننى اجد اولئك الآباء في مستعمرة الجذام جماعة لاترضى مثلى . فهم اكثر اهتماما بالكهرباء والبناء منهم بمسائل الايمان . ومنذ أن سمعت بوجودك هنا رحت أتطلع الى حوار مع كاثوليكى مثقف .

ـ لا يمكننى أن أطلق على نفسى هذا الوصف .

ـ خلال السنين الطويلة التى اقمتها هنا ، لبثت منكفئا على نفسى وحيد افكارى الخاصة . هناك رجال فيما اظن يمكنهم تدبير امورهم ، اما انا فلا . اننى قرات كثيرا جدا في موضوع الحب .

ـ الحب !

ـ حب الاله .

ـ لست مؤهلا للكلام في هذا .

فرد ريكيه قائلا :

ـ انك تفحط قدرك .

وقام الى مائدة جانبية وجاء بصحفة من الاشربة ، فاقلق بحركته السحلية التى اختفت خلف نسخة جافية من لوحة (الهروب الى مصر) ، وقال ريكيه :

ـ كأس من (كوانترو) ، أم تفضل (فان ديرهوم) .

وفيما وراء الشرفة راى كيرى هيكلا نحيلا في ثوب مصبوغ برسوم أوراق ذهبية يتحرك شطر النهر . لعل الرعب من الفراشات كان يتلاشى عند صاحبة الثوب المزركش في الهواء الطلق .

وقال ريكيه :

ـ لقد عودت نفسى وانا في معهد اللاهوت على التفكير اكثر من

معظم الرجال ، ان عقيدة كعقيدتنا ، اذا فهمها الانسان متعمقا ، تطرح امامنا مشكلات كثيرة . وعلى سبيل المثال ــ لا ، ليس هذا مجرد مثال ــ اننى سائب الى صميم مايقلقنى حقا ، فانا لا اعتقد ان زوجتى تفهم الطبيعة الحقة للزواج فى ضوء العقيدة الدينية .

سرى من الخارج فى الظلام صوت شيء يلقى فى الماء ، ولعلها قطع اخشاب صغيرة ترمى فى النهر .

ومضى ريكيه يقول :

ــ يبدو لى احيانا انها جاهلة لكل شيء تقريبا . واجدنى اتساءل فى نفسى ان كانت الراهبات قد علمنها اى شيء على الاطلاق . وقد رايت هذا بنفسك ــ فانها حتى لاترسم اشارة الصليب فى اوقات الطعام عندما اردد صلاة المائدة . ان الجهل ، كما تعرف ، اذا تجاوز حدا معينا ، قد يؤدى حتى الى الغاء الزواج فى القانون الكنسى ، هذا واحد من المسائل التى حاولت مناقشتها مع الآباء دون جدوى . انهم يفضلون اكثر الحديث عن (التوربينات) .

فقال كيرى :

ــ انا لست اهلا لمناقشة هذا .

وكان بوسعه فى فترات الصمت التى تتخلل الحديث ان يسمع جريان النهر المترع . فاسترسل ريكيه قائلا :

ــ انت تنصت على الاقل . اننى حين افعل اجد الآباء وقد بدأوا الكلام عن بئر جديدة يقترحون حفرها .. بئر ياميسيو كيرى ! بئر يفضلونها على مشكلة انسان روحية !

وشرب كأسه ، ثم صب لنفسه اخرى ، واستطرد قائلا :

ــ انهم لايدركون ... افرض مجرد فرض اننا لم نكن متزوجين زواجا تاما . بامكانها ان تتركنى فى اى وقت ياميسيو كيرى .

ــ من السهل التخلى عما تسميه (زواجا تاما) .

ــ لا ، لا . المسألة اعقد من هذا كثيرا . هناك الضغوط الاجتماعية ــ وخاصة هنا .

ــ اذا كانت تحبك ...

ــ ليس فى هذا حماية لى . نحن رجال مجربون واسعو الخبرة بالحياة يا كيرى ، انت وانا .. ان حبا كهذا لايدوم . اننى حاولت أن اعلمها اهمية محبة الله . لانها اذا احبته ، فلا يمكنها أن تغضبه ، أليس كذلك ؟ ولو كان هذا ففيه قدر من الأمان . لقد حاولت أن اجعلها تصلى ، لكن لا اظن انها تعرف من الصلوات اكثر من بعض

التراتيل العامة . اى صلوات ترتلها انت ياكيرى ؟
ـ لا شيء ، الا في لحظات الخطر احيانا ، من قبيل العادة .
ـ انت تمزح . هذا مؤكد . لكن الموضوع خطير جدا . هل لك في كأس اخرى ؟
ـ ماالذى يضايقك حقيقة ياريكيه ؟ رجل آخر ؟
عادت الفتاة الى ضوء المصباح المعلق عند ناصية الشرفة ، وكانت بيدها رواية بوليسية من (السلسلة السوداء) . وقد صفرت صفيرا لا يكاد يسمع ، ولكن ريكيه سمعه ، فقال :
ـ هذا الجرّو اللعين . انها تحب جروها أكثر من أى شيء آخر .
ولعل شراب (فانديرهوم) الذى احتساه اثر على منطقه فى تسلسل الحديث ، اذ قال :
ـ انا لست غيورا . ليس مايكربنى هو وجود رجل آخر . انها قليلة المشاعر . بل انها ترفض احيانا حتى واجباتها .
ـ أية واجبات ؟
ـ واجباتها نحوى ، كزوج .
ـ لم يخطر لى قط أن هذا يعتبر واجبات مفروضة .
ـ انت تعرف تماما انها كذلك في نظر العقيدة الدينية . ليس لأحد حق التنصل الا بموافقة مشتركة .
ـ اظن انه قد توجد أوقات لا تريدك فيها .
ـ اذن فما المفروض ان اعمل ؟ هل تخليت عن الترهب مقابل لا شيء على الاطلاق ؟
فقال كيرى مكرها :
ـ لو كنت مكانك لما حدثتها باسراف عن المحبة التى تقول بها . فربما كانت لا ترى تشابها بين هذا وبين تلك الواجبات .
فسارع ريكيه يقول :
ـ بل هو تشابه ويثق لرجل له عقيدتى .
قال هذا رافعا يده وكأنما يجيب على سؤال امام زملائه الدارسين المترهبين ، وبدت الشعيرات الخشنة المنتصبة فيما بين عقد أصابعه كصف من شوارب قصيرة . فقال كيرى :
ـ يبدو انك متمكن من موضوعك :
ـ فى معهد اللاهوت كنت انجح دائما فى اخلاقيات اللاهوت .
ـ لا اظن انك بحاجة الى اذن ـ او الى الآباء ايضا . من الواضح انك فكرت فى كل شيء تفكيرا مرضيا لك .

ـ هذا من تحصيل الحاصل . لكن الانسان بحاجة أحيانا الى التأكيد والتشجيع . لا يمكنك أن تتصور يامسيو كيرى ماهى بالراحة التى يشعر بها الانسان اذا خاض فى هذه المشكلات مع كاثوليكى .

ـ لا أعرف أنه يمكن أن ينطبق على هذا الوصف .

فضحك ريكيه قائلا :

ـ ماذا ؟ كيرى العظيم ؟ لايمكنك أن تخدعنى. ما أنت الا متواضع شديد التواضع . ترى كيف لم يكرموك بلقب كونت الامبراطورية الرومانية المقدسة ـ مثل ذلك المغنى الارلندى . ماذا كان اسمه ؟

ـ لا أعرف . لست من أهل الموسيقى .

ـ عليك أن تقرأ مايقولونه عنك فى مجلة (تايم) .

ـ فى شئون كهذه فان مجلة (تايم) ليست بالضرورة وثيقة الاطلاع . هل تمانع اذا ذهبت الى فراشى ؟ لابد لى أن أستيقظ مبكرا فى الصباح حتى أدرك المعدية التالية قبل حلول الظلام .

ـ بالطبع . وان كنت أشك فى أن تتمكن من عبور النهر غدا .

وتبعه ريكيه فى الشرفة الى غرفته . وكان الظلام يضج بالضفادع وقد بدا له بعد فترة طويلة من انصراف مضيفه بعد أن تمنى له ليلةطيبة فان الضفادع تواصل النقيق مرددة عبارات ريكيه الطنانة : صلاة المائدة ـ القداس ـ الواجبات ـ الحب ، الحب ، الحب .

الفصل الثالث

(١)

قال الطبيب بحدة :

ـ أنت تريد أن تكون ذا فائدة ، أليس كذلك ؟ ولا تريد أعمالا حقيرة لمجرد أنها أعمال حقيرة ؟ أنت لا بالقديس ولا يحب التعذيب.

ـ ان ريكيه وعدني ألا يخبر أحدا بأمري .

ـ انه وفي بوعده قرابة شهر . وهذا في حد ذاته انجاز كبير بالنسبة لريكيه . وعندما جاء الى هنا منذ أيام لم يخبر سوى رئيس الرهبان على انفراد .

ـ وماذا قال رئيس الرهبان ؟

ـ قال انه لايمكن أن يسمع شيئا على انفراد خارج نطاق الاعتراف .

وتابع الطبيب فك أربطة الجهاز الكهربائي الثقيل الذي كان قد وصل أخيرا على ظهر سفينة شركة أوتراكو . وقد بلغ من حرص الطبيب على الجهاز الثمين أنه لم يشأ فتحه في المستوصف ، بل في غرفة المعيشة الخاصة به . وقد قال الطبيب لكيري تبريرا لهذا أنه يفضل الاحتفاظ بالجهاز في بيته الى أن يتم بناء المستشفى الجديد .

وقال الطبيب :

ـ لابد لنا الآن من البت في الموضع الذي ستقام فيه التوصيلات الكهربائية . هل تعرف هذا ؟

ـ لا .

فقال الطبيب وهو يلمس برقة الجهاز المعدني كما يمسح الانسان باعزاز خاصرة تمثال أنثوي من تماثيل (رودان) البرونزية :

ـ طالما تمنيت هذا الجهاز . وأحيانا كنت أستسلم لليأس . ما أكثر الأوراق التي كان علي أن استوفيها ، والأكاذيب التي كنت أدلي بها . وهاهو ذا أخيرا أمامي .

ـ وماذا يفعل هذا الجهاز ؟

ـ انه يقيس بنسبة عشرين ألفا من الثانية رد الفعل العصبي .

سوف يأتي يوم نباهي فيه بمستعمرة الجذام هذه . ونباهي بك ايضا وبالدور الذي تكون اديته .

ـ قلت لك انني اعتزلت .

ـ ان الانسان لايعتزل ابدا مهنته .

ـ بل يعتزل ، فلا تخطىء . الانسان يصل حتما الى نهاية .

ـ لماذا انت هنا اذن ؟ لكي تحب امراة من الاقليم ؟

ـ لا . الانسان يصل الى نهاية هذا ايضا . من المحتمل ان الجنس والمهنة يولدان معا ويموتان معا . دعني الف الضمادات او احمل الدلاء . كل ما اريده هو تمضية الوقت .

ـ حسبتك تريد ان تكون ذا فائدة .

ـ اسمع .

قال كيرى هذا واخلد الى الصمت .

ـ انا سامع .

ـ لست انكر ان مهنتي كان لها مرة معنى كبير عندي . وكذلك كان للنساء . ولكن فائدة ماكنت اصنعه لم تكن قط ذات اهمية عندي . لم اكن ابني مجمعات سكنية ولا مصانع . عندما كنت اصنع شيئا كنت اصنعه من اجل لذتي الخاصة .

فقال الطبيب :

ـ اعلى هذا النمط كنت تحب النساء ؟

لكن كيرى لم يكد يسمعه . كان يتكلم كما ياكل الجائع :

ـ ان مهنتك تختلف يادكتور . انت معني بالناس ، اما انا فلم اكن معنيا بالناس الذين يحتلون الحيز عندي ـ كنت معنيا بالحيز وحده .

ـ في هذه الحالة ماكنت اطمئن الى توصيلاتك السباكية !

ـ ان الكاتب لا يكتب لقرائه ، اليس كذلك ؟ ومع ذلك فلابد له رغم هذا من اتخاذ احتياطات اولية للعمل على راحتهم الفكرية . ان اهتمامي كان منصرفا الى الحيز ، والضوء ، والتناسب . والمواد الجديدة كنت اهتم بها فقط فيما قد يكون لها من تاثير على تلك العناصر الثلاثة . الخشب ، والاحجار ، والفولاذ ، والاسمنت المسلح ـ كلها مواد قد يبدو ان الحيز يتغير بما يستخدمه الانسان منها اطارا له . ان المواد عند الفنان المعماري هي بمثابة عقدة الرواية عند الكاتب . لكنها ليست هي الحافز عنده على العمل . الحافز فقط هو الحيز ، والضوء ، والتناسب .

ـ ان اثنتين من الكنائس التي شيدتها لهما شهرة ذائعة . الم

تهتم بما حدث في داخلهما ـ للناس ؟

ـ ان وضوح السماع كان مرعبا بالطبع . وكان المذبح المرتفع مرئيا لكافة الأنظار . لكن الناس كرهوا الكنيستين . قالوا انهما لم تصمما من أجل الصلاة . كان قصدهم أنهما لم يشيدا على النمط الروماني أو القوطي أو البيزنطي . وفي خلال سنة واحدة كدسوهما بتماثيل مصيص رخيصة للقديسين . وانتزعوا النوافذ البسيطة التي وضعتها ووضعوا مكانها زجاجا ملونا ، وبعد أن دمروا ماهياته من الحيز والضوء ، ساغ لهم أن يصلوا من جديد . بل انهم غدوا فخورين بما أفسدوه . أنني أصبحت ماوصفوه بالمخطط المعماري الكاثوليكي العظيم ، لكنني لم اعد أشيد كنائس أخرى يادكتور .

ـ انا لا أعرف كثيرا عن هذه المسائل ، لكن أظن انه كان لهم الحق في ان يعتقدوا أن صلواتهم أهم كثيرا من عمل من اعمال الفن .

ـ من الناس من صلوا في السجون ، ومنهم من صلوا في أحياء الفقراء وفي معسكرات الاعتقال . أن الطبقات المتوسطة فقط هي التي تطالب بالصلاة في بيئات لائقة . أنني اضيق أحيانا بمن يتكلمون عن الصلاة رياء . ان ربكيه أكثر من استخدم هذه الكلمة هل تصلي يادكتور كولين ؟

ـ اظن أن آخر مرة صليت فيها كانت قبل الامتحان النهائي لكلية الطب . وانت ؟

ـ انني امسكت منذ زمن طويل . أن اهتمامي كله كان موجها الى العمل . قبل أن أذهب للنوم ، حتى ولو كنت بصحبة امراة ، فان آخر شيء كنت أفكر فيما دائما هو العمل . ان المشكلات التي كانت تبدو مستعصية على الحل كثيرا ماكانت تحل نفسها أثناء النوم . وكنت أجعل غرفة نومي مجاورة لمكتبي ، وبهذا كان يتيسر لي أن امضي دقيقتين أمام مرسمي آخر كل شيء .

ـ ان هذا يبدو قاسيا الى حد ما بالنسبة للمراة .

ـ ان التعبير عن الذات شيء صعب وأنانى ، انه يأكل كل شيء ، حتى الذات . وفي النهاية تراك ولم تجد حتى ذاتا تعبر عنها . ليس لي أي اهتمام بأي شيء أكثر من ذلك يادكتور .

ـ اليس لك أطفال ؟

ـ كان لي ذات مرة ، لكنهم اختفوا في هذه الدنيا منذ زمن طويل . أن الاتصال قد انقطع بيني وبينهم . أن (التعبير عن الذات) يأكل فيك شخصية الأب أيضا .

ـ وهكذا فكرت ان باستطاعتك ان تجيء وتموت هنا ؟
ـ نعم . كان هذا في ذهني . ولكنني اردت اكثر ما اردت ان اكون في مكان ناء حيث لايوجد اى مبنى جديد او امراة يمكن ان يذكرني احدهما بانه كان ثمة حين من الزمن كنت فيه على قيد الحياة ، ولي مهنة تشغلني وامراة احبها ـ ان كان ذلك حبا . ان مرضاك المشلولين يقاسون ، وأعصابهم فيها حس ، ولكنني بادكتور واحد من المشوهين الذين بتر الجذام اوصالهم .
ـ لو جئت منذ عشرين سنة لكان في الوسع ان نقدم لك الموت ، ولكن عملنا الآن ينحصر فقط في العلاج والشفاء . ان عقار (دى ـ دى ـ اس) يكلف ثلاثة شلنات . وهو ارخص كثيرا من ثمن الكفن.
ـ أيمكنك شفائي ؟
ـ ربما كانت (تشوهاتك) لم تتفاقم الى حد كبير بعد . اذا جاء المريض الى هنا متاخرا جدا فان المرض ينتهي بأن يأكل نفسه .
ووضع الطبيب قماشا برقة فوق الجهاز يغطيه ، قائلا :
ـ ان المرضى الآخرين ينتظرون . هل تريد ان تخرج معي أم تفضل البقاء هنا مفكرا في (حالتك المرضية) ؟ يحدث كثيرا أن المرضى المشوهين يفضلون الاعتزال ايضا ، بعيدا عن الأنظار .

***

كان الهواء من حولهما في المستشفى ثقيلا ساكنا لم تحركه قط مروحة ولا نسيم . وقد آنس كبرى من فوره قذارة الفرش ـ ان النظافة لم تكن ذات اهمية للمجذوم ، وانما للسليم فقط . وكان المرضى يجيئون معهم (بمراتبهم) التي لعلها كانت في حوزتهم طول حياتهم ـ وهي من الخيش الخشن الذي كان القش يتسرب منه . وكانت الأقدام المصوبة تتمدد في القش وكأنها لفائف لحم سيئة التغليف . وفي الشرفة كان المرضى الذين يستطيعون السير يجلسون في الشمس . وشوهدت امراة مشلولة الأجفان لا تستطيع اغماض عينيها أو حتى ان تطرف بهما وقد انتحت ناحية ذات ظل قليل بعيدا عن وطأة الضوء القاسي . وكان ثمة رجل بلا اصابع يمرض طفلا فوق ركبته ، ورجل آخر انبطح في الشرفة وقد استطال احد ثدييه .
لم يكن ثمة شيء كثير يستطيع الطبيب ان يفعله لأي واحد من هؤلاء . فان الرجل المصاب بالتضخم كان له قلب ضعيف لا يحتمل اجراء عملية جراحية . واذا كان بوسع الطبيب ان يخيط أجفان المراة ، الا انها رفضت ذلك خوفا. واما الطفل فهو مصاب بالجذام .

وماكان بوسع الطبيب كذلك مساعدة اولئك المرضى فى العنبر الأول الذين كانوا سيموتون بداء السل ، ولا المرأة التى راحت تجد نفسها بين الفراش وقد ضمدت ساقاها بشلل الأطفال . ولقد طالما بدا للطبيب أن من الظلم أن الجذام لم يمنع كل غيره من هذه الأمراض (وفى الجذام وحب الكفاية لاحتمال أى انسان له) ، ومع ذلك فان تلك الأمراض الأخرى هى التى كانت تؤدى الى وفاة اكثر مرضاه.

ومضى الطبيب يتفقد المرضى وكيرى يسير فى أثره .

وفى المطبخ المقام من الطين خلف بيت من بيوت أحد المجذومين جلس رجل فى العتمة فوق كرسى مركب قديم . وعندما اجتاز الطبيب الفناء بذل الرجل جهدا للنهوض ، لكن ساقه لم تحتملاه ، فأومأ بالتحية معتذرا . فقال الطبيب بصوت خافت : « ضغط دم مرتفع . لا أمل . انه جاء الى مطبخه لكى يموت » .

كانت ساقا الرجل ناحلتين كساقى طفل ، وقد لف وسطه بخرقة احتشاما . وكان كيرى قد شاهد ملابسه التى تركها مطوية بعناية فى الكوخ الجديد المبنى بالآجر تحت صورة البابا . وتدلت فوق تجويف صدره أيقونة مقدسة بين الشعر القليل الأشيب . ولم يلبث الرجل أن سأل عن صحة الطبيب ، فقال له الطبيب :

ــ هل هناك أى شىء يمكن أن أجىء به اليك ؟

فأجاب الرجل بالنفى ، قائلا ان لديه كل مايحتاج اليه :

وقد استفهم من الطبيب عما اذا قد تلقى حديثا نبأ من اسرته ، وسأل عن صحة والدة الطبيب ، فأجاب :

ــ انها فى سويسرا ، بين الجبال . فى اجازة بين الثلوج .

ــ الثلوج ؟

ــ نسيت . انك لم تر الثلوج أبدا . هى بخار متجمد . ضباب متجمد . ان الهواء يبرد جدا فلا تذوب الثلوج ، وتمتد فوق الأرض بيضاء طرية كالريش ، وتغطى البحيرات بالثلوج .

فقال الرجل الكهل مباهيا :

ــ انا أعرف ماهو الثلج ، فقد رأيته فى ثلاجة . هل والدتك مسنة مثلى ؟

ــ اكبر سنا .

ــ اذن فيجب الا تسافر بعيدا عن دارها . لابد للانسان أن يموت فى قريته اذا تيسر .

ونظر مكتئبا الى ساقيه الناحلتين قائلا :

ـ لا يمكن ان تحملانى ، والا لعبرت الى قريتى .
فقال الطبيب :
ـ بامكانى تدبير سيارة نقل لكى تذهب بك . لكن لا اظن انك ستحتمل الرحلة .
فقال الكهل :
ـ هذه مضايقة شديدة لك . وعلى اى حال فليس هناك وقت ، لاننى سأموت غدا .
ـ ساخبر رئيس الرهبان لكى يأتى ويراك باقرب وقت ممكن .
ـ لا اريد ان اسبب اية مضايقة له . فعليه واجبات كثيرة . اننى لن اموت قبل الليل .
وكان قرب كرسى المركب زجاجة ويسكى قديمة بها سائل بنى وقد ربطت حولها بنباتات ذابلة . فسأل كيرى الطبيب بعد ان تركا الرجل :
ـ ما الذى وضعه فى الزجاجة ؟
ـ دواء . سحر . ابتهال الى آلهه نزامبى .
ـ ظننت انه كاثوليكى .
ـ لو اننى امضيت استمارة لقلت اننى كاثوليكى ايضا . وهذا هو الشأن معه . ان نصف ايمانه بالمذهب الكاثوليكى ونصفه بالمعبود نزامبى . ليس الفارق كبيرا بيننا فيما يختص بالعقيدة . كل ما اتمناه هو ان اكون رجلا معالى مثله .
ـ هل سيموت حقا غدا ؟
ـ اظن هذا . ان لهم مقدرة خاصة عجيبة فى المعرفة .
وفى المستوصف وقفت امرأة مجذومة معصبة القدمين تنتظر وقد حملت صبيا بين ذراعيها . كانت ضلوع الصبى ظاهرة واحدة واحدة . كانت مثل قفص القيت فوقه ليلا خرقة سوداء لابقاء طائر نائما تحتها ، ومثل طائر ايضا كانت أنفاسه تتحرك من تحت الخرقة . وقد قال الطبيب أن الجذام ليس هو الذى سيقتله ، بل مرض (السيكلاميا) وهو داء عضال فى الدم لا شفاء له . لم يكن ثمة أمل . ان الطفل لن يعيش مدة تكفى لكى يصير مجذوما ، ولم يكن هناك اى معنى لابلاغ الأم هذا . وقد لمس الطبيب الصدر المجوف الصغير باصبعه ، فأجفل الصبى منه . فأخذ الطبيب يشتم المرأة بلغتها ، فراحت تجادله بغير اقتناع وهى تتشبث بالصبى الى فخذها . وبعد أن ذهبت المرأة قال الدكتور كولين :
ـ انها وعدت الا يحدث هذا مرة ثانية لكن كيف لنا ان نتأكد ؟

ـ ما الذى يحدث ؟

ـ الم تر اثر الجرح الصغير على الصدر ؟ انهم قطعوا جيبا فى جلده لكى يضعوا دواءهم المحلى فى الصدر ، وقد قالت المراة ان جدته هى التى فعلت هذا . يا للصبى المسكين!.. انهم لايريدون ان يتركوه يموت . لقد قلت لها اذا حدث هذا مرة ثانية فسوف اتوقف عن علاج ما بها من جذام ، لكن بوسعى ان اقول انهم لن يدعونى ارى الصبى مرة اخرى فى هذه المنطقة التى يمكن اخفاؤه فيها بسهولة.

ـ الا يمكنك أن تضعه فى المستشفى ؟

ـ لقد رايت اى نوع من المستشفيات هذا . هل تقبل ان تترك ولدا لك يموت فيه ؟ المريض التالى ! التالى !

رددها الطبيب مغضبا ، وكان المريض التالى صبيا ايضا ، فى السادسة من عمره ، وكان ابوه يرافقه ، وقد وضع يده المبتورة الأصابع على كتف الصبى لكى يسرى عنه . فادار الطبيب الصبى واجرى يده فوق بشرته الفضة وقال :

ـ حسنا . لابد انك الآن اصبحت قادرا على الملاحظة . مارايك فى هذه (الحالة) ؟

ـ ان احد اصابع قدميه قد ذهب حتى الآن .

ـ ليس لهذا اهمية ، انه مصاب بمرض (البرغوث) وهو مرض يكثر فى الغابة ، وقد اهملوا حالته . لا ـ هذه اول بقعة . ان الجذام قد بدأ فعلا .

ـ الا من سبيل لوقاية الأطفال ؟

ـ فى البرازيل يبعدونهم بعد الولادة ، ويموت من هذا الداء ثلاثون فى المائة من المواليد . اننى افضل مجدوما على طفل محكوم عليه بالموت . اننا سنشفى هذا الصبى فى خلال عامين .

وتطلع بنظرة خاطفة الى كيرى ثم أشاح عنه قائلا :

ـ فى يوم من الأيام ـ فى المستشفى الجديد ـ سوف يكون هناك عنبر خاص ومستوصف للأطفال . وسوف اسبق البقعة المرضية قبل ظهورها . ساعيش لكى ارى الجذام وهو يتقهقر . هل تعرف أن هناك مناطق ، على بعد بضع مئات الأميال من هنا ، تبلغ فيها اصابات الجذام نسبة واحد الى خمسة ؟ اننى احلم بمستشفيات متنقلة سابقة التجهيز . ان الحروب قد تغيرت طبيعتها فى الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ كان القادة يديرون المعارك من بيوت فى الريف ، ولكن فى الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٤ خاض

رومل ومونتجومرى المعارك من عربات (الكرافان) المتنقلة . كيف أستطيع أن انقل الأفكار التى فى ذهنى الى الأب جوزيف ؟ ليس فى قدرتى أن ارسم واضع تصميمات معمارية . بل ليس فى قدرتى أن اصمم غرفة واحدة بها كافة المزايا . لن استطيع سوى أن ابين له الاخطاء بعد أن يتم بناء المستشفى . انه ليس حتى من البنائين . انه ماهر فى البناء بالآجر فقط . انه يضع حجرا فوق حجر لوجه الله كما تعودوا أن يبنوا الأديرة . وهكذا ترى اننى فى حاجة اليك .

(٢)

كتب كيرى فى مفكرة يومياته هذه الكلمات :

« لم تبق عندى مشاعر كافية لكى افعل شيئا لبنى الانسان من قبيل الشفقة » .

لقد تذكر تماما اثر ذلك الجرح الذى رآه فى صدر الصبى الفض وكذلك اصابع القدم الاربع الباقية فى قدم الصبى الآخر ، لكنه لم يشعر بالتأثر ولم يحركه شىء من هذا . ان تزايد الوخز لا يمكن أن يتصاعد الى حد الاحساس بالألم .

كانت هناك عاصفة فى طريقها الى الهبوب ، فراحت اسراب النمال الطائرة تتوافد الى داخل الغرفة وهى تلاطم النور حتى اضطر ان يغلق النافذة ولم تلبث أن سقطت على ارض الأسمنت وفقدت اجنحتها وراحت تجرى هنا وهناك وكأنما دب اليها الارتباك اذ الفت انفسها هكذا فجاة مخلوقات أرضية لا من مخلوقات الهواء . وباغلاق النافذة تضاعفت الحرارة المرطوبة حتى اضطر ان يضع ورقة (نشاف) تحت معصم يده لكى تتلقى العرق .

وعاد الى الكتابة فى محاولة لتوضيح دوافعه لدى الدكتور كولين :

« ان الانبعاث الى العمل النافع هو بادرة تدل على الحب : وهو ليس من قبيل العمل المهنى الذى يحترفه الانسان . وعندما تموت الرغبة والاشتهاء فلا يستطيع الانسان أن يحب . وانا قد وصلت الى نهاية الرغبة ونهاية الانبعاث الى النفع . فلا تحاول ان تفرض على ارتباطا لا يقوم على الحب ولا أن تحملنى على محاكاة ماعتدت أن امارسه بشغف . ثم لاتكلمنى مثل واعظ عن واجبى . ان قطعة النقد القديمة ـ كما علمونا أطفالا ـ ينبغى الا تدفن طالما لها قوة شرائية ، ولكنه عندما تتغير العملة وتلغى الصورة المسكوكة ولا يبقى فى قطعة النقد من قيمة سوى وزن رقاقة من الفضة ، فللانسان كل الحق فى

اخفائها . ان العملات الميتة المهجورة ، مثل القمح ، كانت توجد دائما فى القبور » .

كانت الكلمات جافية ومبتورة ، فلم تكن لديه موهبة تنظيم افكاره فى كلمات . وقد اختتم بهذه العبارة :

« ان ماكنت اشيده كنت اشيده دائما لنفسى ، لا ابتغاء مثوبة ولا ارضاء لمتعة مشترى . لا تكلمنى عن بنى الانسان . ان بنى الانسان هؤلاء لا يمتون الى بسبب . ثم الم اتطوع على اى حال بغسل اربطتهم وضماداتهم ؟ » .

انتزع كيرى الصفحات التى كتبها وارسلها مع ديوجراتيامس الى الدكتور كولين . وكان قد اختتمها بعبارة أخيرة قال فيها : « سوف اؤدى لك اى شىء يكون معقولا ، لكن لاتسالنى ان أحاول العودة الى الحياة ... »

وقد جاء الدكتور كولين الى غرفة كيرى فيما بعد وطوح بالرسالة التى كورها الى مافوق مكتبه ، وقال متبرما :

ـ وساوس . مجرد وساوس .

ـ حاولت أن افسر ...

ـ ومن يريد اى تفسير ؟

وانصرف عنه دون أن يعقب .

فى هذه الليلة تراءت لكيرى احلام ثقيلة اقضت مضجعه . وما أن طلع النهار اخيرا حتى ذهب الى النجار فى مستعمرة الجذام وشرح له كيف يصنع له لوحة رسم ومقعدا طبقا لما يريده . ولم يسع الى لقاء الدكتور كولين الا بعد أن تم هذا لكى يبلغه قراره . فقال الطبيب :

ـ انا مسرور من أجلك .

ـ ولماذا من اجلى ؟

فاجاب الدكتور كولين :

ـ أنا لا اعرف شيئا عنك . لكننا جميعا على هذه الشاكلة ، لقد كنت تحاول تجربة مستحيلة . لكن الانسان لايمكنه ان يحيا وليس لديه شاغل سوى نفسه .

ـ بل يمكنه هذا .

ـ اذن سوف يقتل نفسه عاجلا او آجلا .

فعقب كيرى قائلا :

ـ ان كان يهتم بأى شىء !

الفصل الرابع

(١)

بعد شهرين نما قدر من الثقة الطبيعية بين كيرى وديوجراتياس . وكان اساسها اول الأمر ماعليه الرجل من عجز بدنى . ان كيرى لم يكن يغضب منه اذا اراق ماء ، وقد كبح غضبه عندما تلطخ أحد رسومه الهندسية بالمداد من زجاجة انكسرت والواقع ان تعلم حتى ابسط الواجبات يستغرق وقتا طويلا بغير اصابع اليدين والقدمين ، وعلى اى حال فان انسانا لايعبأ باى شىء يجد أن من الصعب ــ او من السخف ــ ان يستسلم للغضب . وقد حدث فى مناسبة أن صليبا تركه الآباء معلقا على الحائط فى غرفة كيرى كسر بسبب بعض القصور من جانب الرجل المشوه ، وقد توقع أن يحدث هذا رد فعل عند كيرى كما يمكن أن يحدث رد فعل عنده هو نفسه لو أن رمزا معبودا قد ناله الدمار بعامل الاهمال أو القساوة . كان من السهل عنده ان يخلط بين قلة الاكتراث والعطف .

وذات ليلة عندما كان القمر بدرا شعر كيرى بغياب الرجل كما يفتقد الانسان شيئا لم يكن يلحظه من رف المدفأة فى مسكن مؤقت لقد وجد أن ابريقه لم يملأ بالماء و (الناموسية) الواقية من البعوض لم تسدل فوق الفراش ، ثم وجد فيما بعد وهو فى طريقه الى بيت الطبيب للمناقشة معه فى امكانية خفض تكاليف بناء المستشفى ــ وجد ديوجراتياس يسير متعثرا بعصاه على امتداد الطريق الرئيسى فى مستعمرة الجذام بكل سرعة تهيئها له قدماه المبتورتا الأصابع . وكان وجه الرجل مبتلا بالعرق ، وعندما كلمه كيرى راغ مبتعدا عنه الى الساحة الخلفية لاحد البيوت . وحينما عاد كيرى بعد نصف ساعة القاه لايزال واقفا مكانه جامدا وكأنه عقب شجرة مقطوعة لم يهتم صاحبها بنقلها من مكانها . وقد ارهف كيرى السمع أيضا ، لكنه لم يسمع سوى خشخشة الجداجد والتناغم المتعالى للضفادع وفى الصباح لم يعد ديوجراتياس ، وشعر كيرى بشىء من خيبة الأمل اذ لم يقل له التابع كلمة واحدة قبل ذهابه . فأخبر الطبيب أن الشاب ذهب ، قائلا :

ـ اذا لم يعد غدا ، فهلا وجدت لى آخر بدلا منه ؟
فقال الدكتور كولين :
ـ لست افهم . اننى لم أسند اليه هذا العمل الا لكى يمكنه البقاء فى مستعمرة الجذام ، فلم تكن لديه رغبة فى الذهاب من هنا .
وبعد وقت آخر ذلك اليوم جاء رجل مجذوم يحمل الى كيرى عصا الشاب قائلا انه التقطها فى الدرب الموصل الى اكثف منطقة فى الغابة ، وكان كيرى وقتها يعمل فى غرفته مستغلا فترة الضوء الأخير آخر النهار ... فقال للرجل :
ـ لكن كيف عرفت أن العصا هى عصاه ؟
فكرر الرجل ببساطة انها عصا ديوجراتياس ـ دون مناقشة ، ودون منطق ، وانما مجرد تقرير لواحد آخر من الأشياء التى يعلمون أنه لايدرى من أمرها شيئا .
ـ هل تظن انه وقع له حادث ؟
فقال الرجل بلغته الفرنسية الهزيلة أن شيئا قد حدث ، وانطبع فى نفس كيرى من لهجة الرجل أن (الحادث) هو أقل شىء كان يخشاه الرجل .
قال له كيرى :
ـ لماذا لاتذهب وتبحث عنه اذن ؟
فقال الرجل انه لم يبق من ضوء النهار بين الأشجار مايكفى . ولابد لهم من الانتظار حتى الصباح .
ـ لكنه ذهب منذ اربع وعشرين ساعة تقريبا . وان كان قد وقع له حادث فقد انتظرنا وقتا طويلا كافيا . يمكنك أن تأخذ (بطاريتى)
فكرر الرجل قوله أن الصباح أفضل ، وآنس كيرى فيه الفزع واللعر .
ـ هل اذا ذهبت معك ، تأتى ؟
فهز الرجل رأسه . وهكذا ذهب كيرى وحده .
لم يكن بوسعه أن يلوم هؤلاء الناس لمخاوفهم . فان الانسان يتجرد من كل تفكير اذا لم يكن له أن يخاف من الغابة الضخمة ليلا . فلم يكن فى الغابة مايستهوى الخيال . انها خاوية تماما . ولم يسبق قط أن عمرها بشر ، مثل غابات أوربا التى كانت تطرقها الساحرات ومواقد الفحم المشتعلة واكواخ المشعوذين . ولم يسبق أن سار تحت أشجار هذه الغابة أحد يندب الحب الضائع ولا أنصت احد الى السكوت والصمت وتناجى بأحاديث القلب مثل شاعر

البحيرة . ولو بدا لرجل فى هذه الغابة ان ينادى ليلا فيسمع صوت ندائه لكان عليه ان يرفع عقيرته حتى يعلو صوته على الصلصلة المتواصلة للحشرات وكأنه فى مصنع هائل تدار فيه آلاف من آلات الخياطة بأيدى الألوف المؤلفة من خياطات معوزات يردن ان يسبقن الزمن . ان السكون فى هذه الغابة لم يكن يحل سوى ساعة من النهار او نحوها ، وهى وقت القيلولة لهذه الحشرات .

لكن اذا اعتقد هؤلاء بوجود كينونة مقدسة ، أفلا يجوز انهم يؤمنون بوجود رب فى هذا الخواء الكبير كما آمن الناس بوجود اله فى أقطار السموات ؟ وكذلك تبقى هذه الغابات المترامية غير مطروقة من مستكشف الى آماد أطول عهدا من استكشاف الكواكب السيارة ان فوهات البراكين على سطح القمر غدت الآن معروفة أكثر مما تعرف هذه الغابات القائمة عن كثب اذا فكر احد فى ارتيادها يوما على قدميه . والحق ان رائحة الكلوروفيل الحادة الفاسدة المنبعثة من النباتات المتعفنة والمستنقعات اطبقت على وجه كيرى كما يطبق قناع طبيب الأسنان .

كانت مهمة عقيمة . فهو ليس بالصياد . وقد شب وترعرع فى المدينة . وما كان بوسعه ان يطمع فى اكتشاف اثر انسان حتى فى ضوء النهار ، وقد سلم بسهولة كبيرة بالدليل الذى قيل له عن العصا . وعندما راح يرسل ضوء بطاريته على هذا الجانب وذاك لم تستبن له سوى ومضات شاردة بين أوراق الأشجار ربما كانت انعكاس اعين ناظرة ، ولكنها كانت على الأرجح بقعا صغيرة من مياه المطر حبست بين لفائف الأوراق . ولابد انه الآن ظل سائرا مدى نصف ساعة ، وأغلب الظن انه قطع مسافة ميل على امتداد الدرب الضيق . ومرة انزلق اصبعه عن زر (البطارية) ، واذا هو فى لحظة ظلام يخرج عن جادة الدرب المتعرج نافذا الى صميم الغابة ذاتها ، حتى قال لنفسه : « لست على صواب اذا اعتقدت ان البطارية سوف تكفينى حتى اعود ادراجى » . واستمر يجتر هذه الفكرة وهو يمضى فى طريقه قدما . وتذكر انه قال للدكتور كولين تفسيرا لسبب بقائه عندهم ان السفينة لا تتقدم الى اكثر من ذلك ، ولكن يبقى دائما ان بوسع الانسان ان يوغل قليلا سيرا على قدميه . ونادى اسم ديوجراتياس وكرر النداء بصوت أعلى من ضوضاء الحشرات ، ولكن الاسم التافه لم يكن له أى رجع .

ان وجوده هنا لم يكن له تفسير مثل وجود ديوجراتياس . ان

فكرة وجود تابعه مصابا في الغابة ينتظر اى نداء او وقع خطوة من اى كائن بشرى ربما كانت فيما مضى من حياته تضايقه طول الليل حتي تضطره الى القيام ببادرة انسانية . أما الآن وهو لا يعبأ بشيء في الدنيا فلعله كان مدفوعا فقط بإثارة ضئيلة من فضول عقلي . فما الذى جاء بديوجراتياس الى هنا بعيدا من جو الامن والالفة في مستعمرة الجذام ؟ ومن الممكن بالطبع أن يؤدى هذا الدرب الى مكان ما ــ ربما الى قرية فيها اقرباء لديوجراتياس ــ لكن كيرى عرف الآن مايكفى عن افريقيا لكى يعلم ان الدرب فى اغلب الظنون لابد أن يتلاشى ــ كان يكون اثرا مخلفا من درب صنعه رجال جاءوا يبحثون عن يرقات فراش يقلونها في النار طعاما لهم . وربما لا يعدو ان يكون معلما لاقصى حد توغل اليه بشر . ثم مامعنى ذلك العرق الذى رآه يتصبب على وجه الرجل ؟ لعله وليد خوف او قلق او حتى أفكار ملحة فى وطأة حرارة النهر . ان الاهتمام بدأ يتحرك فى دخيلته اليما مثل عصب كان هامدا مجمدا . لقد عاش حليف الجمود عهدا طويلا الى حد انه راح الآن يحلل هذا (الاهتمام) الطارىء بتجرد هادىء .

قال لنفسه انه لابد ظل سائرا حتى الآن اكثر من ساعة . كيف استطاع ديوجراتياس أن يقطع كل هذه الشقة دون عصاه وفوق قدمين مبتورتين الأصابع ؟ وشعر كيرى اكثر من اى وقت بالشك فيما اذا كانت (البطارية) يمكن أن تكفيه حتى يعود من حيث جاء . ورغم ذلك فقد مضى قدما . وقد بدا له انه كان أحمق كل الحماقة اذ لم يخبر الطبيب او اى واحد من الآباء بوجهته احتمالا لوقوع حادث له ، لكن اليس (حادث) يقع هو مالعله على وجه التحديد كان ينشده ؟ مهما يكن من شيء فانه واصل السير ، بينما كان البعوض يطن تحفزا للهجوم . ولم يكن ثمة فائدة من ان يذوده عنه . فقد راض نفسه على الاستسلام .

وماهى الا مسافة خمسين ياردة اخرى . حتى اجفل من صوت حيوانى أجش ــ كالنخير الذى يصدر عن خنزير برى . فتوقف وأجال ضوءه (الخابى) فى دائرة حواليه . فرأى أن هذا الدرب لابد منذ سنوات طويلة ماضية كان مقصودا منه أن يؤدى بسالكه الى مكان ما ، اذ كللت أمامه بقايا قنطرة صنعت من جذوع أشجار دب اليها العطب منذ عهد بعيد . ولو أنه تقدم خطوتين أخريين لسقط فى فتحة مستنقع ضحل تكسوه النباتات المتطاولة سقطة

ليست كبيرة بالنسبة اليه ولكنها مستطيرة بالنسبة الى رجل مشوه اليدين والقدمين ، واضاء النور جسد ديوجراتياس ونصفه في المياه ونصفه خارجها . وكان بوسع كيرى أن يبصر الآثار المتخلفة في الأرض المبتلة الزلقة ليدين أشبه بقفاز الملاكمة حاولتا التماس ما تمسكان به عبثا . ثم صدر صوت النخير عن الجسد الملقى في المستنقع مرة اخرى ، فنزل اليه .

لم يكن بوسع كيرى أن يعرف ان كان ديوجراتياس متمالكا وعيه أم لا . وكان جسده ثقيلا جدا الى حد تعذر معه أن يرفعه ، ثم انه لم يبذل اى جهد للتعاون والاستجابة . وكان دافئا ومبتلا مثل ربوة من التراب . وبدا كأنه جزء من القنطرة التى سقطت منذ سنوات طويلة . وبعد كفاح دام عشر دقائق عالج كيرى أن يجر أطرافه الى خارج المياه — وكان ذلك أقصى مااستطاع أن يفعله . وكان الشيء الواضح الآن ، اذا تيسر أن تبقى (البطارية) مدة كافية ، هو أن يسعى الى طلب النجدة . وحتى لو رفض أبناء جلدته أن يعودوا معه فمن المؤكد أن اثنين من الآباء يمكن أن يمدا يد المساعدة . وهم كيرى أن يرتقى الى القنطرة ، واذا ديوجراتياس يعوى مثل كلب أو طفل . ثم رفع عقب يده وعوى مرة أخرى ، فأدرك كيرى انه مشلول من الخوف . وقد سقطت اليد المبتورة الأصابع على ذراع كيرى مثل مطرقة واستبقته فى مكانه .

لم يكن ثمة مايفعله سوى الانتظار الى الصباح . فان الرجل قد يموت من الخوف ، ولكن لا أحد منهما يمكن أن يموت من الرطوبة أو لدغ البعوض . فاستقر في اقرب وضع مريح الى جانب الرجل وراح يفحص قدميه المتصلبتين فى البقية الباقية من ضوء (البطارية) . رأى بقدر علمه انه أصيب بكسر في رسغ القدم ، وهذا كل ماناله . وسرعان ماعتم الضوء الى حد أن كيرى رأى خيطه في الظلام كدودة فوسفورية . ثم انطفأ تماما . فامسك بيد ديوجراتياس لكى يطمئنه ، أو بالاحرى وضع يده هو بجانب يده ، اذ ليس فى الوسع أن تمسك بيد لا أصابع لها . وقد نخر ديوجراتياس مرتين ، ثم تفوه بكلمة واحدة ، بدت فى السمع مثل كلمة (بنكازى) . وفى الظلام شعر بمفاصل العظام مثل صخرة عدت عليها عوامل النحات الجوية على مدى السنين .

وكان الآباء لا يمكن ان يستطيبوا نوع الأغنيات التى كان يريد ان يرددها . ان أمه أخذته الى هناك ذات مرة وهو بعد طفل ، وكان بوسعه أن يتذكر كم كان هناك من غناء ورقص والعاب وصلوات .

ـ لكن ديوجراتياس جاء من مكان يبعد عن هنا مئات الأميال .

ـ ربما يوجد أكثر من (بنكازى) فى الدنيا .

ـ ان أناسا كثيرين غادروا مستعمرة الجذام منذ ثلاث ليال . ومعظمهم عاد ثانية . واظن انه كان هناك نوع الطقوس السحرية كانت دائرة على قدم وساق . وقد بدأ ديوجراتياس رحلته متأخرا كثيرا ولم يستطع ان يلحق بهم ويشهد طقوسهم .

ـ مهما يكن فان كلمة (بنكازى) لاتزال تتردد فى خاطرى .

فقال الدكتور كولين :

ـ اننا دائما نقرن (الأمل) بالشباب . وهؤلاء الناس لايكفون حتى فى مراحل العمر المتقدمة عن التعلق بالأمل .

فقال كيرى :

ـ اذن فقد عرفت أين تبحث عنى ، اذا افتقدت يوما وجودى .

واقترنت هذه العبارة بصوت غير متوقع جعل الطبيب يرفع رأسه ويتطلع الى محدثه .

كانت ملامح وجه كيرى قد التوت بشبه ضحكة . فأدرك الدكتور كولين ان كيرى قد ابتسر دعابة هى لمثله بمثابة اثم كان يتحرج منه !

القسم الثالث

الفصل الأول

(١)

ركب ... ومدام ريكيه سيارتهما قاصدين الى المدينة لحضور حفلة الكوكتيل عند الحاكم . وقد قال لها ريكيه اثناء الطريق :

ـ عندما تسالك مدام جيل زوجة الحاكم عما تحبين أن تشربيه ، فاطلبي كاسا من (البيرييه) .

ـ لا عصير البرتقال ؟

ـ لا ، اللهم الا اذا رأيت ابريقا منه على المائدة الجانبية . يجب علينا الا نسبب لها مضايقة .

وعت مارى ريكيه هذه النصيحة تماما ، ثم حوّلت نظرها عن زوجها وجعلت تحدق بعيدا الى الغابة القائمة كحائط منيع ، ولكنه قال لها :

ـ هل سمعت ماقلته لك ياحبيبتى ؟

ـ نعم . سوف اتذكر .

ـ وصنف (الكتابيه) ، الخبز بالكافيار . لاتاكلي كثيرا منه كما فعلت فى المرة الماضية . اننا لانذهب الى قصر الحاكم لكى ناكل وجبة كاملة . ان هذا يخلق انطباعا سيئا .

ـ لن امس أى شىء .

ـ وهذا ايضا شىء سيىء . قد يبدو معناه انك لاحظت انه غير طازج ، وهو كذلك عادة .

فقالت الزوجة الصغيرة :

ـ انا فى رعب ، كل شىء يبدو معقدا جدا ، ومدام جيل لاتحبنى .

فتولى ريكيه التفسير بعطف قائلا :

ـ المسألة ليست هى أنها لاتحبك . كل ماهنالك هو انك فى المرة السابقة بدأت تنصرفين قبل زوجة مدير البوليس . وبالطبع لسنا مقيدين بمراعاة هذه المراسم السخيفة المتبعة هنا ، لكننا لانريد أن

نظهر في مظهر المتهجمين ، والمفهوم عموما أننا بوصفنا من التجار البارزين فاننا نلي في الترتيب مدير الأشغال العمومية . ولهذا عليك أن تنتظري حتى ترى مدام كاسان وهي تنصرف .

ـ انا لا اتذكر ابدا اسماءهم .

ـ هي المراة السمينة جدا . لا يمكن أن تخطئي رؤيتها . ولهذه المناسبة اذا حضر كيري الحفلة فلا تخجلي من دعوته لتمضية الليلة عندنا . في مكان كهذا يشتاق الانسان الى الحوار المثقف . ومن اجل كيري فانني مستعد حتى لاحتمال ذلك الملحد الدكتور كولين . بامكاننا أن ندبر له فراشا ثانيا في الشرفة .

لكن لا كيري ولا كولين حضرا الحفلة .

وقد اضطر المدعوون جميعا الى الانتقال من الحديقة الى الداخل ، اذ كان هذا موعد قيام سيارة الـ (د . د . ت) الكبيرة باطلاق السحب المطهرة النفاذة فوق البلدة .

وقالت مدام ريكيه للمضيفة :

ـ (بيرييه) من فضلك ، اذا لم يكن في هذا تعب .

فتفضلت مدام جيل وجاءت بيرييه بيديها ، وقالت الضيفة :

ـ يظهر انكم الوحيدون الذين قابلتم مسيو كيري . ان الحاكم كان يود أن يوقع باسمه في (السجل الذهبي) ، لكن يبدو أنه يمضي كل وقته في ذلك المكان الكئيب هناك : وهكذا ربما يمكنكم استطلاع احواله من أجلنا جميعا .

فقالت مارى ريكيه :

ـ نحن لانعرفه حقيقة . انه أمضى ليلة عندنا عندما كان النهر في حالة فيضان ، وهذا كل شيء . ولولا ذلك لما بقي عندنا . لست اظن انه يريد مقابلة الناس . وقد وعد زوجي الا يخبر أحدا ...

ـ أن زوجك كان محقا جدا في أن (يخبرنا) . كان لابد أن نبدو على درجة كبيرة من الغفلة لوجود كيري العظيم في اقليمنا دون أن ندري . كيف كان تأثيره في نفسك ياعزيزتي ؟

ـ انني لم اتكلم معه تقريبا .

ـ ان شهرته في بعض النواحي المعينة سيئة جدا كما ابلغوني . هل قرات المقال المنشور عنه في مجـــلة (تايم) ؟ آه ، نعم ، ان زوجك اطلعنا على المقال طبعا . وليس معنى هذا انهم يكتبون عن (هذه المسائل) . هو فقط ماتتناقله الالسنة في أوربا عنه . على الانسان أن يتذكر رغم ذلك أن بعض اعاظم القديسين مروا بفترة

معينة من ـ كيف اعبر عن هذا ؟
فقال ريكيه :
ـ هل سمعتك تتكلمين عن القديسين يامدام جيسل ؟ ياله من ويسكي ممتاز هذا الذى تقدمونه !
ـ لم نكن نتكلم عن القديسين بالضبط . كنا نتناقش فى موضوع مسيو كيرى .
فراح ريكيه يقول وقد رفع صوته قليلا مثل مدرس فى فصل به ضوضاء :
ـ فى رايى انه قد يكون اهم شخصية جاءت الى هنا منذ شفايتزر . وقد وجدته شخصية شائقة جدا عندما أقام معنا . هل سمعتم عن الحكاية الأخيرة ؟
وجه ريكيه هذا السؤال الى عموم الموجودين فى القاعة وهو يهز الثلج فى كاسه ، ثم استطرد يقول :
ـ انه ذهب الى الغابة منذ اسبوعين ، لكى يبحث كما قيل عن مجذوم كان قد هرب . وقد امضى الليلة كلها معه فى الغابة ، يجادل ويصلى ، وقد اقنع الرجل بالعودة واتمام علاجه . ان السماء امطرت ليلتها ، واصيب الرجل بالحمى ، وهكذا غطاه كيرى بجسده .
فقالت مدام جيل :
ـ ياله من عمل بعيد عن العرف !
فقال الحاكم وكان رجلا ضئيلا قصير النظر اقرب الى ان يكون دائرا فى فلك زوجته :
ـ ان الدنيا ياعزيزتى فيها قديسون كثيرون مجهولون .
وقال مدير الأشغال العمومية يسأل مدير شركة أوتراكو :
ـ من هو هذا الرجل المدعو كيرى ؟
ـ يقولون انه مهندس معمارى ذو شهرة عالمية . كان يجب ان تعرف هذا ، فهو يدخل فى اختصاصك .
ـ لعله غير موجود هنا بصفة رسمية ؟
ـ انه يساعد فى اقامة المستشفى الجديد فى مستعمرة الجذام .
ـ لكننى اعتمدت الرسوم الخاصة بالمستشفى منذ شهور . انهم لا يحتاجون الى مهندس معمارى . هى مجرد عملية بناء بسيطة .
فقاطعهما ريكيه قائلا لادخالهما فى دائرة من يشملهم بأحاديثه :
ـ ان المستشفى ـ ولكم ان تثقوا بكلامى ـ هو خطوة اولى فقط . انه يعد تصميم كنيسة عصرية هنا . انه ألح الى شخصيا بهذا .

هو رجل عظيم الخيال . وما يبنيه يبقى ويدوم . انني أرى المونسينيور آتيا . الآن يمكن أن تسمع رأى الكنيسة فى كيرى .

كان الأسقف طويل القامة انيقا متمق اللحية له عين جوالة كعين شاب من شبان الأرصفة . وكان يتحاشى كرما منه بسط يده للرجال حتى يتفادوا الانحناء امامه . اما النساء فكن يحببن تقبيل خاتمه ، (وهو نوع من الغزل البريء) ، وكان هو يسمح بهذا عن طيب خاطر .

قالت له مدام جيل :

ـ اذن فبين ظهرانينا قديس يامونسينيور .

ـ انك تكرمينني كثيرا . وكيف حال الحاكم ؟ اننى لا أراه هنا .

ـ انه ذهب لاحضار مزيد من الويسكى . واقول الحقيقة يامونسينيور اننى لم اكن اشير اليك . اننى اكره ان اراك قديسا ـ فى هذه المناسبة على الأقل ، فتولى ريكيه البيان قائلا :

ـ كنا فى الواقع نتحدث عن كيرى ، كيرى العظيم ، رجل بهذه المكانة يدفن نفسه فى مستعمرة جذام ، ويمضى ليلة يصلى مع مجذوم فى الغابة ـ لابد أن توافق يامونسينيور على أن التضحية بالذات من اجل الغير على هذه الصورة شيء نادر : مارايك ؟

ـ ترى هل هو يلعب (البريدج) ؟

وكما كان تعقيب الحاكم بمثابة موافقة الادارة على سلوك كيرى ، فكذلك قوبل سؤال الأسقف بما يفهم منه انه بهذا الأسلوب الحكيم التقليدى يتحفظ فى ابداء رأيه .

وتقبل الاسقف كاسا من عصير البرتقال . فنظرت مارى ريكيه الى الكأس مكتئبة . فقد كانت بيديها كاسها من (البيرييه) ولم تدر كيف تتصرف . وقال لها الأسقف برقة :

ـ يجب أن تتعلمى (البريدج) يامدام ريكيه . ان اللاعبين الذين يعرفونه هنا أصبحوا قليلين .

ـ اننى أخاف من لعب الورق يامونسينيور .

ـ سوف اباركك مجموعة الورق واعلمك انا شخصيا .

لم تدر مارى ريكيه ان كان الأسقف يمزح ، وتكلفت ابتسامة يسيرة .

وراح ريكيه يقول :

ـ لا استطيع أن أتصور كيف ان رجلا له منزلة كيرى يمكن أن يعمل مع ذلك اللحد كولين . هذا رجل ، ولكم أن تثقوا بكلامى ،

لا يعرف معنى كلمة الاحسان . هل تتذكرون العام الماضى عندما حاولت تنظيم (يوم المجذومين) ؟ انه رفض أن يساهم فيه بعمل . وقال انه لا يستطيع قبول فكرة الاحسان . لقد جمعنا اربعمائة ثوب وبذلة ، فرفض توزيعها ، لمجرد انها لاتكفى للجميع . وقال انه سيضطر لشراء باقى العدد من جيبه الخاص لتفادى الحسد ـ لماذا يكون المجذوم حسودا ؟ يجدر بامونسينيور أن تكلمه ذات يوم عن طبيعة الاحسان .

لكن المونسينيور كان قد انتقل من مكانه ، ويده تحت ذراع مارى ريكيه . وقال لها :

ـ يظهر ان زوجك مشغوف بذلك الرجل كيرى .

ـ انه يظن انه ربما يكون شخصية يمكن التحدث معها .

فقال المونسينيور يشيرها برفق :

ـ وهل انت صموتة الى هذا الحد ؟

ـ لا يمكننى ان اتكلم فى المسائل التى يتحدث عنها .

ـ اية مسائل ؟

ـ حرية الارادة ، وصلاة المائدة و ـ الحب .

ـ دعى عنك هذا الآن ـ الحب ... انت تعرفينه ، اليس كذلك ؟

فاجابت مارى ريكيه :

ـ ليس الحب بمفهومه عنده .

(٢)

عندما حان الوقت لانصراف ريكيه وزوجته من الحفل ـ وقد اضطرا الى الانتظار طويلا حتى تنصرف مدام كاسان اولا ـ كان ريكيه قد أسرف فى شرب الخمر الى حد الخطر ، وانتقل من حالة اللطف المفرط الى حالة الاستياء ، وهو نوع من ذلك الاستياء البعيد المدى الذى ينقلب بعد نبش نقائص الغير الى استعراض نقائصه هو نفسه وكانت مارى ريكيه تعرف أنه لو امكن استدراجه وهو فى هذه المرحلة الى اخذ قرص منوم فقد يمضى كل شىء بخير . وربما يصل الى الغيبوبة قبل ان يصل الى موضوع الدين ، الذى ينتقل منه الى موضوع العلاقات الزوجية .

قال لها ريكيه :

ـ هناك اوقات اتمنى فيها لو كان عندنا اسقف اكثر عناية بالمسائل الروحية .

فقالت مارى ريكيه :
ـ انه كان رقيقا معى .
ـ اظن انه تكلم معك عن لعب الورق .
ـ انه عرض أن يعلمنى (البريدج) .
ـ أظن انه كان يعرف اننى منعتك من لعب الورق .
ـ لايمكن أن يعرف هذا ، لاننى لم اخبر به احدا .
ـ لن اسمح لزوجتى أن تصبح مثل باقى الجاليات الأوربية هنا .
ـ اظن اننى اصبحت منهم .
واضافت بصوت خافت :
ـ لا أريد أن أكون مختلفة عنهم .
فقال لها بحدة :
ـ يمضون وقتهم كله فى أحاديث تافهة ...
ـ ليتنى استطيع هذا ، كم اتمنى ان استطيع هذا . لو كان اى انسان يمكنه ان يعلمنى هذا ...

على هذا النحو كان الموقف بينهما كل مرة . انها لم تشرب سوى (البيريه) ، ومع ذلك فان الكحول المنبعث من انفاسه كان يجعلها تتكلم وكأن الويسكى الذى شربه قد نفذ الى دمها هى ، وعندما كانت تتكلم فى مثل هذه المواقف كان كلامها دائما قرين الحقيقة . لكن الحقيقة كانت تسخط ريكيه دائما ، اذ رد عليها قائلا :

ـ يالله من كلام فارغ ! لا تتكلمى هكذا كأصحاب المظاهر . هناك اوقات تذكرينني فيها بمدام جيل .

كانت الضوضاء المنبعثة من الغابة على جانبى الطريق الذى تسلكه السيارة اعلى من صوت المحرك ، وكان الليل يتغنى من حولهما بأصوات كلها نشاز . ولم تتمالك أن خامرها حنين الى تلك الحيوانيت المتراصة على الطريق فى شارع نامور بمسقط رأسها . وحاولت ان تخترق ببصرها زجاج السيارة المضاء لترى من خلفه واجهة زجاجية مملوءة بالأحذية المعروضة . واذا هى تمد قدمها الى جانب (الفرملة) وتقول هما :

ـ انا البس مقاس ٦ .
ـ ماذا قلت ؟
ـ لا شيء .
ـ اراك تعتادين عادة سيئة عندما تكلمين نفسك .

لم تقل شيئا . فلم يكن بوسعها ان تكاشفه بما كان يدور فى

خاطرها . لم يكن بجوارها أحد تتكلم معه عن (محل الحلوى والفطائر عند الناصية) ، ولا عن اليوم الذى اصيبت فيه الأخت تيريز بالتواء فى ساقها ، ولا عن شاطىء البحر فى شهر اغسطس مع والديها .

قال ريكيه وقد انتقل الى المرحلة الثانية من سكرته :

ــ ان الذنب فى الكثير من هذا هو ذنبى ، والغلطة غلطتى . اننى ادرك هذا . لقد فشلت فى تعليمك القيم الصحيحة كما اراها . ماذا يمكن أن تتوقعى من مدير مصنع للزيوت ؟ لم يكن القصد ان تكون هذه حياتى . كنت اظن انه حتى انت يمكن أن تدركى هذا . فعندما كنت شابا اردت ان اكون قسيسا .

لابد انه قال لها هذا ، عقب كل سكرة ، مرة على الأقل كل شهر منذ زواجهما . وفى كل مرة كان يتكلم هكذا ، كانت تتذكر ليلة زواجهما الأولى فى الفندق بمدينة انتويرب ، التى داس فيها على مشاعرها ، حتى اضـــطرت أن تقول له انه هو الذى سعى الى الزواج منها .

وعاد الآن يقول لها :

ــ ماذا كنت تقولين ؟

ــ لم اقل شيئا .

ــ انك لاتظهرين حتى اقل اهتمام عندما اكلمك عن أعمق مشاعرى .

فقالت بلهجة التعاسة :

ــ ربما كان غلطة .

ــ غلطة ؟

ــ زواجك بى . فانى كنت صغيرة جدا .

ــ يعنى اننى عجوز لا اصلح لك !

ــ لا ، لا . لا اقصد ...

ــ انت تعرفين نوعا واحدا فقط من الحب ، اليس كذلك ؟ هـل تظنين ان هذا هو نوع الحب الذى كان يشعر به القديسون ؟

فقلت يائسة :

ــ انا لا اعرف اى قديسين .

ــ انت لا تعتقدين أننى كفء لك ؟

فقالت همسا :

ــ انا لا افهم ... صدقنى لست أفهم .

ــ ما الذى لا تفهمينه ؟

ــ كنت اظن ان المحبة الزوجية يمكن ان تسعدك .

ـ هل هذا ملعلومك اياه فى الدير ؟
ـ نعم .
فلوى سحنته فى وجهها وهو يرسل انفاسه ثقيلة حتى امتلأت السيارة الصغيرة برهة برائحة الخمر .
واقتربت بهما السيارة من المنزل ، فقال لها بصوت دبت فيه الرقة فجأة :
ـ هذه فرصة للصلاة .
ـ الصلاة ؟
رددت هذه الكلمة وقد علمت دون ارتياح أنها ايذان بانتهاء (المعركة) . وقال لها :
ـ عندما لا أجد شيئا افكر فيه ، فانني اردد بعض الصلوات ، خصوصا صلوات التندم .
ـ التندم ؟
ـ ... على أنني غضبت بغير حق من طفلة عزيزة احبها .
وامتدت يده تداعب يدها .
ولاح لهما المنزل من كثب . وبعد دورة قصيرة ستبدو غرف النوم مضاءة . وكان بودها أن تذهب مباشرة الى غرفتها ـ تلك الغرفة الصغيرة الحارة الكالحة التى كان يسمح لها أن تبقى فيها وحدها احيانا فى فترات معينة من حياتهما الزوجية ، ولكنه استوقفها بلمسة من يده ، قائلا :
ـ لست غاضبة منى يا (ماوى) ؟
كان دائما ينطق اسمها بهذه اللثغة الصبيانية فى اللحظات التى يكون فيها ابعد عن كل اسلوب صبيانى .
فردت عليه قائلة :
ـ لا ... ولكننى اخشى الا تكون هذه المرة مأمونة .
كان أملها الوحيد فى الافلات هو خوفه من انجاب طفل . ولكنه قال لها :
ـ اطمئنى ... انني تفحصت التواريخ بدقة .
ـ ان احوالى لم تكن منتظمة فى الشهرين الاخيرين .
فطوق خصرها بذراعه ودفعها برفق الى الوجهة التى يريدها . فقالت مستعطفة :
ـ دعنى اذهب الى غرفتى لحظة . انني تركت فيها بعض اشيائى

كانت فى الواقع تكره أن تتجدد أمام عينيه المحدقتين ،واضافت قائلة :

ـ لن اغيب طويلا . اعدك الا اغيب طويلا .

فقال لها :

ـ سوف أكون فى انتظارك .

غيرت ملابسها مبطئة بقدر ماتجرات . ولم يكن فى الغرفة سوى سرير حديدى صغير ومقعد وخزانة ملابس ودولاب بادراج تعلوه صورة فوتوغرافية لأبويها ـ شخصان مسنان سعيدان تزوجا متاخرين وانجبا ابنة واحدة . وكان هناك بطاقة مصورة لمدينة بروج ارسلها اليها ابن عم لها ، ونسخة قديمة من مجلة (تايم) . وكانت تخبىء مفتاحا تحت الدولاب مالبثت ان اخرجته وفتحت الدرج السفلى . كان بداخله متحفها السرى : نسخة بادية الجدة والروعة من كتاب القداس منحت لها فى أول عشاء ربانى شهدته ، وصدفة من أصداف البحر ، وبرنامج حفل موسيقى فى مدينة بروكسل ، وكتاب اندريه لوجين المعروف باسم (تاريخ أوروبا الكاثوليكى) فى جزء واحد لطلبة المدارس ، وكراسة مدرسية تضم موضوعا كانت قد كتبته اثناء سنتها الدراسية الأخيرة (حصلت عنه على النهاية الكبرى فى الدرجات) عن « الحروب الدينية » . والآن لم تلبث ان اضافت الى هذه المجموعة نسخة مجلة (التايم) القديمة ، فحجب وجه كيرى المرسوم على الغلاف تاريخ لوجين ، وكان غير متناسق بين مخلفات عهد الطفولة ، لقد تذكرت نص كلمات مدام جيل التى قالتها بالحرف الواحد : « ان شهرته فى بعض النواحى المعينة سيئة جدا » . ولم تلبث أن أوصدت الدرج واخفت المفتاح ـ فلم يكن مامونا أن تتاخر اكثر من هذا القدر . ثم سارت فى الشرفة الى غرفتهما،حيث كان ريكيه ممددا متجردا فى جوف (الناموسية) فى الفراش المزدوج . كان مشهده أقرب الى رجل غريق أخرجوه من المياه فى شبكة ، وبدا شعره المنتشر فوق بطنه . وساقيه كاعشاب بحرية . ولكن ما أن دخلت عليه حتى دبت فيه الحياة فجاة ، ورفع جانب الخيمة قائلا :

ـ تعالى يا (ماوى) !

الفصل الثانى

أطفأ رئيس الرهبان سيجاره بأدبه التقليدى ، ولكن ما أن جلست مدام ريكيه حتى أشعل وهو شارد الذهن سيجارا آخر . وكان مكتبه مغطى بأوراق مبعثرة ، من (كتالوجات) الأوانى المختلفة ، وقصاصات الورق التى ازدحمت بعمليات حسابية معقدة كانت نتائجها مختلفة دائما ، اذ كان محاسبا قاصرا ـ كان الضرب عنده عمليات جمع معقدة وسلسلة من عمليات الطرح تحل كلها محل القسمة المطولة . وكانت صحيفة احد (الكتالوجات) مفتوحة على صورة « بيديه » اخطأ رئيس الرهبان فحسبه نوعا جديدا من حمام القدم . وعندما دخلت مدام ريكيه كان يحاول أن يحسب أن كان فى قدرته المالية شراء ثلاث مجموعات منها لمستعمرة الجذام : فقد بدت له هى عين المطلوب لغسل الأقدام المجذومة .

قال للقادمة :

ـ أهلا يامدام ريكيه . انت زائرة لم نكن نتوقعها . هل زوجك ..

ـ لا .

ـ انها مسافة طويلة تأتين فيها وحدك .

ـ كان معى اناس فى الطريق حتى مستوطنة اسرة بيران ، حيث امضيت الليلة عندهم . وقد طلب منى زوجى أن أحضر اليك برميلين من الزيت .

ـ بالله من رجل كريم .

ـ أخشى أن يكون ما تؤديه لمستعمرة الجذام شيئا قليلا .

بدا لرئيس الرهبان انه ربما يستطيع أن يطلب من أسرة ريكيه تزويد المستعمرة بعدد محدود من حمام القدم الجديد ، لكنه لم يكن على يقين من القدر الذى يمكنهما المساهمة به . اى انسان ذو مال يبدو غنيا فى نظر من لايملك شيئا ـ فهل يطلب حماما واحدا او يطلب الكمية اللازمة كلها ؟ بدا فى تحويل صور (الكتالوج) فى اتجاه مارى ريكيه ، بحذر ، لكى يبدو الأمر وكأنه يقلب أوراقه لا أكثر . ولسوف تكون مهمة الكلام أيسر كثيرا لو انها هتفت قائلة : « بالله من حمام قدم جديد جميل ! » ، وبهذا يمكنه أن يعقب قائلا :

وبدلا من ذلك فقد اربكته بتغيير الموضوع قائلة :
ـ كيف تسير خطط بناء الكنيسة الجديدة يا ابى ؟
ـ كنيسة جديدة ؟
ـ قال لى زوجى انكم تبنون كنيسة جديدة رائعة تبلغ فى ضخامتها حجم الكاتدرائية ، على الطراز الافريقى .
ـ يالها من فكرة خارقة . لو كان عندى المال اللازم لهذا الغرض ـ وماكان ليستطيع بكل قصاصات ورقة ان يحسب تكاليف بناء كنيسة (فى حجم الكاتدرائية) ـ اذن لبنينا مائة بيت ، وكل بيت مزود بحمام قدم .
وادار الكتالوج مسافة اخرى الى ناحيتها قائلا :
ـ ان الدكتور كولين ماكان ليغفر لى قط بعثرة المال من اجل ذلك .
ـ ترى لماذا قال زوجى ..؟
تساءل رئيس الرهبان فى نفسه : ايجوز ان هذا تلميح لاستعداد اسرة ريكيه لتمويل ... كان من الصعب أن يعتقد ان مدير مصنع زيوت تسنى له أن يكون غنيا بالقدر الكافى ، لكن يجوز أن مدام ريكيه بالطبع نالت ميراثا . ان ميراثا كهذا يمكن قطعا أن يكون مدار الحديث فى (لوك) ، لكنه لم يكن يقوم بالرحلة الى هذه البلدة الا مرة واحدة فى العام . وهكذا قال :
ـ ان الكنيسة القديمة ، كما تعرفين ، سوف تكفينا مدة طويلة . ان نصف الناس هنا فقط من الكاثوليك . وعلى اى حال فمن غ المجدى ان تكون لنا كنيسة ضخمة اذا كان الناس لا يزالون يعيشو فى اكواخ من الطين . والآن قد امكن صديقنا كيرى ايجاد طريق لخفض تكلفة بناء كوخ بمقدار الربع . اننا كنا مجرد هواة هنا الى ا قدم عندنا .
ـ ان زوجى قال لكل انسان ان كيرى قائم ببناء كنيسة .
ـ آه ، لا ، اننا نستطيع الانتفاع به بطريقة افضل . ان المستشف الجديد ايضا لايزال امامه وقت طويل قبل أن يتم . وكل مال يمكن ان نستجديه او نسطو عليه لابد أن ينفق فى تاثيث المستشفى اننى كنت الآن افحص هذه الكتالوجات ...
ـ اين مسيو كيرى الآن ؟
ـ آه . اعتقد أنه يعمل فى غرفته ، اللهم الا اذا كان مع الدكتو كولين .

ـ الجميع كانوا يتحدثون عنه فى بيت الحاكم منذ اسبوعين .
ـ مسكين مسيو كيرى .
فقالت مدام ريكيه :
ـ كانوا كلهم يثنون عليه . هل صحيح ماقيل ـ عن حكاية غياب تابعه ؟
ـ حدث شيء من هذا القبيل . لست اعرف ماذا قالوا عن هذا .
ـ قالوا انه اقام طول الليل وصلى ...
ـ ان مسيو كيرى لا يكاد يصلى .
ـ ان زوجى ينظر اليه نظرة كبيرة . هناك اناس قليلون جدا يمكن زوجى أن يتحدث معهم . وقد طلب منى أن أحضر الى هنا وأدعو ..
ـ نحن ممتنون جدا عن برميلى الزيت . ان ماوفرتموه لنا من ثمن الزيت ، يمكننا أن ننفقه فى ...
وحرك صورة (البيديه) مسافة اخرى من مدام ريكيه . ولكنها قالت :
ـ هل تظن انه يمكننى ان اكلمه ؟
ـ المشكلة يامدام ريكيه هى ان هذه هى ساعة عمله .
فقلت متوسلة :
ـ اريد فقط ان يكون بوسعى ابلاغ زوجى اننى دعوته ...
لكن نبرات صوتها المحدودة لم تعبر عن التوسل كما ينبغى ، وكان رئيس الرهبان منشغلا بالنظر الى جانب من صورة حمام القـــدم لم يستطع فهمها تماما ، فقال :
ـ مارأيك فى هذا ؟
ـ ماذا ؟
ـ حمام القدم هذا . اريد شراء ثلاث مجموعات للمستشفى .
وتطلع اليها بعد صمتها عن الجواب ، وأدهشه أن يرى وجهها وقد تورد . لقد بدا له أنها طفلة وافرة الملاحة . وقال لها :
ـ هل تظنين ...؟
انتابها الارتباك ، وتذكرت مداعبات رفيقاتها المجترئات فى الدير ، تلك المداعبات الغامضة ، وقالت :
ـ ليس هذا فى الحقيقة حمام قدم يا أبى .
ـ لأى غرض هو اذن ؟
فاجابت بقدر يسير من التفكه :
ـ الأفضل ان تسأل الطبيب ـ او مسيو كيرى .

وتحركت قليلا فى مقعدها ، ففهم رئيس الرهبان هذا على انه علامة الرحيل ، وقال لها :

ـ ان المسافة طويلة ياعزيزتى فى عودتك الى أسرة بيران ، هل يمكن أن اقدم لك فنجان قهوة أو كوب بيرة ؟

ـ لا ، لا . شكرا لك .

ـ أو قليل من الويسكى ؟

ـ رغم السنين الطوال لعزوفه عن الشراب فانه لم يتعلم قط أن الويسكى قوى جدا فى شمس الظهيرة .

ـ لا ، شكرا لك يا أبى . أنا أعرف أنك مشغول ، ولا أريد ان اسبب لك اية مضايقة . لكن اذا أمكن فقط أن اقابل مسيو كيرى واطلب منه ...

ـ سابلغه رسالتك ياعزيزتى . اعلك اننى لن انسى هذا . انظرى ، هاقد كتبت مذكرة : كيرى ـ ريكيه .

كان مستحيلا أن نخبرها انه كان قد وعد كيرى ان يدعه دون شىء يقلق راحته ، « خصوصا من جانب ذلك المخبول مدعى التدين ريكيه » .

لكنها قالت له :

ـ لن ينفع هذا يا أبى ، لن ينفع . اننى وعدت زوجى أن أقابله شخصيا . ولن يصدق اننى حاولت هذا .

وامسكت عن اتمام كلامها . فقال رئيس الرهبان :

ـ انا غير متاكد حقيقة اين هو الآن :

ـ لو امكن فقط ان ابحث عنه بنفسى .

ـ لا يمكننا أن نتركك تتجولين فى حرارة الشمس . ماذا يقول زوجك لو فعلنا هذا ؟

ـ هذا هو عين ما اخشاه . انه لن يصدق ابدا اننى بذلت كل جهدى .

وبدا واضحا أن الدموع تكاد تنبثق فى عينيها ، مما زاد مظهرها صغرا وطفولة . فقال رئيس الرهبان :

ـ أقول لك ماذا سافعل . سأطلب منه أن يتصل تليفونيا ـ عندما ينتظم الخط .

فقالت بصراحة محزنة :

ـ أنا اعرف أنه لا يحب زوجى .

فقال وقد غلب على أمره :

ـ يا فلتى العزيزة ، هذه كلها تخيلات . ان كيرى شخص غريب . لا احد منا يعرفه حقيقة . وربما كان هو نفسه لايحب احدا منا .

ـ انه يقيم معكم ، انه لا يتجنبكم .

شعر رئيس الرهبان بوخزة غضب ضد كيرى . ان هؤلاء الناس قد أرسلوا اليه برميلين من الزيت ، فهم بالتأكيد يستحقون بالمقابل شيئا من المجاملة ، فقال لها :

ـ ابقى هنا . سأرى ان كان كيرى فى غرفته ... لا يمكننا ان نجعلك تبحثين عنه فى مستعمرة الجذام كلها .

وغادر غرفة مكتبه ودار حول ركن الشرفة واتجه الى غرفة كيرى . ومر بغرفتى كل من الأب توماس والأب بول ، ولم تكن احداهما مختلفة عن الأخرى بطابع ذاتى أكثر من نوع الصليب الذى اختاره كل منهما ، وتفاوت درجة ترتيب الغرفة . ومر بعدهما بالكنيسة الصغيرة ، واخيرا غرفة كيرى . كانت الغرفة الوحيدة العارية من كل رموز ، بل كانت فى الواقع مجردة من كل شىء تقريبا ، فلا صور فوتوغرافية لأى مكان ينتمى اليه الانسان ، أو صورة لأحد الأبوين . والواقع أن الغرفة تركت فى نفس رئيس الرهبان انطباعا بالبرودة والجفوة رغم حرارة النهار ، وكأنها قبر موحش . وكان كيرى جالسا الى منضدته . وأمامه رسالة عندما دخل رئيس الرهبان ، لكنه لم يرفع رأسه . فقال له :

ـ انا آسف لازعاجك .

ـ اجلس يا ابى . لحظة واحدة حتى أنتهى من هذا .

ثم قلب الصفحة وقال :

ـ كيف تختم رسائلك يا ابى ؟

ـ المسألة تختلف . (أخوك فى الدين) ، ربما ؟

ـ اتذكر اننى اعتدت ان اكتب عبارة : « كلى لك » . ما اكذب مايبدو هذه العبارة فى سمعى الآن .

ـ عندى زائر لك . اننى حافظت على وعدى ودافعت عنك الى آخر رمق . ولم يعد بوسعى ان افعل أكثر من هذا . ولولا ذلك لما عملت على اقلاقك .

ـ انا مسرور بمجيئك . اننى لا استسيغ وجودى وحيدا مع هذه الرسالة . المسألة هكذا ـ ان البريد قد لاحقنى . كيف عرف اى انسان اننى هنا ؟ هل تلك الجريدة المحلية اللعينة التى تصدر فى (لوك) يصل توزيعها الى اوربا ؟

ـ ان مدام ريكيه هنا ، تسأل عنك .
ـ آه ، حسنا . على الأقل ليس هو زوجها .
وتناول غلاف الرسالة قائلا :
ـ هل رأيت ؟ انها عرفت حتى رقم صندوق البريد . ياله من صبر ! لابد أنها كتبت للرئاسة عندكم .
ـ من هي ؟
ـ كانت يوما خليلتي . وقد تركتها منذ ثلاثة اشهر . يالها من مسكينة ، وان كان هذا نفاقا مني ، فانني لا اشعر حيالها باي رثاء . انا آسف يا ابي ، فلم يكن قصدي ان اعرضك للجرح .
ـ لم تحرجني . وانما مدام ريكيه هي التي أحرجتني . انها احضرت لنا برميلين من الزيت وتريد ان تكلمك .
ـ هل انا أستحق كل هذا ؟
ـ ان زوجها هو الذي ارسلها .
ـ هل هذه هي العادة هنا ؟ قل لها انني غير مهتم .
ـ ان المسكينة لم تفعل اكثر من ان جاءتك بدعوة . الا يمكنك ان تقابلها وتشكرها وتعتذر ؟ انها نصف خائفة من ان ترجع الا اذا استطاعت أن تقول انها تكلمت معك . لعلك خائف منها ؟
ـ ربما . بكيفية ما .
ـ سامحني يامسيو كيري اذا قلت هذا ، لكنك لاتثير في نفسي الاحساس بانك الرجل الذي يخاف من النساء .
ـ ألم تصادف قط يا ابي مجلوما يخاف من ضرب اصابعه وهو يعرف انها لم تعد تؤلمه ؟
ـ لقد عرفت رجالا يطربون لعودة الاحساس اليهم ـ حتى بالألم لكن لابد لك ان تهيىء الفرصة الى الألم لكي يعود .
ـ ان عودة الألم كالسراب . سل المشوهين المبتورى الأصابع . لا بأس يا ابي ، دعها تدخل . ان هذا افضل كثيرا من رؤية زوجها المنكود على اي حال .
فتح رئيس الرهبان الباب ، واذا الفتاة واقفة في المدخل ، في وقدة الشمس ، وقد فوجئت فاغرة الفم كشخص فاجأته عدسة الكاميرا في ملهى ليلي وهو يتطلع في الوميض متقلص السحنة بالم مسخ صورته . ولم تلبث ان دارت على عقبيها بعنف وابتعدت الى حيث كانت سيارتها مرابطة ، وسمعا صوت محاولاتها المتعثرة وهي تدير المحرك . فتبعها رئيس الرهبان ، ولكن مسيرة من النساء

المائدات من السوق اعترضت طريقه واخرته ... فهرول قليلا فى اثر السيارة والسيجار فى فمه وقبعته الشمسية مائلة الى جانب ، ولكنها ابتعدت بالسيارة تحت المدخل المقوس الذى يحمل اسم مستعمرة الجذام ، وخادمها الصغير يراقب حركاته الغريبة من افذة السيارة الجانبية . فعاد ادراجه يعرج لانه تعثر فى اصبع قدمه ، وقال :

ـ طفلة حمقاء ! لماذا لم تبق فى غرفتى ؟ كان من الممكن أن تمضى الليلة مع الراهبات . كل ما ارجو هو أن يكون خادمها شخصا يمكن الاعتماد عليه .

ـ هل تظن انها سمعت كلامى ؟

ـ سمعت بالطبع . انك لم تخفض صوتك عندما تكلمت عن ريكيه اذا كنت تحب رجلا فليس مما يسر أن تسمع الى اى حد هو محل النفور ...

ـ وأسوأ من هذا يا ابى ان كنت لا تحبه بتاتا .

ـ انها تحبه بالطبع ، فهو زوجها .

ـ ان الحب يا ابى ليس احدى الخصائص العامة الملازمة للزواج .

فقال رئيس الرهبان باصرار :

ـ انها زوجة شابة صالحة جدا .

ـ نعم يا ابى . ويالها من صحراء تلك التى تعيش فيها هنا نائية وحيدة مع ذلك الرجل .

ونظر الى الرسالة الملقاة على مكتبه والى تلك العبارة الختامية : « كلى لك » التى يخفى بها بعض الناس مشاعرهم الحقيقية فى الوقت الذى يضحون فيه بغيرهم ـ وبدا له أن الانسان قد يستطيع رغم ذلك أن يستشعر انعكاس الم الغير حتى لو توقف هو عن الاحساس بالمه الذاتى . ومالبث أن وضع الرسالة فى جيبه ، فمن الانصاف على الأقل أن يستشعر احتكاك الورق ، ان لم يستشعر شيئا آخر ، وقال معقبا :

ـ انهم انتزعوها مسافة طويلة من مكان عزيز عليها ـ من (بنكازى)

ـ وماهو (بنكازى) هذا ؟

ـ لا اعرف ـ ربما كان رمزا لحفلة راقصة فى بيت صديق ، او شابا وسيما طيب القلب ، او الذهاب الى القداس يوم الاحد مع العائلة ، او النوم الهانىء فى فراش مفرد .

ـ ان الناس لابد ان يكبروا . اننا مطالبون بتكاليف اكثر تشابكا

واكبر مسئولية من مجرد هذه البسائط .
ـ احق ان علينا هذا ؟
ـ « عندما تكون اطفالا فاننا نفكر كالاطفال » .
ـ لن استطيع ان اجاريك فيما تقتبس من احكام يا ابى . لكن من المؤكد ان هناك حكمة فى ان نبقى اطفالا اذا اريد ان ... اننا نكبر بصورة اقرب الى الالتواء . ان تعقيدات وجودنا قد اضحت اشد تعقيدا .
ـ ان معظمنا يخلق هذه التعقيدات لنفسه يامسيو كيرى . ثم لماذا هذه المرارة ؟ اظن انك قلت انه لم يعد لك اهتمام باى شىء ؟
ـ ليس لى فعلا . اننى وصلت الى حالة العدم . ولهذا لا احب ان انظر الى الماضى .
قال هذا وقد شعر بخفيف الرسالة فى جيبه عندما تململ فى مكانه .
ـ ان الندم نوع من الراحة والتسرية .
ـ اراك تحاول ان تنسب كل الفضائل الى دائرتك يا ابى . اننى اعتقد ان انسان الكهف كانت تبكيه دموع غيره . بغض النظر عن كل اعتبار ، سوف يبقى هناك دائما انسان ساذج يغطى جسد غيره بجسده لكى يمده بالحرارة ساعة اخرى من عمره .
ـ هل تؤمن بهذا ؟ لكننى اتذكر انك قلت مرة انك عصى على الحب .
ـ انا هكذا فعلا ، والمؤلم فى الموضوع ان جسدى هو الذى سوف يغطيه جسد آخر . امراة على وجه التاكيد . انهن شغوفات بكل ماهو ميت ذاهب . انهن حريصات على الاعتزاز بالتذكارات .
اطفأ رئيس الرهبان عقب سيجارة ثم اشعل سيجارا آخر وهو يتحرك شطر الباب . فناداه كيرى قائلا :
ـ اننى تماديت فى الكلام ، اليس كذلك ؟
ثم اردف وهو يلطم المنضدة بيده اهتياجا :
ـ ابعد عنى تلك الفتاة هى ودموعها اللعينة !
وبعد انصراف رئيس الرهبان نادى كيرى تابعه ديوجراتياس . فجاء الرجل يدب على قدميه المبتورتى الاصابع . ونظر فى اثناء غسل اليدين ليرى ان كان يراد تفريغه ، فقال له كيرى :
ـ ليس هذا ما اريد . اجلس . اريد ان اسالك عن شىء .
فوضع الرجل عصاه وجلس القرفصاء على الارض . ان عملية

الجلوس ذاتها كانت عسيرة لمن هو بغير اصابع يديه وقدميه . فاشعل كيرى سيجارة ودسها فى فم الشاب ، وقال له :

ـ فى المرة الآتية اذا حاولت الابتعاد من هنا ، هلا اخذتنى معك ؟

لم يحر الرجل جوابا . فقال كيرى :

ـ لا . لا لزوم للرد . بالطبع لن تفعل هذا . قل لى ياديوجراتياس كيف كانت طبيعة المياه فى الغابة ؟ مثل مياه النهر العظيم هناك ؟

هز الرجل راسه . فقال كيرى :

ـ مثل مياه البحيرة فى بيكورو ؟

ـ لا .

ـ كيف كانت طبيعة المـاء ياديوجراتياس ؟

ـ انه ماء سقط من السماء .

ـ شلالا ؟

لكن هذا المدلول لم يكن له معنى عند ديوجراتياس فى هذا الاقليم المسطح الذى يجرى فيه النهر سويا بين الغابات المتكاثفة .

عاد كيرى يقول :

ـ لقد كنت طفلا فى تلك الايام محمولا على ظهر امك . هل كان هناك اطفال كثيرون غيرك ؟

فهز الشاب راسه . فقال كيرى :

ـ قل لى ماذا كان يحدث حولكم ؟

فلم يزد ديوجراتياس عن قوله :

ـ كنا سعداء .

القسم الرابع

الفصل الأول

(١)

جلس كيرى ودكتور كولين على درجات سلالم المستشفى فى بكرة الصباح الرطيب . كان كل عمود يلقى ظلا ، وفى كل ظل جلس القرفصاء مريض . وفيما وراء الطريق وقف رئيس الرهبان لدى المذبح يرتل القداس ، اذ كان الوقت صباح يوم الأحد . وكان للكنيسة جوانب مفتوحة ، فيما عدا قواطع شبكية من الآجر لكسر اشعة الشمس ، وهكذا كان بوسع كيرى وكولين مراقبة جمهور المصلين وقد جلست الراهبات على مقاعد فى الصف الأمامى وجلس خلفهن المجذومون على دكك مستطيلة مرفوعة عن الأرض بقدر قدم ، مبنية من الأحجار التى يمكن تطهيرها بأتم واسرع من الخشب .

وعن كثب من الطبيب على درجة السلالم العليا جلس رجل كهل مصاب بالدوالى المتضخمة ، فعلق كيرى على حالته قائلا :

ـ هل صحيح انه يستحيل اجراء عملية جراحية له ؟

ـ انها مخاطرة شديدة . ان قلبه لايتحمل التخدير .

ـ هل قضى عليه اذن أن يحمل هذه الدوالى معه طول حياته حتى الموت ؟

ـ نعم . انها ليست ثقيلة بالقدر الذى تتصوره . لكن يبدو انه ليس من العدل أن يقاسى هذا المرض والجذام ايضا .

وصمت الطبيب برهة ثم اردف قائلا :

ـ فى يوم من الأيام سوف أنتزع بعض المال من بعض الناس واشترى بعض مقاعد ذات عجلات تصنع خصيصا للحالات المرضية المستعصية . ان هذا العجوز سيحتاج بالطبع الى مقعد متحرك له مواصفات خاصة . فهل يتفضل مهندس معمارى مشهور متخصص فى بناء الكنائس بعمل تصميم لمقعد من هذا النوع ؟

فأجاب كيرى :

ـ سوف أزودك بالتصميم المطلوب .

ووصل الى سمعهما عبر الطريق صوت رئيس الرهبان وهو يلقى موعظته بخليط من الفرنسية واللغة المحلية . فقال الدكتور كولين :

ـ لقد مضى زمان طويل منذ أن استمعت الى موعظته . انها تذكرنى بعهد الطفولة . هيا بنا ياكيرى قبل أن نتأثر بهذا الكلام الطيب . ليتهم يستطيعون بالمثل تخفيض ثمن الكورتيزون للمرضى هنا ..

فنهضا وسارا شطر المستوصف . وقال الدكتور كولين :

ـ ان حياتى هنا ابسط من كل هذا . ان حياتى (روتين) يملأ فراغ نهارى . وأعرف أن المريض قد شفى بعد اختبارات الجلد السلبية . وليس هناك حاجة الى اختبارات جلد لما هو صالح بطبيعته . ومادمنا نتكلم عن دوافع الخير ياكيرى ، ماهى الدوافع التى حفزتك الى متابعة خادمك الى قلب الغابة ؟

ـ الفضول . الكبرياء . لكن لا أثر فيها لمواعظ الفير .

فقال كولين :

ـ على اى حال فانك تتكلم دائما كما لو كنت فقدت شيئا عزيزا كنت تحبه . أما أنا فليس هذا شأنى . اننى كنت دائما أكن المودة لاخوانى من بنى الانسان . ان المودة أسلم كثيرا من الحب . انها لا تتطلب ضحايا . من ضحيتك ياكيرى ؟

ـ لا ضحايا لى الآن . انا فى أمان .

ثم اضاف قائلا بلهجة لاتشف عن تمام اليقين :

ـ اننى شفيت ياكولين .

(٢)

تناول الأب بول نصيبه من طبق الجبن المخفوق بالبيض وصب لنفسه كوبا من الماء لمعاونته على ازدراده ، ثم قال :

ـ ان كيرى سيتناول غداءه اليوم مع الطبيب خروجا على عادته . الا يمكن اقناع الاخوات بتنويع (طبق اليوم) ؟ ان يوم الأحد على كل حال هو يوم عيد .

فرد رئيس الرهبان قائلا :

ـ ان قصدهن هو تقديم صنف ممتاز لنا ، لاعتقادهن اننا نتطلع اليه طول الاسبوع. ولا احب ان اخدش احساس الأخوات الطيبات.

كانت عمليات طهى طعام الرهبان تتولاها الراهبات ، وكان الطعام

ينقل الى مقرهم مسافة ربع ميل في الشمس . ولم يتبادر الى اذهان الراهبات قط ان هذه العملية ذاتها كفيلة بافساد (الجبن المخفوق بالبيض) ، و « العجة » وكذلك القهوة التي تقدم بعد العشاء .

وقال الاب توماس معقبا :

ــ لا اظن ان مسيو كيري يهتم كثيرا بمسالة الطعام ..

كان الاب توماس هو الراهب الوحيد في مستعمرة الجذام الذي يثير قلق رئيس الرهبان ، لما كان يبدو من تعلقه بشبابه وحياته قبل الرهبنة . وقد رد عليه بعبارة اراد بها ابعاد الحديث عن المسار الذي يريد الاب توماس متابعته ، قائلا :

ــ نعم . ان مسيو كيري ضيف طيب مريح .

فقال الاب توماس وهو يجاهد لاستعادة المسار الذي يريده :

ــ هو رجل ممتاز .

وقال رئيس الرهبان موجها حديثه اليهم عموما :

ــ ان عندنا الآن اعتمادات مالية تسمح بشراء مروحة كهربائية لعنبر الولادة .

فقال الاب جان :

ــ وسوف نحتاج ايضا الى اجهزة تكييف في حجراتنا ، ومحل خردوات وبقالة به قسم لاحدث مجلات السينما بما في ذلك صور بريجيت باردو .

كان الاب جان طويل القامة شاحب الوجه له لحية تتعثر لتثبيت وجودها . وكان من قبل استاذ لاهوت لامعا قبل انخراطه في سلك (الاخوية الرهبانية)، وكان يحرص على ابداء شخصية عشاق السينما .

فرد الاب بول قائلا :

ــ انني افضل بيضة مسلوقة ليوم الاحد .

ولكن الاب جان عاجله قائلا :

ــ لا اظنك تحب البيض غير الطازج مسلوقا .

فقال الاب جوزيف :

ــ ان البيض لن يكون غير طازج لو عرفوا كيف يعتنون بالدجاج كما يجب . انني على استعداد لامدادهم بمساعدي من عمال البناء لاقامة بيوت تفريخ ، ومن السهل تزويدها بالكهرباء من بيت الاخوات .

ولاول مرة تكلم الاخ فيليب . كان يكره ان يتدخل في الحديث الذي يعده من الامور الدنيوية ، وقال :

ــ مراوح كهربائية . بيوت تفريخ . احترس يا ابي ، والا حملت

المولدات الكهربائية اكثر من طاقتها .
كان رئيس الرهبان متنبها ، الى ان الأب توماس يتميز غضبا بجان ، فقال له بلباقة :
ـ وحجرة الدراسة الجديدة يا ابى ؟ هل بها كل مايلزم ؟
ـ بها كل شيء سوى المعلم الصالح الذى يعرف مبادىء العقيدة .
ـ لاباس بها مادام يمكننا تعليم الحروف الأبجدية .
ـ كنت أعتقد ان التلقين الدينى الصحيح أهم من تعليم الحروف الابجدية .
وعندئذ خف الأب جان الى نجدة رئيس الرهبان قائلا :
ـ ان ربكيه تكلم بالتليفون هذا الصباح .
ـ وماذا كان يريد ؟
ـ كان يطلب كيرى بالطبع . قال ان عنده رسالة يريد تبليغها ـ شيء ما بخصوص رجل انجليزى ، لكنه رفض ابلاغ الرسالة . لقد هدد بانه سيحضر الى هنا قريبا ، حالما تصبح المعديات صالحة من جديد . وقد سألته ان كان يمكنه ان يجيء لى ببعض مجلات السينما لكنه قال انه لايقراها . كما انه يريد استعارة مؤلف الأب (كاربجو ـ لاجرانى) عن مذهب القضاء والقدر .
فقال رئيس الرهبان بلهجة مخففة :
ـ هناك لحظات أكاد اندم فيها على مجيء مسيو كيرى الينا .
فرد عليه الأب توماس قائلا :
ـ بل يجب ان نغتبط حقيقة بأية مضايقات يسيرة قد يسببها لنا . اننا لا نحيا هنا حياة متعبة جدا .
ان قطعة الجبن المخفوق بالبيض التى أخذها ظلت كما هى فى صحفته لم يذقها . وقد كور لقمة من الخبز وشغفها فى فمه بالماء كأنها قرص ، وقال :
ـ لا يمكن أن نتوقع من الناس أن يتركونا وشأننا مادام كيرى هنا . المسألة ليست فقط انه رجل مشهور ، بل هو أيضا رجل عميق الوجدان والايمان .
فقال الأب بول :
ـ اننى لم الاحظ هذا . انه لم يحضر القداس هذا الصباح .
اشعل رئيس الرهبان سيجارا آخر ، بينما رد الأب توماس قائلا :
ـ بل انه حضر . بوسعى أن أقول ان عينيه لم تفارقا المذبح . لقد اتخذ مجلسه وراء الطريق بين المرضى . هذا أسلوب طيب فى

حضور القداس مثل الجلوس فى الصف الأمامى وظهر الانسان الى المجدومين ، اليس كذلك ؟

فتح الأب بول فمه للرد ، ولكن رئيس الرهبان استوقفه بغمزة من عينه ، ووضع السيجار على حافة طبقه ثم نهض لترديد صلاة الشكر ، وبعد أن فرغ تناول السيجار مرة اخرى قائلا :

ـ يا اب توماس . أيمكن أن آخذ دقيقة من وقتك ؟

وتقدم الأب توماس الى غرفته واجلسه فى المقعد الوثير الوحيد المخصص للزائرين قرب خزانة الملفات . وكان الأب توماس يراقبه متوترا وقد جلس فى مكانه مستقيما متصلبا مثل افعى كوبرا تراقب نمرا .

قال له رئيس الرهبان :

ـ هل لك فى سيجار يا ابى ؟

ـ انت تعرف اننى لا ادخن .

ـ طبعا . انا آسف . كنت افكر فى شخص آخر . هل مقعدك هذا مريح ؟ اخشى ان تكون زنبركاته قد تخلخلت . من السخف ان تكون لنا مقاعد بزنبركات فى مثل هذه المناطق الاستوائية ، لكن المقعد قدم لنا هدية مع كثير من (الخردة) .

ـ هو مريح جدا . شكرا لك .

ـ انا آسف اذا كنت لا تجد طريقة التلقين الدينى مرضية . ليس من السهل أن نجد المدرس المطلوب بعد أن اصبح عندنا ثلاثة فصول لتعليم الأولاد . يبدو أن الراهبات يعالجن هذه المشكلة افضل منا .

ـ هذا فقط اذا اعتبرت مثرى اكيمبو مدرسة صالحة .

ـ انها تعمل بجد كبير كما علمت من الأم اجنيس .

ـ بالتأكيد ، اذا اعتبرت ان انجابها كل سنة طفلا من زوج جديد هو من العمل بجد . لا أظن انه من الصواب أن يسمح لها بالتدريس وطفلها فى مهده بالفصل . انها حامل مرة اخرى . أى نوع من القدوة هذا ؟

ـ آه . انت تعرف ان لكل بلد عاداته . نحن هنا يا ابى للمساعدة لا للادانة ، ولا اظن انه يمكن تعليم الأخوات اصول العمل . ولابد ان تتذكر ان الأطفال هنا ينتمون الى الأم ، وربما كانوا لهذا السبب يفضلوننا عن البروتستانت .

وتمهل رئيس الرهبان برهة لاختيار كلماته ، ثم اضاف :

ـ دعنى افكر يا ابى . لقد مضى عليك معنا اكثر من سنتين ؟
ـ سنتان فى الشهر القادم .
ـ انت لا تاكل بما فيه الكفاية . ان ذلك الجبن المخفوق بالبيض لم يكن سائغا تماما ...
ـ لا اعتراض لى على الجبن المخفوق بالبيض . لقد تصادف اننى صائم لقصد خاص .
ـ بالطبع بموافقة الكاهن الذى يتلقى اعترافك .
ـ لم يكن هذا لازما من اجل صيام يوم واحد يا ابى .
ـ كان يوم الجبن المخفوق بالبيض اذن يوما مناسبا تختاره لهذا الغرض ، لكنك تعرف ان الطقس هنا صعب جدا على الاوربيين ، خصوصا فى البداية . وفى الوقت الذى تنتهى فيه مدة بقائنا هنا لست سنوات ، نصبح وقد تعودناه ، اننى احيانا اجزع من العودة الى بلادنا . وفى السنوات الاولى ، لا لزوم لكى يتحامل الانسان على نفسه :
ـ لا اشعر اننى اتحامل على نفسى بغير موجب يا ابى .
ـ ان واجبنا الاول ، كما تعرف ، هو ان نستمر فى البقاء ، حتى لو كان معنى هذا ان ناخذ الامور ببساطة اكثر . عندك يا ابى قدر كبير من روح التضحية بالذات . انها صفة رائعة ، لكنها ليست دائما هى مايلزم فى ميدان المعركة . ان الجندى الصالح لا يسعى الى الموت .
ـ اننى لا اعهد فى نفسى ان ...
ـ اننا كلنا لدينا احيانا شعور بالاحباط . فى حالة مارى اكيمبو المسكينة ، لا مفر لنا ان نتقبل ماهو متاح لنا على علاته . ولست واثقا اننى سأجد اناسا من معدن افضل من هذا فى بعض ابرشيات ليبج فى بلادنا ، وان خطر لى احيانا انك قد تكون هناك اسعد منك هنا . ان اوساليتنا هذه ليست لكل انسان . واذا شعر اى انسان انه غير منسجم مع وجوده هنا ، فلا يعتبر هزيمة له ان يطلب نقله . هل تنام جيدا يا ابى ؟
ـ اننى انام بما فيه الكفاية .
ـ قد يحسن ان تعرض نفسك على الدكتور كولين لاجراء فحص عام . احيـــانا يكون لقرص الدواء مفعوله العجيب اذا اخذ فى الوقت المناسب .
ـ يا ابى ، لماذا انت متحامل على مسيو كيرى الى هذا الحد ؟

ـ ارجو الا اكون كذلك . انا لا أعرف اننى كما تقول .
ـ اى رجل آخر فى مكانته ـ وهو رجل له شهرة عالمية يا ابى ، حتى وان كان الأب بول لم يسمع عنه ـ يمكن ان يدفن نفسه هنا ، للمساعدة فى اقامة المستشفى ؟
ـ اننى لا افتش عن الدوافع يا اب توماس . واننى اتقبل مايفعله بالامتنان .
ـ اما انا فافتش عن الدوافع . اننى تكلمت مع ديوجراتياس . ياليتنى كنت استطيع ان افعل مافعله كيرى ، اذ خرج الى صميم الغابة ليلا بحثا عن خادم ، لكننى اشك ..
ـ هل تخاف الظلام ؟
ـ لا يخجلنى ان اقول هذا .
ـ اذن فان المسألة كانت تتطلب شجاعة اكثر فى حالتك . لايزال على ان ابحث عما يفزع مسيو كيرى .
ـ حسنا . اليس مافعله عملا بطوليا ؟
ـ آه ، لا . اننى يقلقنى الرجل الذى لايخاف كما يقلقنى الرجل الذى لا قلب له . ان الخوف ينقذنا من اشياء كثيرة وليس معنى هذا بالطبع أن مسيو كيرى ...
ـ هل يبدو الانسان يعوزه القلب اذا قام بجانب تابعه طول الليل ، مصليا من اجله ؟
ـ أعرف أنهم يقولون هذه القصة فى المدينة ، لكن هل صلى فعلا ؟ ليس هذا هو ما ذكره مسيو كيرى للطبيب .
ـ اننى سألت ديوجراتياس فى هذا ، فاجاب بالايجاب .
ـ ربما كان الرد بالايجاب من قبيل المجاملة والتأدب لا اكثر ، كما هى العادة عند الكثيرين . مهما يكن فانى استطيع ان افهم لماذا انت متعلق بكيرى . كلاكما انسان متطرف . لكن من الأفضل فى مجرى حياتنا هذه الا يكون بيننا ابطال ـ ابطال احياء وهو ما اعنيه . علينا ان نكتفى بالقديسين فى نطاق حياتنا .
ـ لعلك لا تقصد انه لا يوجد قديسون احياء ؟
ـ طبعا لا . لكن دعنا لا نعترف بهم قبل ان يعترف بهم مذهبنا . بهذه الكيفية سوف نقى نفوسنا كثيرا من خيبة الأمل .

(٣)

وقف الأب توماس قرب باب غرفته المشبك يحدق من خلال الشبكة السلكية الى طريق مستعمرة الجذام المشجر القليل الاضاءة . ومن

خلفه كان لهيب الشمعة التى أعدها فوق الخوان يرسل ضوءا مصفرا أسفل المصباح الكهربائى العارى ، فبعد خمس دقائق سوف تطفأ كافة الأنوار . وكانت هذه هى اللحظة التى يخشاها . ان الصلوات لم تكد تنجح فى ابراء ظلماته . وقد ايقظت كلمات رئيس الرهبان فى نفسه من جديد حنينه الى أوربا . ان (ليبيج) قد تكون مدينة كريهة وقاسية ، لكن لم تكن تمضى ساعة من ليلها ، دون ان يبصر الانسان اذا رفع ستار نافذته ضوءا يبرق فى جانب الشارع المواجه ، أو ربما عابر سبيل عائدا الى بنيته متأخرا . أما هنا ، فى الساعة العاشرة ، عندما توقف المولدات الكهربائية عن العمل ، فان ذلك يقتضى الانسان ذخيرة من الايمان لكى يطمئن الى أن الغابة لم تزحف على الانسان حتى عتبة غرفته . وأحيانا كان يخيل اليه انه يسمع حفيف الأوراق ترتطم بشبكة الوقاية من البعوض . ثم نظر الى ساعته ــ بقيت اربع دقائق .

لقد اعترف لرئيس الرهبان انه يخاف الظلام . لكن رئيس الرهبان نحى خوفه وكأنه لا وزن له . وشعر بحنين غلاب لكى يكاشف بما يعتمل فى نفسه ، لكن كان مستحيلا ان يكاشف أحدا من أبناء طائفته استحالة مكاشفة الجندى لجندى مثله والاعتراف بجبنه . لم يكن بوسعه أن يقول لرئيس الرهبان : « كل ليلة أبتهل لكيلا أستدعى الى جانب انسان يقضى نحبه فى المستشفى او فى مطبخه ، ولكى لا أضطر الى اضاءة مصباح دراجتى وأسرى بها خلال الظلام » . منذ اسابيع قليلة مات رجل كهل على هذه الصورة ، لكن كان الأب جوزيف هو الذى خرج لكى يجد جثة الميت حيث كان جالسا فى كرسى المركب البالى وقد استقرت فى حجره تعويذة الاله (نزامبى) وحول رقبته ايقونة مقدسة . وقد اضطر الأب الى منحه غفرانا جزئيا فى ضوء مصباح الدراجة لعدم العثور على شمعة عن كثب .

كان يعتقد ان رئيس الرهبان ينقم منه مايبديه من اعجاب بكيرى . وبدا له أن رفاقه يمضون حياتهم فى شواغل يسيرة يتناقشون فيها فى يسر وبساطة ــ مثل أسعار حمامات القدم ، أو عطل يطرأ على المولد الكهربائى ، أو عائق فى انون حرق الآجر ، أما الأشياء التى تقلقه فما كان بوسعه أن يناقشها مع أحد . كان يحسد الرجل المتزوج ، انهائى الذى يجد بين يديه صفيا يفضى اليه بنجواه فى الفراش وفى البيت ، أما الأب توماس فليس له أن يناجى أو يكاشف الا فى حدود الاعتراف . وهكذا كان الأب توماس يهتف

لنفسه صامتا كلما انطفأت الأنوار وتوقف عمل المولدات الكهربائية : « اريد ان اتكلم . اريد ان اتكلم » .

وفيما هو كذلك اذ سمع صوت قادم في الشرفة في الظلام . وقد مرت المخطوطات بحجرة الأب بول ، وكان يمكن ان تمضي عارة بحجرته لولا ان نادى قائلا :

ـ أهذا انت يامسيو كيرى ؟

ـ نعم .

ـ الا تدخل عندى لحظة ؟

فتح كيرى الباب ودخل الى نطاق اشعاع الشمعة اليسير ، وقال :

ـ اننى كنت أشرح لرئيس الرهبان الفرق بين (البيديه) وحمام القدم .

ـ هلا تفضلت بالجلوس ؟ لايمكننى النوم قط مبكرا هكذا ، ونظرى لا يقوى على القراءة فى ضوء الشمعة .

على هذا النحو وفى عبارة واحدة افضى الى كيرى باكثر مما تهيأ له أن يفضى به الى رئيس الرهبان ، اذ كان يعلم أن الرئيس كان يبادر حتما الى اعطائه (بطارية) واذنا بالقراءة الى أطول مدى يحب بعد انطفاء الأنوار، بيد ان مثل هذا الاذن كان حقيقا بأن يسترعى الأنظار.

والتمس كيرى مقعدا ، فلم يكن ثمة اكثر من مقعد واحد ، واخذ الأب توماس يزيح (الناموسية) عن الفراش لكى يجلس .

فقال كيرى :

ـ لماذا لا تأتى الى غرفتى ؟ عندى بعض الويسكى هناك .

فقال الأب توماس :

ـ انا اليوم صائم . ارجو ان تجلس فى المقعد . سأجلس هنا . أرجو أن تكون سعيدا بيننا .

ـ كل انسان كان رقيقا جدا معى .

ـ أنت أول زائر اقام هنا منذ مجيئى .

ـ أهكذا ؟

فقال الأب توماس وهو يضحك ضحكة عصبية .

ـ الانسان بحاجة الى وقت لكى يستقر فى مكان كهذا . لست متأكدا اننى شخصيا وصلت الى درجة الاستقرار .

ـ بوسعى أن أفهم هذا .

قال كيرى هذا الكلام بلهجة آلية لعجزه عن أن يقول كلاما افضل ،

ولكن هذه العبارة المسكنة قد ازدردها الأب توماس كخمر ، وقال :
ـ نعم . انت واسع الفهم . احيانا اظن ان الرجل العلمانى اقدر على الفهم من غيره .
واضاف قائلا :
ـ واحيانا اوفر ايمانا .
فقال كيرى :
ـ مؤكد ان هذا غير صحيح فى حالتى .
فقال الأب توماس وكانما يمن على كيرى بشىء ثمين سيطوقه بدين الى الأبد :
ـ اننى لم اقل هذا لاحد غيرك . اننى عندما انهيت دراستى فى معهد اللاهوت كنت اظن أحيانا انه بالاستشهاد وحده أستطيع بلوغ درجة الخلاص ـ لو امكن ان اموت قبلما افقد كل شىء .
فقال كيرى :
ـ الانسان لايموت هكذا .
ـ اننى كنت اريد ان اذهب الى الشرق الاقصى، لكنهم لم يقبلونى.
فقال كيرى وهو يرسل ردوده على نحو سريع وآلى وكانما يوزع اوراق لعب :
ـ ان عملك هنا لابد أن يكون قيما بالمثل .
ـ فى تعليم الحروف الأبجدية ؟
قال الأب توماس هذا متململا فى مكانه ، فسقطت كلة (الناموسية) على وجهه كخمار عروس او شبكة نحال . ولما نحاها عنه سقطت مرة ثانية وكانه حتى الجماد له من الوعى ما يعرف به اللحظة الملائمة لتعذيبه .
فقال كيرى :
ـ لا بأس . حان الوقت للنوم .
ـ انا آسف . اعرف اننى اؤخرك ، واتعبك .
فقال كيرى :
ـ العفو . وفضلا عن هذا فنومى مضطرب .
ـ اهذا حالك ؟ هو الحر . انا شخصيا لايمكننى أن انام اكثر من ساعات قليلة .
ـ بامكانى ان اعطيك بعض الأقراص .
ـ آه ، لا ، لا . اشكرك . لابد أن اكيف نفسى بطريقة ما . هذا هو المكان الذى جئت اليه بمشيئة الله .

ـ انك تطوعت بالتأكيد ؟
ـ بالطبع ، لكن لو لم تكن مشيئته ...
ـ ربما كانت مشيئته ان تأخذ منوما. دعنى ابحث لك عن قرص.
ـ انما يجدينى اكثر من هذا كثيرا ان اتحدث اليك قليلا . انت تعرف ان الانسان هنا لا يتحدث ـ فى اى شأن له اهميته . ارجو الا اكون معطلا لك عن عملك ؟
ـ لا يمكننى العمل فى ضوء الشمعة .
ـ سأخلى سبيلك حالا .
قال الأب توماس هذا وهو يبتسم ابتسامة وانية ، ثم أخلد الى الصمت مرة اخرى ، ان الغابة قد تكون بسبيلها الى ان تحدق وتطبق عليه ، لكنه ظفر ولو مرة برفيق . اما كيرى فقد جلس ينتظر وقد شبك يديه بين ركبتيه . وطنت بعوضة قرب لهب الشمعة ، وشعر الأب توماس برغبة خطرة للافضاء والمكاشفة تشتد فى عقله وتضغط كضغط شهوة جامحة ، فقال :
ـ لا يمكن ان تفهم الى اى حد يحتاج الانسان الى مايدعم ايمانه بالتحدث الى انسان يؤمن . فقال كيرى :
ـ عندك الآباء . فقال الأب توماس :
ـ انهم يتكلمون فقط عن المولد الكهربائى والمدارس . واحيانا افكر اننى لو بقيت هنا فسأفقد ايمانى تماما . أيمكنك أن تفهم هذا ؟
ـ آه ، نعم ، بامكانى ان افهم هذا . لكن اظن ان الاولى لك ان تتحدث فى هذا مع من يتلقى اعترافك ، لا معى .
ـ ان ديوجراتياس تحدث معك ، أليس كذلك ؟
ـ هو ذاك . قليلا .
ـ انك تحمل الناس على الكلام . ان ريكيه ...
فقال كيرى وهو يتململ فى مقعده الصلب :
ـ معاذ الله . ثم ان ماقد اقوله لك لايمكن ان يساعدك على الاطلاق . يجب أن تصدقنى . انا لست من أهل الايمان .
فقال الأب توماس :
ـ انت من اهل التواضع . لقد لاحظنا جميعا هذا .
ـ لو عرفت مدى كبريائى ...
ـ الكبرياء التى تبنى الكنائس والمستشفيات ليست كبرياء منكرة.
ـ يجب الا تستعين بى يا أبى لدعم ايمانك . سأكون فيه بمثابة الموضع الضعيف . لا اريد ان اقول شيئا يمكن أن يثير فيك قلقا

اكثر ــ لكن لاشيء عندى لك ــ لا شيء . بل لا يمكننى ان اقول حتى اننى كاثوليكى الا اذا كنت فى الجيش او فى السجن .

فقال الأب توماس :

ــ كل منا له شكوكه . وربما كنت اكثر منك .

ــ اننى توقفت منذ زمن طويل عن التشكك . ان كان لابد ان اتكلم بوضوح يا ابى ، قلت لك اننى لا اؤمن بشيء . هــذا اســلوب . استخلصته لنفسى . ولا رغبة لى فى ان احول الآخرين الى مذهبى ، ولا حتى ان اثير قلقهم . اننى فقط اريد ان ابقى فمى مطبقا .

فقال الأب توماس بانفعال :

ــ لا يمكنك ان تتصور كم اجدى حديثك فى نفسى . لا يوجد احد هنا . يمكننى ان اتحدث اليه كما نتحدث الآن . احيــانا يحتاج الانسان حاجة ماسة الى رجل لابس مثل الضعف الذى لابسته .

ــ لكنك اسأت فهمى يا أبى .

ــ الا ترى انك اوتيت خصيصة لم يؤتها غيرك ؟ بل ربما كنت الآن تسلك مسالك قديس .

فقال كيرى مومئا بيديه ايماءة تشف عن الحيرة او الاستنكار :

ــ انت ابعد ماتكون بقولك هذا عن الحقيقة .

فقال الأب توماس :

ــ اننى راقبتك وانت هنا . بوسعى ان احكم على افعال الانسان .

ومال الى الامام نحو كيرى حتى استطاع ان يشم رائحة المستحضر الذى يستعمله الأب توماس ضد لدغ البعوض ، واردف قائلا :

ــ لأول مرة منذ ان جئت الى هذا المكان ، اشعر ان بامكانى ان اكون ذا نفع . اذا شعرت يوما بحاجة الى الاعتراف ، فتذكر دائمــا اننى هنا . فقال كيرى :

ــ ان الاعتراف الوحيد الذى يحتمل ان ادلى به ، سوف يكون امام قاضى التحقيق .

ــ ها ها .

وعقل الأب توماس ضحكته فى الهواء كما لو كانت شيئا محظورا ، وقال :

ــ عن تلك الشكوك التى تساورك . بوســعى ان اؤكد لك اننى اعرفها كذلك . لكن الا يمكننا ان نتداول معا فى الجوانب الفلسفية ... لكى يعين احدنا الآخر ؟

ــ لن ، يعيننى هذا يا أبى . ان اى طالب مبتدىء يمكنه دحضها ،

وعلى اى حال فانا فى غير حاجة الى اى عون . لا اريد ان اكون فظا معك يا ابى ، لكننى شفيت من كل هذا .

ـ اذن لماذا استمد منك احساسا بالايمان اكثر مما استمده من اى احد هنا ؟

ـ لان الايمان ماثل فى خاطرك يا ابى . انك تبحث عن الايمان ، واظنك واحدة . لكننى لا ابحث عن شىء . لا اريد اى شىء من الاشياء التى عرفتها واضعتها . ليس فى نيتى ان اقول شيئا يؤذى شعورك يا ابى . وماكنت اتردد فى مساعدتك لو كان هذا فى طاقتى ومادمت تستشعر الالم لانك ترتاب ، فواضح انك تستشعر الم الايمان ، واننى ارجو لك التوفيق .

ـ انت تفهمنى حق الفهم ، أليس كذلك ؟

قال الاب توماس عبارته تلك ولم يستطع كيرى ان يقالب ابداء اليأس المكدود الذى انتابه ، بينما استطرد الاب توماس قائلا :

ـ لا تسخط منى . ربما كنت اعرفك افضل مما تعرف نفسك . اننى لم اجد هنا مثل هذا القدر من الفهم . وربما استطعنا فى ليلة اخرى ان نتحدث مرة أخرى فى مشكلاتنا .

ـ ربما ، لكن ...

ـ وتصلى من اجلى يامسيو كيرى . اننى ساقدر صلواتك .

ـ من قال اننى اصلى ؟

ـ سمعت هذا على لسان ديوجراتياس .

وابتسم الاب توماس ابتسامة متكلفة قائلا :

ـ هناك صلوات داخلية ، صلوات صامتة . بل هناك صلوات لا شعورية اذا صدقت الطوايا . ان خاطرا يتوارد فى نفسك قد يكون كصلاة فى عين الاله . فكر فى بين حين وحين يامسيو كيرى .

ـ بالطبع .

ـ بودى أن اكون معينا لك كما كنت معينا لى .

وتوقف كما لو كان ينتظر رجاء حارا ، ولكن كيرى لم يعد ان رفع يده الى وجهه وازاح عنه الخيوط اللزجة التى تركتها عنكبوت مدلاة بينه وبين الباب . فقال الاب توماس بلهجة كانت كالوعيد :

ـ سوف استسلم للنوم هذه الليلة .

الفصل الثانى

(١)

كان من المقرر أن تصل سفينة الأسقف نحو مرتين فى الشهر ويها اكثر المؤن اللازمة لمستعمرة الجذام ، ولكن كانت تمضى أحيانا أسابيع كثيرة دون ان تصل . وكانوا ينتظرونها بصبر كاره ، فلعل ربان سفينة شركة أوتراكو التى تحمل اليهم البريد يزودهم أيضا بأخبار منافستها الصغيرة ــ فربما أصابها عطب ، أو جنحت لدى طين الشاطىء ، أو اصطدمت دفتها بجذع شجرة ساقط فى النهر فالتوت ، أو اصيب ربانها بالحمى ، أو نقل بقرار من الأسقف أستاذا للغة اليونانية لعدم ايجاد راهن يحل محله .

ثم كان الوقت غسقا عندما سمع سكان مستعمرة الجذام جرس السفينة التى طال تأخيرها عن موعدها المقرر . وقد بلغ الصوت مسامع كولين وكيرى وهما جالسان يحتسيان الشراب مساء فى شرفة الطبيب ، فقال كولين وهو يفرغ بقية كاسه :

ــ اخيرا . ليتهم يكونون جاءوا بجهاز أشعة اكس الجديد .

كانت الزهور البيضاء قد تفتحت مع الشفق على طول الطريق المشجر ، وبدأ اشعال النيران لطهى طعام العشاء ، وأخذ الظلام الرحيم يحل اخيرا ليوارى قبح المشوهين . وقال كيرى مخاطبا كولين :

ــ هل تعرف اننى سعيد هنا ؟

واطبق فمه اثر هذه العبارة ولكنه بعد ان سبق السيف العزل . لقد افلتت منه فى ثنايا هواء الليل البليل كاعتراف لا سبيل الى نقضه .

(٢)

قال كولين لصاحبه وهو يحاوره :

ــ اننى اتذكر اليوم الذى جئتنا فيه . كنت تسير فى هذا الطريق

وقد سألتك الى متى تنوى الاقامة هنا . فقلت ــ هل تتذكر ؟ ــ
لكن كيرى لزم الصمت ، ورأى كولين أنه قد ندم اذا تكلم اطلاقا
واخذت السفينة البيضاء تتهادى حول منعرج النهر ، وتأهب أحد بحارتها لالقاء حبل على الشاطىء . وتجمع الآباء بأرديتهم الكهنوتية البيضاء فوق الشرفة كأنهم فراش ، وعندما نظر كولين خلفه رأى وهج سيجار رئيس الرهبان وهو يتبعهم فى الطريق الى مرسى السفينة .

وتوقف كولين وكيرى عند أعلى الشاطىء المنحدر ريثما شد حول السفينة الى اليابسة ومدت اليها (سقالة) ، فقال كولين :

ــ هذا هو العالم الخارجى الكبير يصل الينا .

ــ ماذا تعنى ؟

ولوح الربان بيده من نافذة « الصالون » . وشوهد باب قمرة السفينة فوق السطح الضيق مغلقا ، ولكن كان ضوء يسير ينبعث من خلال « الناموسية » . وقال كولين مرة اخرى :

ــ انت لا تعرف قط ماذا قد تأتينا به السفينة ؟ وعلى اى حال فانها اتت بك انت .

فقال كيرى :

ــ يبدو أن فيها أحد المسافرين .

ولوح لهما الربان بيده من النافذة يدعوهما للصعود الى سطح السفينة ، وفى هذه اللحظة انضم اليهما رئيس الرهبان وصاح بأعلى صوته :

ــ لقد تأخرت ياكابتن !

فوضع الربان اصبعه على شفتيه حتى قال رئيس الرهبان :

ــ ياالهى ! هل أقل الأسقف فى سفينته ؟

وتقدمهما الى « السقالة »،فقال كولين لصاحبه وقد آنس تردده :

ــ أنت أولا . سوف تتناول كأسا من الجعة ، كما هى العادة .

ولما لم يتحرك كيرى اضاف رئيس الرهبان قائلا وهو يضع يده تحت ذراع كيرى لمساعدته :

ــ ان الربان سوف يسر برؤيتك مرة ثانية .

فقال كيرى وهما يتقدمان الى السلم الحديدى المجاور لآلات السفينة :

ــ ما الذى قلته عن العالم الخارجى ؟ لعلك لا تظن فعلا أن ..؟ ،

وأمسك عن اتمام عبارته وعيناه متجهتان الى « القمرة » التى

سفلها من قبل ، حيث كان لهب الشمعة يتراقص فيها فى تيار هواء النهر . فقال كولين :

ـ كنت أمزح . اننى أسألك ـ هل يبدو فى هذا شيء من مظاهر العالم الخارجى بمعناه المعهود ؟

وعندما وصلا الى قمة السلم حياهما الربان مرحبا ، قائلا :

ـ انت لا تزال هنا ياكيرى . يسرنى ان أراك مرة ثانية .

كان يتكلم بصوت خافت وكأنما يفضى بشيء خاص . وكان الشراب معدا فى (الصالون) ، فأغلق الربان بابه ورفع صوته لأول مرة قائلا:

ـ اشرب بسرعة يا دكتور كولين . عندى مريض لك .

ـ أحد البحارة ؟

ـ لا . مسافر حقيقى . لم يكن معى أكثر من مسافرين اثنين فى مدى سنتين ، كان أولهما مسيو كيرى ، والآن هـذا الرجل . هو مسافر بالأجر ، لا من عند الآباء .

ـ من هو ؟

فقال الربان مرددا عبارة كولين :

ـ انه قادم من العالم الخارجى الـكبير . كانت مهمتى صعبة ، فهو يتكلم الفلمنكية ، مع قليل من الفرنسية ، وقد زاد هذا من صعوبة المهمة عندنا اصيب بالحمى . كم انا مسرور بوصولى الى هنا اخيرا .

فقال رئيس الرهبان :

ـ لمـاذا جاء ؟

ـ وكيف أعرف ؟

ـ هل هو طبيب ؟

ـ مؤكد انه ليس طبيبا ، والا ما أفزعته حمى بسيطة .

فقال كولين :

ـ ربما كان الأفضل أن أراه حالا . أى لغة يتكلم ؟

ـ الانجليزية . اننى جربت معه اللغة اللاتينية . بل اننى حاولت حتى اليونانية ، لـكن دون جدوى .

فقال كيرى مكررها :

ـ امكانى أن اتـكلم الانجليزية .

فقال كولين :

ـ وكيف حال الحمى ؟

ـ هذا اسوأ يوم فيها . وغدا سوف تنتهى .

ـ ومن اين اركبته ؟
ـ في (لوك) . انه حمل معه خطاب تعريف الى الاسقف ـ من ريكيه كما اظن . انه لم يستطع اللحاق بسفينة اوتراكو .
هبط كولين وكيرى الى (قمرة) السفينة . وعندما فتح كولين الباب ابصرا في الفراش المشعث جسدا عاريا لرجل سمين جدا ، وقد امتلأت طيات عنقه الغليظ بالعرق الذى كان يسيل حول استدارة راسه الى الوسادة .
قال كولين :
ـ اظن انه لابد لنا من نقله الى الشاطىء ، اذا وجدت حجرة مستغنى عنها في مساكن الآباء .
ولاح لهما فوق المنضدة كاميرا من نوع (روليفليكس) وآلة كاتبة من نوع (رمنجتون) كانت بها ورقة استهل الرجل الكتابة عليها. وعندما ادنى كيرى الشمعة قرا عبارة واحدة بالانجليزية هذا نصها : « تمتد الغابة الابدية على الضفتين ساكنة لم تتغير منذ ان جاء ستانلي وبعثته الصغيرة » .
ورفع كولين معصم الرجل وجس نبضه قائلا :
ـ الربان على حق . ان الرجل سوف يشفى بعد ايام قليلة . ان هذا النوم علامة نهاية الحمى .
فقال كيرى :
ـ اذن لماذا لا يتركونه هنا ؟
ـ هل تعرفه ؟
ـ انني لم اره قط من قبل .
فقال كولين :
ـ بدا لى كانك خائف . من الصعب ان تعيده في السفينة ، اذا كان قد دفع اجر السفر الى هنا .
واستيقظ الرجل عندما ترك كولين معصمه وقال بالانجليزية :
ـ هل انت الطبيب ؟
ـ نعم . اسمى الدكتور كولين .
ـ انا باركنسون . هل سأموت ؟
فتولى كيرى الترجمة قائلا :
ـ يسأل ان كان سيموت ؟
فرد كولين قائلا :
ـ سوف تكون بخير في خلال ايام قليلة .

ـ الحر هنا شنيع .
ثم التفت الى كيرى قائلا :
ـ الحمد لله انه يوجد هنا أخيرا من يتكلم الانجليزية .
وادار نظره الى ناحية الآلة الكاتبة واردف :
ـ هنا مقبرة الجنس الأبيض .
فقال له كيرى مصححا بلهجة الجفاء والنفور :
ـ معلوماتك الجغرافية خاطئة . ليست هذه افريقيا الغربية .
ثم ان ستانلى لم يصل الى هنا قط فى رحلته الاستكشافية .
ـ بل وصل . هذا النهر هو نهر الكونغو .
ـ لا . انك تركت نهر الكونغو منذ أسبوع بعد (لوك) .
فقال الرجل بلهجة غامضة :
ـ ان اصحابنا هنـــاك لن يعرفوا الفرق . آه . ان راسى يكاد ينشق !
فقال كيرى للطبيب :
ـ انه يشكو من راسه .
ـ قل له اننا سنعطيه دواء بعد ان ننقله الى الشاطىء . سله ان كان يمكنه أن يمشى حتى مساكن الآباء ؟ ان نقله محمولا شىء رهيب .
فهتف باركنسون :
ـ امشى ! هل تريد أن تقتلنى ؟ سوف تكون هذه قصـــة مثيرة لكل انسان ، الا أنا . باركنسون دفن حيث كان ستانلى . . .
فقال كيرى :
ـ قلت لك ان ستانلى لم يصل حتى هنا قط .
ـ لايهمنى وصل او لم يصل . لماذا تتمسك بهذا ؟ يا للحرارة الفظيعة . كان يجب أن تكون هنا مروحة . اذا كان صـــاحبنا هذا طبيبا ، فلماذا لا يذهب بى الى مستشفى مناسب ؟
فقال كيرى :
ـ اشـــك فى انك تحب المستشفى الذى عندنا . هو مخصص للمجذومين .
ـ اذن فـــابقى حيث انا .
ـ ان السفينة ستعود الى (لوك) غدا .
فقال باركنسون :
ـ لايمكننى أن افهم ما يقوله الطبيب . هل هو طبيب ماهر ؟

هل يمكن ان اطمئن اليه ؟
ـ نعم . هو طبيب ماهر .
ـ لكنهم لا يقولون للمرضى ابدا مابهم . ان ابى مات وهو يظن انه لم يكن عنده سوى قرحة فى الاثنى عشر .
ـ انك لست فى حالة موت . كل ما عندك هو اصابة خفيفة بالملاريا . وقد مررت باسوأ مرحلة . وسيكون أيسر لنا جميعا اذا مشيت معنا الى الشاطىء ، اللهم الا اذا اردت العودة الى (لوك).
فقال باركنسون بلهجة مبهمة :
ـ عندما ابدا مهمة فلابد أن اتمها .
وجفف عرق رقبته باصابعه قائلا :
ـ ان رجلى مثل الزبدة . لابد اننى فقدت كثيرا من وزنى . ان ما اخشاه هو تأثير هذا الاجهاد على القلب .
قال كيرى مخاطبا كولين :
ـ لا فائدة . لابد لنا من نقله .
ـ سأرى ما يمكن عمله .
وتركهما . وعندما صارا وحدهما قال باركنسون :
ـ هل يمكنك استعمال الكاميرا ؟
ـ بالطبع .
ـ مع ضوء (الفلاش) ؟
ـ نعم .
ـ هل تسدى الى معروفا وتلتقط لى بعض الصور وهم يحملوننى الى الشاطىء ؟ اجعل للصورة خلفية شاملة بكل ما يمكنك ـ انت تعرف ما اقصد : صور ابناء المنطقة مجتمعين حولى وعليهم مظاهر القلق والعطف .
ـ ولماذا يقلقون ؟
ـ بامكانك تدبير هذا بسهولة . سوف يكون قلقهم اشد اذا أوقعونى على الأرض !
ـ ولأى غرض تريد هذه الصورة ؟
ـ هى النوع الذى يحبونه . والناس تعتقد ان الصورة شىء لايشك أحد فى صدقه . هل تعرف انه منذ دخولك الى هنا وكلامى معك ، قد شعرت بتحسن ؟ لعنة الله على هذه الملاريا .
ـ لماذا جئت الى هنا ؟
فقال باركنسون :

ـ هل تعرف رجلا يدعى كيرى ؟

بذل الرجل جهدا جهيدا للتحرك الى جانبه . فبدا وجهه الغارق فى العرق فى انعكاس ضوء الشمعة كطريق داسته أقدام كثيرة بعد المطر . وكان كيرى واثقا انه لم يشهد هذا الرجل قط من قبل ، ومع ذلك فقد تذكر قول الدكتور كولين : « ان العالم الكبير الخارجى قد وصل الينا »

سأله : لماذا تريد كيرى ؟

فأجاب باركنسون : ان عملى يتطلب أن اريده . ليست هذه رحلة للنزهة .

فقال كيرى : من أنت ؟

فأدار الرجل وجهه عنه بغير اكتراث ممزوج بالاستياء وأطبق عينيه ، وسرعان ما استسلم للنوم من جديد .

وكان الرجل لايزال نائما عندما حمله من السفينة ستة رجال ملفوفا فى قماش مشمع مثل جثمان ميت يوشكون ان يلقوا به الى الاعماق . وقد تعثروا وهم ينقلونه حتى كاد يسقط من ايديهم لولا ان خف كيرى فى اللحظة الأخيرة وحال دون سقوطه باشتراكه فى حمله الى أن جاء رجل آخر وحل محله ، فسار كيرى خلفهم بجانب الأب توماس الذى قال له :

ـ ما كان يجب أن تفعل هذا . عمل كهذا تهور فى مثل سنك . من يكون هذا الرجل ؟

ـ لا أعرف . شخص غريب .

ولحق بهما رئيس الرهبان قائلا :

ـ لا أعرف أين نؤويه . فلا توجد حجرة خالية .

فقال الأب توماس :

ـ دعه يشاركنى حجرتى . بها مكان يسعنا نحن الاثنين .

قال هذا وهو يضغط على ذراع كيرى الذى كان يتأبطه ، وكأنما أراد أن يقول له : « انا على الأقل قد وعيت درسك فى محبة الغير ومساعدة الناس »

الفصل الثالث

(١)

كان اليوم شـــديد الحر والرطوبة ، وقد تأثر المرضى أيضا بهذه الحالة حتى كان عدد المترددين على المستوصف قليـــلا ، وعندما انصرف الدكتور كولين من المستوصف كان يخامره شيء من التأثم كالذى يخامر جنديا هاربا من ميدان المعركة .

وفى مروره بغرفة كيرى رآه منكبا على لوحـــة الرسم . فتابع مسيره ووصل الى غرفة الأب توماس . وكان الأب قد فعل المثل وانـكفأ عائدا لقلة الاقبال على الدراسة بسبب شدة الحر . وكان باركنسون جالسا على المقعد الوحيـــد فى الحجرة مرتديا بنطلون البيجاما فقط ، وكان الأب توماس يتكلم بانفعال عند دخول الدكتور كولين بلغة انجليزية سقيمة ، وسمع اسم (كيرى) يتردد فى الحديث ، فقال كولين وهو لايـكاد يجد مكانا للوقوف فيما بين السريرين :

ـ هل رأيت يامسيو باركنسون ؟ انك لم تمت . الانســـان لايموت بسبب حمى خفيفة .

فقال باركنسون متجها بالسؤال الى الأب توماس :

ـ ماذا يقول ؟ اننى تعبت من عدم الفهم . ما فائدة (الفزو النورماندى) اذا كنا لا نتكلم الآن لغة واحدة ؟

ـ لمـاذا جاء الى هنا يا أب توماس ؟ هل اكتشفت هذا ؟

ـ انه يسألنى أسئلة كثيرة لا حصر لها عن كيرى .

ـ لمـاذا ؟ ما شأنه به ؟

ـ قال لى انه جاء الى هنا خصيصا للتحدث معه .

ـ اذن فقد كان يحسن صنعا لو انه عاد بنفس البـــاخرة لان كيرى لن يتـكلم .

فقال باركنسون : كيرى ، نعم كيرى . من الغباوة أن يتظـــاهر بالاختفاء . لا يوجد فعلا من يريد الاختفاء من مونتاجو باركنسون .

ـ وماذا قلت له يا ابى ؟
فقال الأب توماس بلهجة المدافع عن نفسه :
ـ لم افعل اكثر من تأكيد ما اضره به ريكيه .
ـ ريكيه ! اذن فقد كان يستمع الى مجموعة اكاذيب .
ـ هل حكاية ديوجراتياس كذب ؟ هل المستشفى الجديد اكذوبة ؟ كل ما ارجو هو ان اكون قد وضعت القصة فى وضعها الصحيح .
كانت الآلة الكاتبة موضوعة فوق منضدة الأب توماس ، والكاميرا معلقة على الحائط ، مثل لصين متجاورين . ونظر الدكتور كولين الى الورقة المكتوبة الماثلة فى الآلة . كان بوسعه ان يقرأ الانجليزية باسهل مما يتكلمها ، فقرأ هذا العنوان : « فاسك النهر العظيم » ، فلم يتمالك ان صوب الى الأب توماس نظرة اتهام قائلا:
ـ هل تعرف عن أى شىء هذه الكتابة ؟
فاجاب الأب توماس : هى قصة كيرى .
ـ هذا كلام فارغ !
نظر كولين مرة اخرى الى الصفحة المكتوبة ، وقرأ هذه العبارة : « هذا هو الاسم الذى اطلقه الناس هنا على قادم غريب جاء الى قلب افريقيا » .
التفت كولين الى باركنسون وقال له بالفرنسية :
ـ من انت ؟
ـ باركنسون . قلت لك هذا قبل الآن .
ثم اضاف مخيب الرجاء :
ـ الا يعنى الاسم شيئا عندك بتاتا ؟
وتابع كولين قراءة الصفحة ، فقرأ ما يلى :
« ثلاثة اسابيع امضيتها بالسفينة للوصول الى هذا المكان المنعزل، وبعد سبعة ايام صرعتنى لدغات ذباب تسى تسى والبعوض. ثم حملونى الى شاطىء فاقد الوعى . وفى حيث شق ستانلى وبعثته الاستكشافية طريقهم مكافحين مناضلين ، تدور معركة كفاح ونضال اخرى ، ضد انتشار مرض الجذام المميت ... وما ان افقت من الحمى حتى وجدتنى مريضا فى مستشفى للجذام ... » .
قال كولين للأب توماس :
ـ لكن هذه اكاذيب .
فقال باركنسون : مم يشكو ؟

ـ يقول ان ما كتبته هنا .. ليس لله حقيقيا .

فقال باركنسون : قل له انه اكثر من حقيقي . هذه صفحة من التاريخ الحديث . ان مقالاتي لابد ان يتذكرها الناس مثل التاريخ. على الاقل من يوم الأحد الى الأحـــد التالي . ان مقال الأحـــد القادم في سلسلة المقالات سيكون بعنوان : «القديس ذو الماضي» .

فقال كولين : هل تفهم كلمة من كل هذا يا أبي ؟

فاعترف الأب توماس قائلا : لست أفهم كثيرا .

ـ هل جاء الى هنا لـكي يثير المتاعب ؟

ـ لا ، لا . لا شيء مثل هذا . الظاهر ان جريدته أوفدته الى القارة لموافاتها بأنباء بعض الأحداث السياسية ، فوصل متأخرا ، وهكذا جاء الى هنا ، خصوصا بعد ان ترامت اليه شـــائعات عن كيري . وقد قال انه لابد له من العودة من رحلته (بشيء) . وعندما وصل الى(لوك) تصادف أن التقى عند الحاكم بمسيو ريكيه .

ـ ما الذي يعرفه عن ماضي كيري ؟ حتى نحن ...

كان باركنسون يتابع المناقشة عن كثب ، وعيناه تتنقلان من وجه الى الوجه الآخر . ولابد أن كلمة من هنا وكلمة من هنـــاك كانت تعطيه معنى خاصا ، مما جعله يستخلص لنفسه نتائج سريعة خاطئة.

وقال الأب توماس ردا على السؤال :

ـ الظاهر ان جريدته الانجليزية عنـــدها ما يسمونه (مجموعة مراجع) . ولم يكن عليه سوى الابراق الى الجريدة ، فتبعث اليه بملخص شامل لـكل ما نشر عن كيري .

ـ هذا اشبه بالتعقب البوليسي .

ـ آه . انا مقتنع بانهم لن يجدوا شيئا ماسا به .

وقال باركنسون محزونا :

ـ الم يسمع أحدكما اسمي : مونتاجو باركنسون ؟ من المؤكد انه اسم بارز بدرجة كافية .

كان من المستحيل أن يتبين أحد ان كان يضحك من نفســـه بهذا القول .

وقال كولين للأب توماس :

ـ هل يعرف كيري كل هـــذا ؟

ـ ليس بعد .

ـ لقد بدأ يصبح سعيدا هنا .

فقال الأب توماس : يجب الا تتعجل . هناك جانب آخر لـــكل

هذا . ان مستعمرة الجذام هنا قد تصبح شهيرة ، مثل مستشفى شفايتزر ، وقد تنهال علينا التبرعات .

ولعل اســـم شفايتزر مكن باركنسون أن يتعلق بالمعنى الذى يقصده الأب توماس ، اذ سارع يقول :

ـ ان مقالاتى تنشر باتفاقات خاصة فى الولايات المتحدة وفرنسا والمانيا واليابان وامريكا الجنوبية . لا أحد بين الصحفيين الأحياء ..

فقال كولين :

ـ اننا دبرنا أمورنا حتى الآن بغير نشر يا أبى .

ـ ان النشر ليس الا مرادفا للدعاية . وهناك كليـــة لذلك فى روما . وانا شخصيا مقتنع بأن كيرى ...

ـ اننى لم أستطب قط رياضة القنص يا ابى ، وعلى الأخص القنص البشرى .

ـ انت تبالغ يا دكتور . ان خيرا كثيرا قد يأتى من هذا كله . وانت تعرف كم كانت تعوزك الأموال دائما . ولا تستطيع الارسالية ان توفرها لك . ان مرضاك يستحقون أن يكون لهم اعتبار فى هذا .

فقال كولين : ربما كان كيرى ذاته مريضا .

ـ هذا هراء . اننى كنت افكر فى المجذومين ـ انك كنت تحلم دائما بمدرسة للتاهيل ، اذا توافرت لك الاعتمادات المالية . من اجل مرضاك المساكين الذين شفوا بعد ان التهم المرض أطرافهم .

فقال الدكتور كولين : ان كيرى قد يكون مثل هؤلاء .

ونظر الرجل البدين القابع فى المقعد ، واردف قائلا :

ـ اين يمكنه الآن أن يجد علاجه لمداواة جراحه النفسانية ؟ ان تسليط الأضواء ليس أمرا محمودا للمشوهين .

كانت شدة الحر وحدة المناقشة قد انستهما ماحولهما ، وكان باركنسون هو الذى راى وحده الرجل موضوع النقاش واقفا لدى مدخل الحجرة ، فقال باركنسون :

ـ كيف حالك ياكيرى ؟ اننى لم اعرفك عندما قابلتك فى السفينة .

فقال كيرى : ولا عرفتك انا .

فقال باركنسون : الحمد لله انك لم تنته كما انتهت الأحـــداث السياسية التى جئت من اجلها.. اننى لحقت بقصة ممتعة على اى حال . لابد لنا من حديث ، انت وانا .

راح باركنسون يقول : هذا اذن هو المستشفى الجديد . طبعا انا لا أعرف هذه الأشياء ، لكن يبدو لى انه خلو من أى ابتكار .

وانحنى فوق الرسوم الهندسية واضاف قائلا بنية استفزاز ظاهرة:

ـ انه يذكرنى بما نراه فى بلدان الأقاليم عندنا .

فقال كيرى : ليس هذا فنا معماريا . هذه عملية بناء رخيص، لا اكثر . كلما رخصت كانت افضل ، طالما كانت تقاوم الحر والأمطار والرطوبة .

ـ هل يحتاجون الى رجل مثلك لهذا الغرض ؟

ـ نعم . ليس عندهم بناء هنا .

ـ هل تنوى البقاء حتى يتم ؟

ـ سأبقى اكثر من هذا .

ـ اذن فان ما قاله ربكيه لى لابد وان يكون صحيحا الى حد ما.

ـ اننى أشك فى ان يكون أى شىء يقوله هذا الرجل صحيحا .

ـ لابد أن تكون مثلى قديس حتى تدفن نفسك هنا .

ـ لا . لست هذا .

ـ اذن فما أنت ؟ ما هى دوافعك ؟ اننى توصلت الى معرفة الكثير عنك حتى الآن . لقد تزودت بملخصات وافية عنك . انك لست بالضبط الرجل الذى يحب الناس ، باستثناء النساء طبعا .

لم يكن ثمة شك فى ان باركنسون رجل فاسد الطبع . ان الفضيلة قد ماتت منذ امد بعيد فى هذا الجبل من الشحم واللحم. ومن كانت له نحيزته يرحب بالنقائص الانسانية ويهفو اليها . وما من شىء يمكنه ان يضير باركنسون سوى الفشل ، وما كان لشىء أن يخيب امله سوى قيمة شيك مالى .

قال له كيرى :

لقد سمعت ما قاله الطبيب عنى ـ قال اننى احدى الحالات المرضية (المحترقة) . هى حالات المجذومين الذين يفقدون كل شىء يمكن أن (يأكله) المرض قبل شفائهم .

فقال باركنسون وهو يتطلع الى الأصابع التى كانت مستقرة فوق لوحة الرسم :

ـ انت رجل كامل الأطراف كما يستطيع كل انسان أن يرى .

ـ اننى وصلت الى النهاية . ان هذا المكان هو النهاية . كل من النهر والطريق ينتهى الى هنا . وانت ايضا قد وصلت الى

خاتمة المطاف .

ـ آه ، كلا ، اننى جئت الى هنا لغرض معين .

ـ اننى كنت خائفا منك فى السفينة ، لكننى لم اعد اخافك .

ـ لست افهم ما يخيفك . انا رجل مثل سائر الرجال .

فقال كيرى : لا . انت رجل مثلى . والرجال الذين لديهم انبعاث لخدمة المجتمع يختلفون عن سواد الآخرين . اذا خسروا فانهم يخسرون الكثير . اعترف بانه كان لك فى الماضى هذا الانبعاث ، حتى ولو كان مجرد الكتابة ..

ـ ليس لهذا اهمية . معظم الصحفيين يبدأون هكذا .

ـ وينتهون نهايتك ؟

ـ ما الذى ترمى اليه ؟ هل تحاول اهانتى ؟ انا ابعد عن الاهانة يا مستر كيرى .

ـ وما الذى يدعونى الى اهانتك ؟ كلانا من طينة متماثلة . اننى بدأت كمهندس معمارى ، وارانى انتهى كبناء . ليس ثمة ما يبهج . فهل تجد ما يبهج فى مرحلتك النهائية يا باركنسون ؟

ونظر الى الورقة المكتوبة بالآلة الكاتبة التى كان قد اخذها من حجرة الأب توماس وجاء بها معه . فقال باركنسون :

ـ هذا عملى .

ـ بالطبع .

فقال باركنسون : وهو يبقينى حيا .

ـ نعم .

ـ فلا فائدة من قولك اننى مثلك . انا على الأقل استمتع بالحياة .

ـ آه ، نعم . بالملذات الحسية . كالطعام يا باركنسون ؟

ـ اننى اتناوله بقدر ، لزيادة وزنى .

ـ النساء يا باركنسون ؟

ـ لا اعرف لماذا توجه الى هذه الأسئلة . اننى جئت لكى اسألك انت اسئلة صحفية . نعم اننى اعبث قليلا بين وقت وآخر ، لكن هناك وقت يأتى فى حياة كل انسان ...

ـ انت اصغر منى سنا .

ـ ان قلبى ليس فى أوج القوة .

ـ اذن فقد وصلت الى النهاية مثلى ، أليس كذلك يا باركنسون ؟ وهكذا نجد نفسينا متماثلين . حالتان مرضيتان (محترقتان) . لابد ان فى الدنيا حالات كثيرة مثلنا ، بل أكثر . يجدر أن تكون

لنا شارة اخوية نتعرف بها بعضنا على بعض .

ـ انني لست حالة (محترقة) . ان لى عمـــلى . ان أعظم المؤسسات الصحفية ...

بدا انه مصمم على اثبات انه لا يماثل كيرى ، فقال له :

ـ كان هناك حنين فى حياتك ماكنت لتكتب فيه ماكتبت عن ستانلى .

ـ هذا خطأ جغرافى يسير ، لا اكثر . لابد للانسان من اضفاء الطابع الدرامى . هـذا أول شىء يعلمونه للمخبر الصحفى فى مجلة (بوست) ـ عليه أن يجعل كل قصة تقف على ساقين . وعلى أى حال فلن يفطن احد الى هذا .

ـ هل يمكن أن تـكتب الحقيقة الصادقة عنى ؟

ـ هناك قوانين لجرائم النشر .

ـ ما كان لى أن أقاضيك أبدا . هذا وعد منى لك .

وقرأ من الصفحة بصـــــوت عال : « ماضى قديس . ياله من قديس ! »

ـ كيف تجزم بأن ريكيه لم يكن على حق فيما يتعلق بك ؟ لا احد منا يعرف نفسه على حقيقتها فعلا .

ـ لا مفر لنا أن نعرف نفوسنا على حقيقتها اذا اردنا الشفاء . عندما نصل الى درجة الخطورة ، فلا يمكن الخطأ فى تشخيص ذلك . بعد أن تذهب أصابع اليدين ثم القدمين ويثبت من اختبـــارات الجلد أنها سلبية ، فعندئذ لا تكون محل اذى . هل يمكن أن تكتب الحقيقة يا باركنسون حتى لو اخبرتك بها ؟ أنا أعرف انك لن تفعل هـــذا . انت لست حالة (محترقة) رغم كل شىء . انت لازلت موبوءا ناقلا للعدوى .

تطلع باركنسون الى كيرى بنظرات مضعضعة . لم يجد امامه بدا من الاعتراف بأنه وصل الى الحضيض ، فقال :

ـ اذا حاولت فسوف يستغنون عنى . من السهل أن يجازف الانسـان لو كان شابا فى أول الطريق .

ـ ما هو المـاضى الذى خلعته على ؟

ـ حسنا . هناك مسألة آن موريل ، اليس كذلك ؟ ان حكايتها وصلت حتى الى الصحف الانجليزية . وعلى أى حال فقد كانت لك أم انجليزية . وكنت وقتهـــا قد فرغت من اتمام تلك الكنيسة العصرية فى (بروج) .

ـ لم تكن (بروج) . ما هى القصة التى ذكروها عن ذلك ؟

ـ قالوا انها قتلت نفسها بسبب حبها لك . كانت فى الثانية عشرة . من أجل رجل فى الأربعين .

ـ كان ذلك منذ أكثر من خمسة عشر عاما . هل للصحفى تلك الذاكرة القوية ؟

ـ لا . ولكن مجموعة المراجع التى يسمونها (المشرحة) تخدمنا بدلا من الذاكرة . اننى سأشرح فى ابلغ اسلوب صحفى فى طبعة الأحد كيف جئت الى هنا للتكفير عن الماضى ...

ـ ان صحفا مثل صحيفتك تصدر عنها دائما أخطاء صغيرة . ان اسم المراة كان مارى ، لا آن . وكانت فى الخامسة والعشرين ، لا الثانية عشرة . كما انها لم تقتل نفسها بسبب حبها لى . انها ارادت أن تهرب منى . هذا كل ما كان هناك . وهكذا ترى اننى لا اكفر عن شىء كما قلت .

ـ هل ارادت أن تهرب من الرجل الذى احبته ؟

ـ تماما . اننى لم افرط فى حبها . وقد حاولت أن تتركنى مرارا ، وفى كل مرة كنت احملها على العودة . فقد كان يجرح غرورى أن تتركنى امراة .

ـ وكيف كنت تستعيدها اليك ؟

ـ اننا معشر الذين يمارسون فنا واحدا يبرعون عامة فى فن آخر . فالرسام قد يكتب . والشاعر قد يصوغ لحنا . وقد حدث فى تلك الأيام اننى كنت ممثلا بارعا كهاو . فمرة كنت استخدم الدموع . ومرة كنت اتحبب الى امراة اخرى لكى ابين لها ما سوف تخسره ان هى تركتنى . بل اننى اقنعتها فى مناسبة أخرى اننى لا أستطيع أن امارس عملى بدونها .

ـ رغم ذلك فلابد من وجود سبب ما لمجيئك بين المجذومين .

ـ ليس السبب من اجل التكفير عن شىء يا مستر باركنسون . كان هناك نساء كثيرات بعد مارى موريل كما كان هناك نساء قبلها . ولعلى امضيت عشر سنوات وأنا احاول اقناع نفسى باننى احب فعلا . وكان عنصر الوقت فقط هو الذى جعلنى أدرك اننى لم أكن احب اطلاقا بالمعنى الحقيقى . كنت فقط اتقبل الحب . وفى النهاية انتابنى اسوأ الوان الملل . ذلك لأننى لو تركت نفسى انخدع بحب النساء ، فقد خدعتها فى مجال فنى ايضا .

ـ لم يجادل احد فى شهرتك ابدا .

ـ المستقبل هو الذى سوف يتصدى لهذا . قد يكون هناك

الآن فى احـــد الشوارع الخلفية فى بروكسل فتى جالس الى لوحة الرسم سوف يتفوق على ويفضحنى ، وليت العمر يمتد بى حتى ارى الكنيسة التى سوف يشيدها .

ـ اذا كان الملل قد انتابك الى هـــذا الحد ، فلم لا تقضيه بين الراحة والنعيم ؟ فى مسكن وثير فى بروكسل ، او فيللا فى كابرى مثلا ؟ على اى حال انت رجل غنى يا كيرى .

ـ ان الملل فى النعيم أسوأ . لقد خطر لى اننى اذا ابتعـــدت الى هنا فقـــد أجـــد الألم الكافى والخوف الكافى بما يلهينى ويصرفنى عن ...

وتطلع الى باركنسون واردف :

ـ من المؤكد انك تستطيع ان تفهمنى اذا كان الانسان ان يفهمنى.

ـ لا أستطيع ان افهم كلمة واحدة مما تقول .

ـ هل انا مسخ خلقى الى حد انك حتى انت ... ؟

ـ وماذا عن فنك وعملك يا كيرى ؟ مهما كان لك أن تقول ، فلا يمكن أن ينتابك الملل فى عملك . انك كنت عنوانا طنانا للنجاح .

ـ تقصد المـال ؟ لم اقل لك ان العمـــل لم يكن تاما ســويا ؟ ما قيمة اية كنيســة مما شيدت بالمقارنة الى كاتدرائية (شارتر) ؟ كلها حملت اسمى بالطبع ـ وما كان لأحـــد ان يخطىء فن كيرى واسلوبه ، لكن من منا يعرف المهندس المعمارى الذى شيد كنيسة (شارتر) ؟ انه لم يحفل بتخليد اسمه . انه عمل مدفوعا بالحب، لا بالزهو والغرور ـ وبالايمان ايضا فيما اظن . وعندما اكتشفت اننى مجرد من هذه النوازع ، قبلت تـكليفا بتشـــييد دار كبرى للاجتماعات والمناسبات الرسمية ، لـكن وجدتنى لا آؤمن بالسياسة ايضا . من حسن الحظ انك لم تشهد صرحا سخيفا من الخرسانة والزجاج كالذى اقمته فى ميدان تلك المدينة المسكينة . كنت كجســـد بلا روح ولا ايمان. كنت كمن راى خيطا مدلى من سترته ، فجذبه، فبدات السترة كلها تنحل خيوطها ...

ـ لماذا تقول لى كل هذا يا مستر كيرى ـ حتى ولو كان صحيحا ؟

ـ لانك على الأقل شخص لا يجد باسا من معرفة الحقيقة ، وان كنت أشك فيما اذا كنت ستكتبها قط . وربما أســـتطيع اقناعك بنبـــذ ذلك اللغو السخيف الذى يقوله ريكيه عنى وعن صـــلاحى وفداستى . انا لست شفايتزر آخر . يا الهى ! انه يكاد يغرينى بالتطلع الى زوجته . هذا وحده كفيل بأن يغير لهجته عنى .

فقال باركنسون : يالك من شخصية غريبة الأطوار !
ـ لماذا لا تكتب مثل هذا عنى ، بدلا من ذلك اللغو المنمق ؟
ـ لايمكن . ان جريدتى مقروءة بين الأسر ، وان كانت كلمة (الماضى) بالطبع سوف يكون لها معنى خاص . لكن سيكون معناها النزوات والحماقات الماضية ، لا الفضائل المضيعة . سوف نلمس حكاية الآنسة موريل لمسا خفيفا . ثم كانت هناك امراة اخرى ... زوجة جريسون ؟
لم يجب كيرى ، فقال باركنسون :
ـ لا فائدة الآن من الانكار . ان قصة جريسون وزوجته (محنطة) فى (مشرحة) المجلة ايضا .
ـ لن اقول اكثر من هذا . ثق اننى اكرهك كما اكره نفسى . ولم اقل لك ما قلت الا لكى احول دون طول بقائك هنا . ان المقابلة الصحفية بيننا قد انتهت ، ولن تفوز باحسن منها .
فراح باركنسون يقول :
ـ « فى ركنه العارى من كل شىء فى صميم افريقيا ، كشف واحد من اعاظم المهندسين المعماريين المحدثين واحد مشاهير الكاثوليك عن مكنون ضميره لمراسل مجلة « بوست » ، مونتاجو باركنسون ، الذى كان فى ميدان القتال فى كوريا الجنوبية فى الشهر الماضى ، والذى يعود اليوم ليشهد ميدانا آخر ومسرحا مختلفا . سوف يميط اللثام فى سلسلة مقالاته التالية ليبين ان التقدم بسبب الماضى هو القوة الدافعة لكيرى . ان كيرى مثل كثير من ذوى القداسة يكفر عن شبابه اللاهى المستهتر بخدمة الغير .
وأسرع باركنسون الى الخروج غير عابىء بحرارة الشمس المشتدة لكنه شعر انه لم يقل كل شىء ، فعاد والصق وجهه فى (الناموسية) وراح يصب كلماته حامية من خلال الشبكة .
ـ « فى مقال الأحد القادم : فتاة تموت بسبب الحب » .. اعرف اننى لا احبك مثلما انك لا تحبنى يا كيرى ، لكننى سوف ارفعك الى أعلى عليين حتى انهم سيقيمون لك تمثالا بجانب النهر اسوأ تمثال يمكن أن يهديهم اليه ذوقهم . ولن يكون بوسعك أن تتفادى هذا ، لأنك ستكون فى عداد الموتى ، موسلا تحت الثرى ، محوطا بمجذوميك البشعين . ساريك أنه ليس لك أن تستغلنى للتخفيف عن ضميرك المثقل . ولن يدهشنى الا أجد زائرا واحدا يحج الى ضريحك بعد عشرين سنة ، حين يهدأ الغبار ويدون

التاريخ على حقيقته .

وما ان انسحب باركنسون حتى اخرج كيرى من جيبه تلك الرسالة التى كانت بين يديه عندما زاره الدكتور كولين . انها لم ترده من اية امراة ممن ذكرهن باركنسون . ان (مشرحة) مجلة « بوست » لم تكن من السعة بحيث تضم كافة (جثث) الضحايا. وراح يقرأها مرارا على ضوء كلمات باركنسون ، خصوصا تلك الكلمات التى قلت فيها : « هل تتذكر ؟ » . كانت واحدة من اللواتى لا يعترفن قط بأنه عندما تموت العاطفة ، تموت معها ذكرى المناسبة ايضا . لم يكن له الا ان يصدقها بغير حاجة الى برهان ، اذ كانت امراة صادقة الطوية منطوية على الوفاء .

وتقدم الى فراشه وتمدد فوقه . شعر بالحرارة تشتد تحت رأسه فوق الوسادة ، لكنه لم يقو اليوم على مواجهة مجاملات الآباء والغداء معهم . قال فى نفسه : «كان هناك شىء واحد افعله» وهذا سبب كاف لوجودى هنا . اعدك يا مارى ، سواء بتاثير الملل او الغرور ، الا اورط انسانة اخرى فى حب زائف ، افتقارا منى الى الحب الحقيقى » .

لقد ظل سنوات طوالا وهو لا يفكر فى مارى موريل . ولم يتمالك أن تذكر الآن المرة الأولى التى سمع فيها اسمها . سمعه من طالب هندسة معمارية شاب كان يساعده فى دراساته . وكانا قد عادا من يوم عمل فى (بروج) متجهين الى محطة بروكسل حيث مرا بالفتاة وهى تنتظر خارج المحطة الوهاجة الضياء . لقد شعر وقتها فى قرارة نفسه بالحسد عندما راى ابتسامة الفتاة المتهللة للشاب المغمور المتبلد الملامح .

ولكن لم يمض وقت طويل حتى ذهب عنه الحسد بعد أن عرف كيف يغير مسار حاجة امراة الى الحب . انها لم تكن حتى فى سن ذلك الشاب الدارس الذى لعله الآن لايزال على قيد الحياة يبنى تلك المساكن المالوفة التى يقطنها سواد الناس . وفى غمرات الذكريات لم يتمالك كيرى وهو ممدد فى فراشه أن همس مناجيا الشاب : « كم أنا آسف . لم يكن قصدى فى الحقيقة أن أسىء اليك . كنت اظن فى تلك الايام اننى اتصرف بوحى الحب ، لا بدافع الغريزة » .

القسم الخامس

الفصل الأول

لم تمض أيام قلائل حتى ارتحل باركنسون فجأة كما جاء ، حاملا آلة تصويره وآلته الكاتبة ، متجها الى موقع آخر .

وتعاقبت الأسابيع دون ان يجد جديد ، وبدا كيرى ينسى باركنسون . فقد فعل (العالم الخارجى الكبير) أسوأ مايستطيعه وذهب ، وساد لون من السكينة لم يحدث خلالها سوى وفيات قليلة بين المرضى ، وارتفاع مبنى المستشفى بضعة اقدام اخرى . كما بقى ريكيه بعيداً ملازما مصنعه ، ولم ترد من اوربا البعيدة اية صحف بها مقالات تعكر صفو كيرى وتنال من هدوئه . وحتى الأب توماس غادر مستعمرة الجذام لفترة قاصدا الى معهد لاهوت بين الغابات لاستقدام مدرس يتولى التعليم فى أحد الفصول الجديدة.

وظل الدكتور كولين فى نظر كيرى شخصيته الغامضة التى لم يستطع سبر أغوارها . وقد حدث ذات مرة أن ابدى كيرى تعليقا على طبيعة الحياة التى يحياها الطبيب وسط هذه الظروف القاسية ، فما كان من الدكتور كولين الا أن رفع رأسه ونظر اليه تلك النظرة الرصينة التى يرمق بها مرضاه ، قائلا :

ـ ربما لو اننى اختبرت جلدك الآن لوجدت تفاعلا سلبيا مرة ثانية .

ـ ماذا تعنى ؟

ـ اراك تبدى الفضول مرة اخرى بصدد حالة انسان آخر .

فقال كيرى : ومن كان الأول ؟

ـ ديوجراتياس . لعلك تعرف انني كنت أسعد منك حظا فى مهنتى هنا .

ـ اسعد حظا ؟

ـ لابد أن يكون الانسان على قدر عظيم من القوة لكي يجتاز بنجاح عملية تحليل الدوافع والمشاعر . ولا اظن انك كنت قويا بما فيه الكفاية ، مع علمي بانني ما كنت استطيع ان اكون مكانك.

فقال كيرى : ولماذا يختار الانسان رسالة كرسالتك ؟

ـ هى المصادفات التى تختاره لذلك .

ـ وما هى المصادفة التى اختارتك أنت يادكتور كولين ؟

ـ لا اكثر من الاستعداد والطبع الخاص . وارجو الا تخطىء فهم كلامى ، فلا اقصد اننى كقديس يطلب الاستشهاد ويسعى الى الموت طائعا . اننا الآن وقد اصبحنا قادرين على شفاء الجذام اقل تعرضا للهلاك مما كانت مهنتنا من قبل .

وخرج الطبيب معه الى الطريق الموصل الى غرفة كيرى وقال :

ـ لقد كانت نسبة المنتحرين بين أطباء واخصائيى الجذام عالية من قبل ، ولعلهم لم يكونوا قادرين على انتظار نتيجة التحليل الايجابية التى كانوا يتوقعونها فى أشخاصهم . كان اسلوب الانتحار غريبا مثل مهنتهم الغريبة . هناك رجل أعرفه حقن نفسه بجرعة من سم الأفاعى ، وآخر سكب بترولا على اثاثه وملابسه ثم أشعل النار فى نفسه . هناك ظاهرة مشتركة فى كلتا الحالتين ـ وهى مكابدة الألم والعذاب دون ضرورة . ان هذا قد يكون لونا من الانبعاث النفسى ايضا .

ـ لست أفهمك يادكتور .

ـ الا تفضل العذاب على القلق والانزعاج ؟ ان القلق يثير ذواتنا مثل لدغ البعوض . وكلما زاد قلقنا كنا أكثر وعيا بنفوسنا ، ولكن العذاب شىء آخر مختلف تماما . وأحيانا أظن ان البحث عن العذاب وتذكر العذاب هما الوسيلتان الوحيدتان اللتان نستعين بهما لتوثيق صلتنا الانسانية كلها .

فقال كيرى : اذن فأود لو علمتنى كيف اتعذب . انا لا اعرف من العذاب سوى لدغ البعوض .

فقال الدكتور كولين : سوف تستشعر العذاب الكافى وتبلغ درجة المكابدة الحقة اذا صمدنا هنا . سأريك اليوم بعض حالات طريفة لمرضى العيون .

وجلس الدكتور كولين الى منضدة الجراحة وجلس كيرى بجانبه. انه لم يشهد فى حياته الا فى حفلات الكرنفال تلك الأقنعة البشعة التى تطل منها أعين محمرة تنضح بالجشع والحوف ،

والتى رآها الآن ماثلة امامه . ولقد مضى الدكتور كولين يقول له :
ـ كل ما تحتاج اليه الآن هو قليل من الصبر . ان العـذاب لا يصعب وجوده .
فقال كيرى : الا تراك تبالغ حين تتحدث عن العذاب ؟ ان تلك المرأة التى ماتت فى الأسـبوع المـاضى وكانت تجر نفسها جرا . . .
ـ لا تسرف فى الحزن على أولئك الذين يموتون بعد شىء من الالم . ان هذا يجعلهم على استعداد للرحيل . فكر فى كيف يكون تاثير حكم بالموت على النفس اذا كانت مليئة بالصحة والحيوية .
وتحول عنه الدكتور كولين لـكى يكلم مريضة عجوزا كان جفناها المشلولان لا يغمضان ابدا لدفع وهج الشمس عن عينيها .
وفى هذه الليلة بعد ان تناول كيرى طعام العشاء مع الآباء ، سار الهوينا الى بيت الطبيب وهو يشعر لأول مرة بالسكينة تسرى الى نفسه . وبعد ان تناول كأسه الثانية قال للطبيب :
ـ اذا كانت نتيجة اختبار الشريحة سلبية فى مريض الجذام ، فهل تظل هكذا دائما ؟
ـ ليس دائما . انه يكون سابقا لأوانه اخلاء سبيل المريض بين الناس الى أن تصبح الاختبارات سلبية لمدة سـتة أشهر . هناك حالات انتكاس تحدث حتى مع المقاقير الحالية .
ـ وهل يصعب عليهم احيانا أن يخلى سبيلهم ؟
ـ بل كثيرا جدا . فهم يتعلقون بالأكواخ التى يبقون فيها مدة العـلاج وبرقعة الأرض من حولهم ، ثم ان الحياة خارج نطـاق المستعمرة لأصحاب الحالات (المحترقة) لاتكون سهلة . فهم يحملون وصمة الجذام البادية فى تشوهاتهم والناس على استعداد لاعتبـار المجذوم مجذوما على الدوام .
ـ لقد بدأت افهم مهنتك ورسالتك فهما ايسر . ومع ذلك ، فما هى الدوافع التى تحركك وتحفزك الى هذا العمل ؟
فراح الطبيب يقول :
ـ أريد أن اتكلم قليلا عن التغيير والتطور . لو اننى ولـدت مجرد (اميبا) ذات الخلية الواحدة فمن كان يحلم بعصر (الرئيسات) وهى الثدييات التى تشمل الانسان والقرد كما تعرف ؟ ان التطور قد استقر بصفة نهائية فى عقل الانسان ان النملة والسـمكة ، وحتى القرد ، كلها قد وصلت الى اقصى ما يمكن ان تصل اليه . أما فى عقولنا فان التطور يمضى فى طريقـه بسرعة مذهلة . ويكاد

الانسان ينسى كم من عديد مئات الملايين من السنين قد تعاقبت فيما بين عصر (الديناصور) وعصر (الحيوانات الرئيسة) ، ولكننا شهدنا فى عصرنا هذا التغير والانتقال من محرك الديزل الى المحرك النفاث ، والى شطر الذرة ، والى علاج الجذام .

ـ هل هذا التغيير ، الى الأصلح ؟

ـ لا تكران لهذا . اننا نمتطى موجة تطورية عظمى ، وربما كانت العقيدة الدينية تفيد من هذا أيضا . افرض ان الحب قدر له ان يتطور فى أذهاننا بمثل السرعة التى تطورت وتتطور بها المهارة الفنية . ان التأثير فى حالات فردية قد يبلغ هذا المبلغ ، كما فى اصحاب الرسالات الانسانية .

فقال كيرى : أيمكنك ان تجد راحة الفكر فى كل هذا ؟

ـ ان القرن التاسع عشر لم يكن حافلا بالخطأ كما نحب ان نعتقد . ان الشك لم يعترنا فى قيمة التطور والتقدم الا نتيجة لبعض الأشياء الشنيعة التى رأينا الناس يفعلونها خلال الأربعين سنة الماضية . ومع ذلك فانه من خلال التجربة والخطأ اصبحت (الأميبا) فردا . واظن انه حدثت حتى حينذاك بدايات عمياء وتحولات خاطئة . والتطور اليوم يمكنه ان يفرز لنا أشخاصا كهتلر مثلما يفرز اصحاب الرسالات الانسانية والمصلحين ، اذا وجد التربة الصالحة التى تزكو فيها البذرة . انى أريد أن أكون عند جانب التقدم الذى يبقى ويدوم . أنا لست من أصدقاء الزواحف المجنحة المنقرضة .

ـ وهل انت انسان سعيد ؟

ـ اظن اننى كذلك . هذا سؤال لم اسأله لنفسى قط . هل الانسان السعيد يتجه الى نفسه قط بسؤال كهذا ؟ انى امضى فى طريقى يوما بعد يوم .

فقال كيرى بلهجة الحاسد :

ـ وفى طريقك هذا ، الا تحتاج قط الى امراة بجانبك ؟

فأجاب الطبيب : ان المراة الوحيدة التى شعرت بالحاجة اليها ؛ فى عداد الأموات .

ـ اذن فهذا هو سبب مجيئك الى هنا .

فقال كولين :

ـ انت مخطىء . فهى مدفونة هنا على مسافة مائة ياردة فقط. انها زوجتى .

الفصل الثانى

سجلت عملية اقامة المستشفى خلال الثلاثة الأشهر الأخيرة تقدما كبيرا . فقد ارتفعت الجدران ، وتحددت فراغات النوافذ فى انتظار وضع شبكات السلك بها ، بل اصبح من الممكن تقدير الوقت الذى يمكن أن يتم فيه وضع السقف. والواقع ان المجذومين أصبحوا يعملون بطاقة اكثر واسرع كلما تراءت النهاية للعيان . واخذ كيرى يتفقد المبنى مع الأب جوزيف ، مرورا بأبواب لم توجد بعد ، الى حجرات لم تقم هى كذلك ، مفضيين الى مسرح العمليات الجراحية المستقبلة ، والى حجرة الأشعة ، والى المستوصف ، ثم الى العنبرين الرئيسيين .

وقال الأب جوزيف :

ـ ما الذى ستفعله عندما يتم هذا المستشفى ؟

ـ وما الذى ستفعله انت يا أبى ؟

هذا بالطبع موكول الى رئيس الرهبان والى الطبيب لتقدير ما يجب ، لكننى أود ان ابنى مكانا يمكن فيه تعليم المشوهين أن يعملوا ـ أو التأهيل المهنى كما يقولون . من الممكن تعليمهم أسرع وافضل فى فصول دراسية تسودها روح الزمالة والتبسط .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ سوف نحتاج الى مزيد من البناء فى خلال العشرين سنة القادمة ، حتى لو كانت مراحيض .

ـ اذن فسوف يتهيأ دائما مجال لكى اعمل انا ايضا يا ابى .

ـ أن مهندسا معماريا قديرا مثلك نهدر قدره فى نوع العمل الموجود هنا . هذه اعمال بنائين فقط

ـ لقد اصبحت بناء .

ـ الا تريد قط أن ترى أوربا من جديد ؟

فاجاب كيرى :

ـ اننى راض هنا .

وكان الوقت قد حان لموعد الغـــداء ، فعاد الاثنان ادراجهما الى مبنى الارسالية . وفى غمرة انشغالهما بتفقد مبنى المستشفى الجديد لم يسمعا رنين جرس سفينة شركة اوتراكو لدى وصولها وعليها الأب توماس عائدا من سفرته . فقد مرا به واقفا فى مدخل حجرته ، وما ان رآهما حتى قال مرحبا بلهجة لم يسترح اليها الاب جوزيف :

ـ هانت ذا ترى يا اب جوزيف اننى عدت قبل الأوان .

فقال الأب جوزيف : هذا ما اراه فعلا .

ـ أهلا بك يامسيو كيرى . عندى شىء بالغ الأهميـــة سوف اناقشه معك .

ـ خيرا ؟

ـ كل شىء فى وقته ، فصبرا. لقد جدت امور كثيرة فى فترة غيابى

فقال الأب جوزيف : لا تتركنا اذن على جمر الانتظار .

فرد الأب توماس وهو يدلف الى غرفته :

ـ عند الغداء . عند الغداء .

وبدا رئيس الرهبان صـــامتا مشغول البـــال وهم جلوس حول مائدة الغداء . ولم يتكلم الا بعد ان فرغوا من الطعام ، فقال :

ـ ان الأب توماس قد جاءنى برسالة . ان الأسقف يريدنى فى (لوك) . وربما اغيب أسابيع أو حتى شهورا ، واننى اطلب من الأب توماس ان يعمل مكانى اثناء فترة غيابى . انت الوحيد يا اب توماس الذى لديه وقت للاشراف على الحسابات .

كان هذا الـكلام بمثابة اعتذار للآباء الآخرين ، وتأنيبا مستورا لما بدأ الأب توماس يبديه من زهو . وقد رد الأب توماس قائلا :

ـ انت تعرف انه يمكنك أن تثق بى .

ـ اننى أثق بكل واحد هنا . ان عملى هو اقل الأعمال اهمية فى الارسالية . ليس بامكانى ان ابنى مثل الأب جوزيف او اشرف على المولدات الـكهربائية مثل الأخ قبليب .

فقال الأب توماس : سوف احاول الا اجعل المدرسة تتاثر بشىء .

ـ انا متأكد انك ستنجح . سوف تجد ان عملى لن يستغرق الا القليل من وقتك .

والتف الآباء حول رئيسهم مكتئبين اذ لم يعتـــادوا مثل هـــذا

الفراق وقدحدثتهم النفس بانه قد لايعود اليهم نقلا الى موقع آخر.
وعنـــدما سمعوا جرس السفينة يرن اتجهوا الى ضفة النهر ، فقال الأب بول :
ـ عودة سالمة يا ابى . سأنادى الدكتور كولين .
ـ لا ، لا . هذه فترة القيلولة عنده . سوف ينوب عنى مسيو كيرى فى ابلاغه .
وعندما وصلوا الى (السقالة) حمل رئيس الرهبان حقيبة الظهر التى كانت بها كل امتعته ولمس ذراع الأب توماس قائلا :
ـ اظن انك ستجد الحسابات منتظمة . دع حســـابات الشهر القادم الى آخر وقت ممكن ، فربما اعود ...
وتردد برهة قبل أن يضيف بابتسامة مكتئبة :
ـ خذ بالك لنفسك يا أب توماس ولا تتحمس اكثر من اللازم .
ثم حملته السفينة والنهر بعيدا عنهم .
وعاد الأب جوزيف وكيرى الى البيت معا . وقال كيرى :
ـ لماذا اختارالأب توماس؟ انههنا احدثعهدا من اى واحد بينكم.
ـ المسألة كما قال رئيس الرهبان . كل منا له العمل المختص به . واقولهـــا للحقيقة ان الأب توماس هو اقل النـــاس دراية بالحسابات .
وتمدد كيرى فوق فراشه ، اذ كان يستحيل العمل فى فترة الحر المشتد هذه ، وقد اخذته سنة من النوم ، فما استيقظ الا والأب توماس جالس ترب الفراش . وقد قال له :
ـ لم يكن قصدى ايقاظك .
ـ كنت فقط نصف نائم .
فقال الأب توماس : اننى جئتك برسائل من صديق لك .
ـ لا اصدقاء لى فى القارة كلها الا من صاحبتهم هنا .
ـ ان لك اصدقاء اكثرمما تعرف. ان رسالتىمن مسيو ريكيه.
ـ ان ريكيه ليس صديقا لى .
ـ انا اعرف انه متهور بعض الشىء ، لكنه رجل يكن لك اعجابا شديدا . انه يشعر ، من شىء قالته زوجته ، انه ربما كان مخطئا فى التحدث عنك مع الصحفى الانجليزى .
ـ اذن فزوجته أحسن منه ادراكا .
ـ من حسن الحظ ان المسألة كلها انتهت الى خير ، والفضل فى هذا الى مسيو ريكيه .

ـ الى خير ؟
ـ انالصحفى قدكتبعنك وعنا جميعا هنا بأتم وأروع أسلوب.
ـ هكذا فعلا ؟
ـ انه أبرق بأولى مقالاته من (لوك) . وقد سيساعده مسيو ريكيه لدى مكتب البريد والتلغراف . وقد اشترط مسيو ريكيه ان يقرأ المقال اولا ، فانه ما كان يسمح طبعا بنشر أى شيء يسيء الينا . ان الصحفى أورد تقديرا حقيقيا لعملك . وقد تمت ترجمة المقال ونشره أيضا فى مجلة (بارى ديمانش) .
ـ تلك المجلة التافهة !
فقالَ الأب توماس : انها مجلة واسعة الانتشار .
ـ انها مجلة فضائح .
ـ ان نشر المقالَ فيها أدعى الى التصديق وتقدير رسالتك .
ـ لا أدرى ما الذى تتكلم عنه ـ فليست لى رسالة .
وتحول عن نظرات الأب توماس المحدقة المستخبرة مواجها الحائط . ولم يلبث أن سمع حفيف ورق ـ فقد كان الأب توماس يخرج شيئا من جيب ردائه ، وقال :
ـ دعنى أقرأ لك طرفا من المقال . أؤكد لك انك سوف تغتبط كثيرا . ان المقال معنون بهذه الكلمات : « مهندس الأرواح . ناسك المجاهل » .
ـ يالله من لغو مقزز . أقرر لك يا أبى انه لا شيء يكتبه هذا الرجل يمكن أن يثير اهتمامى .
ـ انت فى الواقع شديد القسوة . ولا يؤسفنى فقط الا اننى لم أجد وقتا لاطلاع رئيس الرهبان على المقال . استمع الى الطريقة التى اختتم بها المقال :
« لقد ظل العالم الكاثوليكى بأسره مشغولا بالاختفاء الغريب للمهندس المعمارى العظيم كيرى ـ كيرى الذى امتد مجال انجازاته الكبرى من أحدث كاتدرائية فى الولايات المتحدة ، ذلك الصرح الشامخ من الزجاج والفولاذ ، الى الكنيسة الصغيرة البيضاء للدومينيكان على شاطىء (كوت دازور) » ...
فقال كيرى : ها هو ذا يخلط بينى وبين ذلك الهاوى ماتيس .
ـ لا تلق بالك الى التفصيلات الصغيرة . اسمع ما كتب :
« ان كيرى لم يشاهده أحد منذ فترة طويلة فى المواطن المعتادة

التى كان يرتادها . وقد ذهبت اتعقبه طويلا حتى قلب افريقيا ، الى ان عثرت عليه أخيرا . » .

وهنا رفع الاب توماس نظره وقال :

ـ وهنا أورد باركنسون عنا اشياء كثيرة اشـــادة بالعمل الذى نقوم به ، منوها بانها اعمـــال تنم عن روح التضحية والتفـــانى وانـكار الذات .

ثم تابع القراءة قائلا :

« ترى ما الذى انحاز بكيرى العظيم الى هجر حياة كانت تجلب له التكريم والغنى لـكى يكرس نفسه لخـدمة المنبوذين من العالم ؟ ان الظروف لم تتح لى الفرصة لـكى استقصى منه هـــذا ، فقد وجدتنى فجأة صريع الحمى ، ونقلونى محمولا من سفينته الصغيرة الى الشاطىء الموغل فى قلب القارة . ثم افقت لـكى أجد يد كيرى تتحسس نبضى ، ولـكى أرى عينى كيرى تحدقان فى عينى. وعندئذ تهيأ لى ان انفذ الى اللغز الـكبير » .

لم يتمالك كيرى أن جلس فى فراشه متبرما وقال :

ـ هل يطيب لك حقا هذا اللغو ؟

فأجاب الأب توماس : اننى اقرأ تواريخ حيـاة مصلحين كانت اسوأ من هذا اســلوبا . ليس الأسلوب كل شىء . ان الرجل مشبع بحسن القصد . اسمع بقية الـكلام :

« من شفتى كيرى ذاته أدركت معنى اللغـز . وعلى الرغم من أن كيرى تحدث الى كمـــا لعله لم يتحدث قط الى أحد آخر من بنى الانسان ، مبديا أشد التندم على ماض حافل بكل ضروب الفتنة والبهجة ... » .

وقطع الأب توماس القراءة لـكى يقول :

ـ ليتنى كنت حاضرا عندما كنت تدلى بهـــذا الـكلام . اننى ساترك الفقرة التالية التى ركز فيها بصفة اساسية على المجذومين. يبدو انه لم يسترع نظره سوى حال المشوهين ـ ومن المؤسف أن يكون هذا لانه يعطى انطباعا قائما كئيبا عن حياتنا هنا .

وبهذا أعرب الأب توماس عندما اضطلع بالعمل نيابة عن رئيس الرهبان عن نظرة أكثر تعاطفا مع الارسالية مما كان منه منذ شهر مضى . وقد استمر يقرأ قائلا :

« لقد اتيح لى أن أعرف السر من لسان أوثق صـــديق حميم لـكيرى ، وهو اندريه ريكيه ، مدير احدى مزارع ومعاصر الزيوت.

لقد قال لي مسيو ريكيه بلسانه حرفيا : (هل تريد ان تعرف ما الذي يحرك كيرى ؟ أؤكد لك انه الحب ـ حب شامل مجرد من الانانية ، وبغير حوائل اللون او الطبقة . انني لم اعرف في حياتي رجلا أعمق منه ايمـــانا . لقد اتيح لي أن اجلس الى هذه المنضدة التي نجلس انا وانت الآن حولها الى وقت متأخر من الليل نتناقش في طبيعة الحب القدسي). وعلى هذا النحو تلاقى النصفان الغريبان في حياة كيرى العظيم ـ الى تحدث كيرى عن النساء اللاتي احبهن في عوالم أوربا . والى صديقه المغمور في اقاصي الغابات تحدث عن محبة الله . ان العالم في هذا العصر الذرى لفي حاجة الى اصحاب الرسالات والقداسات » .

لم يتمالك كيرى أن هتف قائلا وقـد ترك الفراش ووقف قرب لوحة الرسم :

ـ يالها من اكاذيب وافتراءات ! انني لن اسمح لهذا الرجل ...

فقال الأب توماس : لا تنس انه صـــحفي ، والمهنة قد تتطلب بعض المبالغة ...

ـ لا اقصد باركنسون ، فهذا عمله . اقصد ريكيه . انني لم اتحدث ابدا الى ريكيه بشيء من هذا .

ـ لقد اخبرني انه جرت مرة مناقشة طريفة بينكما .

ـ ابدا . لم تدر أية مناقشة . اؤكد لك انه كان هو المتكلم وحده طول الوقت .

فنظر الأب توماس الى قصاصة الجريدة وقال :

ـ سوف يتلو هذا مقال ثان . وسيظهر في خلال اسبوع . لقد كتبوا هنا : « الأحد القادم . ماضي قديس . التكفير عن الخطايا بتعذيب النفس . المجذوم الذي تاه في قلب الغابة » . اظن انه يقصد به ديوجراتياس . وفي هذا المقال ايضا صورة للصـــحفي الانجليزي وهو يتحدث مع ريكيه .

ـ اعطني الجريدة .

قال كيرى هذا ومزق القصاصة اربا والقى بها الى الأرض ، ثم أردف :

ـ هل الطريق مفتوح ؟

ـ كان مفتوحا حينما غادرت (لوك) . لماذا ؟

ـ سوف اركب سيارة النقل اذن .

ـ الى اين ؟

ـ ليكون الى كلام مع ريكيه . الا ترى يا ابى انه لابد لى من اسكاته ؟ يجب الا يستمر هذا . اننى ادافع عن حياتى واقاتل عن وجودى .

ـ حياتك ؟

ـ حياتى هنا . هى كل ما املكه .

وجلس فى اعياء فوق الفراش ، ثم قال :

ـ اننى جئت الى هنا من اقصى الأرض . ليس لى مكان آخر اتجه اليه اذا غادرت هذا المكان .

فقال الأب توماس : لكل رجل فاضل مشكلة دائما .

ـ لكننى لست رجلا فاضلا يا ابى . الا يمكن ان تصدقنى ؟ هل لابد ان تحرف كل شىء انت ايضا مثل ريكيه وذلك الرجل ؟ لم يكن لدى دافع طيب عندما جئت الى هنا . اننى أنظر الى نفسى فقط كما فعلت دائما ، لكن من المؤكد انه حتى الرجل الأنانى له الحق فى شىء من السعادة .

فقال الأب توماس :

ـ ان لك موهبة رائعة حقا فى التواضع .

القسم السادس

الفصل الأول

(١)

امسكت مارى ريكيه عن قراءة الكتاب الدينى حالما رات زوجها قد استسلم للنوم ، لكنها اشفقت ان تتحرك لئلا توقظه . ثم كان هناك ايضا احتمال ان يكون متناوما وان يكون هذا شركا لخداعها .

لقد بدا لها انه ما دام مريضا فلا حاجة بها الى الافضاء اليه بالنبأ الخاص الذى يشغل بالها ، اذ ان الانسان غير مطالب ان يفضى بمثل هذا النبأ غير السار الى رجل مريض .

ومع ذلك فانها لم تتردد فى مسح وجهه بمنديل مشرب بماء الكولونيا رقة منها حتى لو جازفت بايقاظه . والواقع انه فتح عينيه قائلا :

ـ كم الساعة الآن ؟ ..

ـ اظن انها حوالى الثالثة .

وغلبه النوم من جديد قبل ان يسمع ردها ، وظلت جالسة بقربه تحاول القراءة ، لكن الكتاب لم يستغرق اهتمامها ، الى ان سمعت الكلاب تنبح فى الفناء ، واستيقظ ريكيه قائلا :

ـ انظرى من القادم . ابعديه من هنا .

سمعت صوت سيارة تقف فى الخارج ، فخفت الى الفناء حيث شاهدت رجلين جالسين فى سيارة نقل صغيرة ، وكان احدهما من الاهالى ، ولكنها لم تستطع ان تتبين وجه الثانى بسبب وهج الشمس المسلطة على الزجاج الامامى ، وان سمعته يقول :

ـ ان مهمتى هنا لن تستغرق الا فترة قصيرة . وسوف نصل الى (لوك) فى العاشرة .

ودنت من باب السيارة ، فرات ان الرجل هو كيرى . وفى الحال تذكرت المشهد المخزى الذى كان منذ اسابيع حينما جرت هاربة الى

مبارتها والدموع فى عينيها . وبعد ذلك أمضت ليلتهـــا فى الطريق مفضلة ان تتعرض للدغ البعوض على ان تواجه رجلا يحتقر زوجها.

قالت الآن لنفسها راضية : « انه جاء من تلقاء نفسه . وما قاله اولا كان مجرد حالة عارضة » .

وارادت أن تدخل وتبلغ زوجهـــا ، لـكنها تذكرت قوله لها : « ابعديه من هنا » .

ولم يلبث كيرى أن نزل من السيارة ، فرات فى رفقته واحدا من المشوهين فى مستعمرة الجذام ، فقالت له :

ــ هل جئت لزيارتنا ؟ ان زوجى سوف يسر كثيرا ...

فقال كيرى : أنا فى طريقى الى (لوك) ، لـكننى اريد ان اقول كلمة لمسيو ريكيه اولا .

كان فى ملامح وجهه شىء ذكرها بزوجها فى لحظات معينة .

فقالت له : انه مريض . ويؤسفنى انك لن تتمكن من رؤيته .

ــ لابد لى من هـــذا . اننى قطعت ثلاثة ايام فى الطريق من مستعمرة الجذام ...

فقالت وهى واقفة قرب باب السيارة : لا مفر ان تخبرنى انا . الا يمكنك ابلاغى رسالتك ؟

ــ لا يمكننى ان اضرب امراة .

لقد روعتها اطباقة فمه المفاجئة وهو يقول هـــذه الـكلمات ، ولعله حاول أن يخففها بابتسامة ، ولكنها جعلت وجهه اكثر تكرا .

قالت : اهذه هى رسالتك ؟

فاجاب كيرى : تقريبا .

ــ أذن يحسن أن تدخل الى البيت .

وسارت عنه ببطء دون أن تنظر خلفها . لقد بدا لها اقرب الى رجل عدوانى مسلح لابد لها ان تخفى عنه خوفها ، وبســتكون فى رحاب البيت اكثر امنا . وعندما اجتـــازت البـــاب خامرها اغراء للهروب الى غرفتها ، تاركة المريض تحت رحمـــة كيرى ، لـكنها تجلدت حين فكرت فيما قد يقوله لها زوجها بعد انصراف القادم ، وهكذا سارت فى الممشى ، حيث الأمان قريب دون ان ترسل أكثر من نظرة يسيرة لتعرف انه يتبعها .

وعندما وصلت الى الشرفة قالت بصوت ربة البيت المضيافة :

ــ هل يمكن أن اكيك بشراب ؟

ــ الوقت مبكر لذلك . هل زوجك مريض فعلا ؟

ـ هو مريض طبعا ، كما قلت لك . ان البعوض ضـــار هنا ، فنحن بقرب المياه . انه لم يواظب على اخذ عقار (البلودرين) المضاد للملاريا ، ولااعرف السبب ، لأنه متقلب المزاج كما تعرف.

ـ اظن ان باركنسون اصيب بالحمى هنا ؟

ـ باركنسون ؟

ـ الصحفى الانجليزى .

فاجابت بنفور : ذلك الرجل . هل لايزال فى المنطقة ؟

ـ لا اعرف . انكم كنتم آخر من قابلهم . بعـــد ان ارســـله زوجك فى اثرى .

ـ يؤسفنى انه ضايقك . اننى لم اقبل ان ارد على اية اسئلة منه .

فراح كيرى يقول : اننى اوضحت لزوجك اننى جئت الى هنا طلبا للوحدة . لـكنه فرض نفسه على فى (لوك) . ثم ارسلك فى رحلة الى مستعمرة الجذام فى اثرى . ثم ارسل باركنسون . واخذ ينشر فى المدينة حكايات خيالية بشعة . والآن هناك مقال الجريدة هذا ، ومقال آخر يتهددنى فى الطريق . اننى جئت لـكى اقول لزوجك ان هذا الاضطهاد لابد ان يتوقف .

ـ اضطهـــــاد ؟

ـ هل عندك تسمية اخرى ؟

ـ انت لا تفهم . ان زوجى قد اهتم كثيرا بمجيئك الى هنا ، وبالعثور عليك . لايوجد هنا اناس كثيرون يمكنه أن يتكلم معهم فيما يهمه ويريحه . انه يشعر بوحدة شديدة .

وكانت تتطلع وهى تقول هذا الى النهر والى المعدية والغابة فى الجانب الآخر ، واضافت قائلة :

ـ انه عندما يتحمس لشىء وينفعـــل به يريد ان يستأثر به . مثل طفل .

ـ لم يكن لى اى اهتمام بالأطفال ابدا . الا يمكن ان تقنعيـــه بالـكف عن الـكلام عنى ؟

ـ لا تأثير لى عليه . انه لا يصغى الى . وعلى اى حال فما الذى يلزمه بهذا ؟

ـ اذا كان يحبك ..

ـ لا اعرف ان كان هـــذا شـــعوره . انه يقول كلاما معناه انه لا يحب سوى الله .

ـ اذن فلابد ان اكلمه شخصيا . ان حمى عارضة لايمكن ان تمنعه من سماع ما جئت اقوله .

ثم اضاف على الأثر : انا غير متاكد من مكان غرفته ، لكن لا توجد غرف كثيرة فى هذا البيت . بامكانى ان اعرفها .

ـ لا . ارجوك . سوف يظن انها غلطتى . وسوف يغضب . ولا اريد اغضابه . عندى خبر اريد ان اقوله له ، ولا يمكننى هذا اذا كان غاضبا . الموقف شنيع بما فيه الكفاية حاليا .

ـ ما هو الشنيع ؟

تطلعت اليه وملامحها تشف عن اليأس . وانبثقت الدموع فى عينيها واخذت تنحدر مختلطة كعرق ، وقالت :

ـ اظن اننى احمل مولودا فى الطريق .

ـ لكننى كنت اظن ان النساء يسرهن عادة ان ...

ـ انه لايريد ولدا . لكنه لا يدعنى اتخذ احتياطاتى .

ـ هل استشرت احد الأطباء ؟

ـ لا . لم أجد حجة للذهاب الى (لوك) ، وليس عندنا سوى سيارة واحدة . ولا اريد ان يرتاب فى شىء . وهو يريد عادة ان يعرف بين وقت وآخر اذا كان كل شىء على ما يرام .

ـ الم يسالك اخيرا ؟

ـ اظن انه نسى انه كان بيننا اى شىء منذ المرة قبل السابقة .

تأثر كيرى برغمه بما بدا له من انكسارها . كانت غضة الشباب وموفورة الملاحة ، ولكن بدا انها لايمكن أن تتصور قط ان الزوج لا يجب أن ينسى هذه الدخائل . وقد قالت وكأن فى هذا تفسير كل شىء :

ـ كان ذلك اثر خطة الحاكم .

ـ هل انت متاكدة ؟

ـ تماما .

فقال لها : اننى انصحك ـ ما اسمك ؟

ـ مارى .

كان اسما عاديا جدا ، لكنه بدا فى سمعه كنذير . بينما قالت له بلهفة :

ـ نعم ؟ تنصحنى بماذا ؟ ..

ـ الا تخبرى زوجك الآن . لابد ان نبحث لك عن حجة لكى

تسافرى الى (لوك) وتستشيرى الطبيب . لكن لا تقلقى نفسك كثيرا . الا تريدين الطفل ؟

ـ وما الفائدة اذا كان هو لا يريد ؟ ..

ـ يمكن أن اصحبك معى الآن ـ اذا امكن أن نبحث لك عن حجة.

ـ اذا كان لأحد أن يقنعه ، فهو انت . انه معجب بك كثيرا .

ـ مطلوب منى احضار بعض الأدوية للدكتور كولين ، مع بعض الهدايا للآباء ايضا احتفاء باقامة سقف المستشفى . لكن لن اتمكن من اعادتك قبل مساء الغد .

فقالت :

ـ آه ، بامكان خادمه أن يعنى به اكثر منى . فهو معه منذ مدة طويلة .

ـ كان قصدى ان اقول انه ربما لا يثق بى ...

ـ ان الأمطار لم تسقط منذ أيام . والطرقات صالحة جدا .

ـ هل اتكلم معه فى هذا اذن ؟ ..

ـ انه لم يكن قصدك من المجىء الى هنا ، اليس كذلك ؟

ـ سأطرق الموضوع بكل مايمكننى من رفق . اننى تأثرت بموقفك.

فقالت : سيكون شيئا ممتعا ـ ان اذهب الى (لوك) وحدى. اقصد معك .

وجففت عينيها بظهر يدها ، ولم تكن خجلة من دموعها اكثر مما يخجل طفل . فقال لها :

ـ ربما يقول لك الطبيب انه لا مبرر لخوفك . اين غرفته ؟ ..

ـ من هذا الباب فى نهاية الممشى . الن تكون خشنا معه ؟ ..

ـ لا .

كان ريكيه جالسا فى الفراش عندما دخل عليه ، وكانت تبدو عليه امارات التذمر ، ولكن سرعان ما انحسر عن وجهه هذا القناع واكتست ملامحه بعلائم الحفاوة والترحاب بزائره ، قائلا :

ـ آه ، كيرى ؟ اكنت انت القادم ؟ ..

ـ انى جننت لرؤيتك فى طريقى الى (لوك) .

ـ جميل منك أن تزورنى وانا فى فراش المرض .

فقال كيرى : اردت أن أراك بشأن ذلك المقال السخيف الذى كتبه الرجل الانجليزى .

فقال ريكيه وعيناه تبرقان بتأثير الحمى أو السرور :

ـ اننى اعطيته للأب توماس لتسليمه اليك . اؤكد انه لم يحدث ابدا من قبل أن بيع فى (لوك) هـذا العدد من مجلة « بارى ـ ديمانش » . ان المكتبة ارسلت تطلب نسخا اضافية . ويقولون انهم طلبوا حجز مائة نسخة من العدد القادم .

ـ الم يخطر لك قط الى اى حد يكون هذا كريها عندى ؟

ـ انا اعرف ان تلك المجلة ليست من المجلات الرفيعة ، ولـكن المقال يحمل ثناء عاطرا . هل تعرف انه اعيد نشره فى ايطاليا ايضا ؟ لقد علمت ان الأسقف تلقى استفسارا من روما .

ـ هلا اصـغيت الى يا ريكيه ؟.. اننى احاول ان اتكلم برفق لانك مريض ، لـكن لابد أن يتوقف هذا كله. ولايعنينى ان يهتموا بى فى اى مكان .

ابتسم ريكيه ابتسامة العارف ، قائلا :

ـ نعم . ان الأب توماس قد اخبرنى الـكثير من هذه الناحية .

ـ اننى جئت الى هنا هربا من حماقة النـاس . فهل تعدنى يا ريكيه أن تتركنى فى سلام ، أم يجب ان اذهب من جديد الى مكان آخر؟ اننى كنت سعيدا قبلما بدأت هذه الحكاية . لقد وجدت انه يمكننى أن اكرس نفسى للعمـل . لقد بدأت اشـعر بالاهتمام ، والاندماج فى شىء ما ...

ـ انها ضريبة العبقرية ان يكون الانسان منتميا الى العالم .

ـ انا لست عبقريا يا ريكيه . انا رجل كانت له موهبة معينة ، موهبة ليست كبيرة ، وقد وصلت الى نهايتها . لم يبق هناك شىء جديد يمكن ان اقوم به . لم يكن امامى سـوى ان اكرر نفسى . وهكذا نفضت يدى . المسألة كلها ظاهرة البساطة . تماما مثلما نفضت يدى من النساء .

ـ لقد اخبرنى باركنسون بما خامرك من الندم ...

ـ اننى لم أشعر قط بأى ندم . ابدا . انتم جميعا تسبغون على هذا طابعا دراميا . فى قدرتنا أن نكف عن الاحساس بصورة طبيعية مثلما نـكف عن العمل .

ـ اننا وجدنا فى شخصك يا كيرى مثالا نحتذيه ، سواء رضيت او لم ترض .

ـ مثال لاى شىء ؟ ..

فاجاب ريكيه : لانـكار الذات والتواضع .

ـ اننى احذرك يا ريكيه ، بأنك ان لم تكف عن نشر هذا الهراء عنى ...

لكنه شعر بعجزه . فقد خانته الكلمات . ولو بادر بضربة لكانت ابسط وافضل ، لكن الضرب فات اوانه وسبق السيف العذل ..

ومضى ريكيه يقول : ان اصحاب القداسة يختارهم الناس بالاجماع. ونحن قد اخترناك يا كيرى. انك لم تعد بعد ملك نفسك. لقد فقدت نفسك عندما صليت مع ذلك المجذوم فى قلب الغابة .

ـ اننى لم اصل . اننى فقط ...

وتوقف .. ما الفائدة ؟ شعر انه مغلوب على امره مع هذا الرجل الغريب . ولم يتذكر الا بعد ان صفق الباب خلفه انه لم يقل شيئا عن مارى ريكيه وعن رحلتها الى (لوك) .

وكانت بالطبع تنتظره بلهفة وصبر عند طرف الممشى الآخر. وود او انه جاء معه بكيس من الحلوى لكى يسرى عنها . وقد قالت له بانفعال :

ـ هل وافق ؟

ـ اننى لم اقل له .

ـ لقد وعدتنى .

ـ اننى غضبت ، ونسيت . انا فى غاية الاسف .

فقالت : سأذهب معك الى (لوك) رغم ذلك .

ـ يحسن الا تفعلى .

ـ هل كنت غاضبا جدا معه ؟ ..

ـ ليس تماما . اننى ابقيت اكثر الغضب لنفسى .

ـ اذن فأنا ذاهبة معك .

وتركته قبل ان يجد وقتا للاعتراض ، ثم عادت بعد لحظات وليس معها اكثر من حقيبة ليلية صغيرة للرحلة .

وعندما وصلا الى مكان سيارة النقل الصغيرة قال لها :

ـ اليس الأفضل أن اعود واكلمه ؟

ـ قد يرفض . فماذا افعل حينئذ ؟

وبعد ان تركا المصنع وراءهما قالت له بأدب :

ـ هل بناء المستشفى يسير على ما يرام ؟

ـ نعم

ـ وكيف حال رئيس الرهبان ؟

ـ انه بعيد فى مهمة .
ـ هل كانت عندكم عاصفة شـديدة يوم السبت المـاضى ؟ كانت هكذا عندنا .
فقال لها :
ـ لا لزوم لـكى تحدثينى .
ـ ان زوجى يقول اننى كثيرة الصمت .
ـ الصمت ليس شيئا سيئا .
ـ هو كذلك عندما تـكون تعيسا .
ـ انا آسف . لقد نسيت ...
ومضت بهم السيارة بضعةكيلومترات دونكلام . وعندئذ سألته:
ـلماذا جئت الى هنا ولم تذهب الى مكان آخر ؟
ـ لأنه مكان بعيد .
ـ هناك اماكن اخرى بعيدة . هناك القطب الجنوبى .
ـ عندماكنت فى المطار لم أجد طائرة متجهة الى القطبالجنوبى.
اضحكها هذا الكلام . كان من السهل اضحاك الصـغار حتى التعساء منهم . واضاف قائلا :
ـ كانت هناك طائرة متجهة الى طوكيو ، ولـكن بدا لى ان هذه المنطقة ابعد كثيرا . ثم اننى لم أكن مشتاقا الى فتيات الجيشا !
ـ هل تعنى انك لم تـكن تعرف فعلا الى أين .. ؟
ـ من مزايا السـفر باشتراك جوى مفتوح هو ان الانسـان لايحتاج الى التفكير فى الوجهة التى يذهب اليها الا فى آخر لحظة.
ـ أليست لك اية عائلة تركتها وراءك ؟
ـ لم تكن لى عائلة . كانت هناك واحدة ، ولـكن كان خيرا لها ان تستغنى عنى .
ـ مسكينة .
ـ آه ، لا . انها لم تفقد شيئا له قيمة . من الصـعب على المرأة ان تعيش مع رجل لا يحبها .
ـ نعم .
ـ هناك دائما لحظات يكف فيهـا الانسـان عن التظاهر بغير شعوره الحقيقى .
ـ نعم .
واخلدا الى الصمت مرة اخرى الى ان بدأ الظـلام يحل حتى اضاء انوار السيارة الامامية . وسطعت الانوار على تمثال لعبـود

خشبى من تلك التماثيل التى تتخلل الغابة ، فشهقت فزعا والتصقت بكتفه قائلة :

ـ اننى ارتعب من تلك الاشياء التى لا أفهمها .

فلف ذراعه حول كتفيها يطمئنها . وبعد ان هدات قالت له :

ـ هل ودعتها ؟

ـ لا .

ـ لكن لابد انها راتك وانت تجمع متاعك .

ـ لا . اننى اسافر خفيفا .

ـ وجئت مبتعدا دون اى شىء .

ـ كان معى موسى حلاقة وفرشاة اسنان وخطاب اعتماد من بنك فى أمريكا .

ـ هل تعنى حقا انك لم تكن تعرف الى اين كنت ذاهبا ؟

ـ لم تكن عندى فكرة . ولهذا لم تكن هناك فائدة من اخذ ملابس . كان الطريق غير معبد ، واضطر ان يمسك عجلة القيادة بكلتا يديه .

قال لها فجاة : كم اود لو اننى لم أقابل زوجك قط . فهو السبب فى لفت الانظار الى وجودى هنا .

ـ وانا اشاركك هذا الاحساس .

ـ من المؤكد ان هذا لم يسبب لك اى ضرر ؟

ـ اقصد ليتنى لم اقابله بتاتا .

وسطعت انوار السيارة على تمثال آخر ، فقالت :

ـ اننى اكره هذا المكان . اريد ان اعود الى دارى .

ـ اننا قطعنا مسافة بعيدة ولا يمكن العودة الآن .

ـ لا اقصد العودة الى منطقة المصنع . وانما اقصد دار اهلى ومسقط راسى .

كان يدرك تماما ما تنتظر منه ان يقول لها تعقيبا ، لكنه ابى ان يتكلم . فقد علمته التجربة ما يمكن ان يعقب بعض كلمات متقاطعة يقولها ، مهما كانت زائفة ورياء . ان التعاسة اشبه بحيوان جائع رابض قرب الطريق فى انتظار اية فريسة .

قال لها : هل لك اصدقاء فى (لوك) تنزلين عندهم ؟

ـ ليس لنا اصدقاء هناك . سأذهب معك الى الفندق .

ـ هل تركت رسالة لزوجك ؟

لا

ـ كان هذا افضل .
ـ وهل تركت رسالة خلفك قبل ان تركب تلك الطائرة ؟
ـ كان هذا شيئا مختلفا . لم يكن فى نيتى ان اعود .
فقالت : هلا اقرضتنى مبلغا لشراء تذكرة للعودة الى دارى ـ اقصد الى اوربا ؟
ـ لا .
ـ كنت اخشى الا تقبل فعلا .
ونامت على الأثر ، وكان هذا قد وضع حدا للمشكلة ، ولم يبق شيء يمكن عمله .
فدار فى خاطره هاجس متهور بهذه الكلمات : « مسكينة . ان هذه المخلوقة صغيرة السن كثيرا الى حد لايمكن أن تصبح معه مصدرا للخطر . فقط عندما يكبرن وينضجن تكون الشفقة معهن غير مأمونة العواقب » .

(٢)

كانت الساعة تناهز الحادية عشرة ليلا قبلما درجت بهم سيارة النقل الى (لوك) بعد الميناء النهرى الصغير ، حيث كانت سفينة الأسقف راسية فى موقعها .
وكانت غرف الفندق الذى نزلا فيه غير مكيفة الهواء وجدرانها لا تصل الى السقف ، حتى كانت كل حركة تسمع من الغرفة المجاورة ، وسرى الى سمع كيرى كل صوت صدر عن الفتاة وهى تتهيأ للنوم . وقد جلس يفكر فيما ينبغى أن يقوله لها لكى يهون عليها اذا أخبرها الطبيب فى الصباح انها حامل . وتذكر عندئذ سهره طول الليل الى جانب ديوجرآتياس . فقد كان الخوف اذن هو الذى راح يدافعه وقتها كذلك .
ولم يلبث أن اخرج زجاجة ويسكى من حقيبته وصب لنفسه كأسا ، ثم بلغ مسمعه صوت غريب من خلال الحائط ـ بدا له كأنما كانت تبكى . فلم يخامره أى رثاء ، بل استياء فقط . فانها فرضت عليه نفسها فرضا وأمست الآن تهدد بافساد نومه . ولم يكن قد خلع ملابسه بعد ، فجمل الزجاجة وطرق بابها .
رأى من فوره انه كان مخطئا . فقد كانت جالسة فى الفراش تقرأ كتابا ، ولابد انها وجدت وقتا لكى تدس الكتاب فى حقيبتها الصغيرة ، فقال لها :
ـ انا آسف . خيل الى اننى سمعتك تبكين .

فقالت : آه ، لا . كنت أضحك . انها رواية مسلية جدا .
رأى انها رواية شعبية تعالج حياة ضابط انجليزى فى باريس .
فقال لها :
ـ اننى جئت معى بهذه احتمالا لاحتياجك الى ما يخفف .
ـ ويسكى ؟ اننى لم أشربه فى حياتى .
ـ يمكنك أن تجربى ، وان كان الأغلب انك لن تحبيه .
وبعد أن ذاقت قليلا منه قال لها :
ـ اظنك لم تحبيه ؟
فقالت : اننى أحب الفكرة ذاتها . ويسكى فى منتصف الليل فى غرفة خاصة بى وحدى .
ـ ان منتصف الليل لم يحن بعد .
ـ انت تعرف قصدى . ثم القراءة فى الفراش أيضا . ان زوجى لا يحب أن أقرأ فى الفراش ، خصوصا كتابا مثل هذا .
ـ وما عيب الكتاب ؟
ـ انه ليس جادا . انه لا يعالج الدين . وطبعا عنده سبب وجيه لهذا التفكير . فاننى لم أتعلم تعليما سليما . ان الراهبات بذلن جهدهن ، لكن التعليم لم يثمر معى .
ـ أنا مسرور لانك لا تشغلين بالك بالغد .
ـ ربما تكون هناك أخبار سارة . اننى أشعر بشىء من الغصص فى معدتى فى هذه اللحظة ، ولا يمكن أن يكون السبب هو الويسكى، أليس كذلك ؟ وربما كان هو (البلوى) المنتظرة !..
هكذا تركت السيدة المهذبة أسلوبها الرقيق وعادت الى الفاظ التسيب فى عنبر البنات . كان من السخف اذن اعتبار مخلوقة (خام) كهذه خطرا على أية صورة .
قال لها : هل كنت سعيدة عندما كنت فى المدرسة ؟
فضمت ركبتيها الى أعلا قائلة : كان ذلك هو النعيم . لماذا لا تجلس ؟
ـ هذا هو أنسب وقت لنومك .
فغيرت موضوع الحديث قائلة :
ـ ماذا تنوى أن تفعل بعد اتمام المستشفى ؟
كان من المستحيل الا يعاملها كطفلة . وكان يعرف ان أمثل أسلوب لمعاملة الصغار هو الاغضاء [illegible]

ـ لابد لك من هذا ـ يوما ما ـ فى اجازة .
ـ ربما غيرى ، وليس انا .
ـ سوف تمرض فى النهاية اذا بقيت .
ـ انا قوى الاحتمال . وعلى اى حال ما الذى يهمنى ؟ اننا جميعا سنصاب عاجلا او آجلا بمرض واحد ، هو الشيخوخة . هل ترين تلك العلامات الرمادية على ظهر يدى ؟ ـ ان امى كانت تقول انها علامات القبر ؟
فقالت باسلوب ناظر مدرسة :
ـ انت كئيب جدا . اننى لا افهمك حقيقة . انا مضطرة للبقاء هنا . لكن يا الهى ، لو كنت حرة مثلك ...
ـ ساحكى لك حكاية .
وصب لنفسه كاسا اخرى كانت ثلاثة اضعاف الكاس الاولى ، فقالت :
ـ هذه كمية مضاعفة . لعلك لست شاربا كبيرا ؟ اما زوجى فهو كذلك .
ـ انا رجل معتدل . ان هذه الكمية ستساعدنى فى حكاية القصة . اننى لم اتعود حكاية القصص . كيف تبدأ عادة ؟
واخذ يشرب ببطء ، قائلا :
ـ يحكى انه كان فى سالف العصر والأوان ...
فقالت : اظن اننى وانت اكبر من الحكايات الخرافية ...
ـ نعم . وهذه الحكاية فى بعض نواحيها مثل ذلك كما سترين . يحكى انه كان هناك صبى ولد عاش فى قلب الريف .
ـ هل كنت انت ذلك الصبى ؟
ـ لا . يجب الا تخلطى الأمثلة . يقولون دائما ان القصصى يختار من تجاربه العامة فى الحياة ، لا من وقائع معينة .
ـ استمر .
ـ كان هذا الصبى يعيش مع ابويه فى مزرعة ـ لم تكن مزرعة كبيرة جدا ، ولكنها كانت من الكبر بحيث تتسع لهم ، واثنين من الخدم ، وستة عمال ، وكلب ، وقط ، وبقرة ... واظن انه كان يوجد خنزير ايضا .
ـ يظهر ان الحكاية مليئة بالشخصيات الكثيرة جدا . سوف يغلبنى النوم اذا حاولت ان اتذكر الشخصيات كلها .
ـ وهذا هو ما احاول ان افعله . وكان والدا الصبى يقولان

له حكايات عن ملك يعيش في مدينة تبعد عنهم مائة ميل ـ مثل المسافة التي تبعد عن أبعد نجم في السماء .

ـ كلام فارغ . ان النجم يبعد بلايين وبلايين من الأميال ...

ـ نعم . ولكن الصبي كان يتصور ان النجم يبعد مائة ميل . فهو لم يكن يعرف شيئا عن السنوات الضوئية . وكانا يقولان له ان هذا الملك وان كان بعيدا الا انه يراقب كل شيء يجري في كل مكان . فاذا ولد خنزير عرف الملك ، واذا احترقت فرشة لدى المصباح عرف الملك ، واذا تزوج رجل وامرأة عرف الملك ايضا ، بل انه كان يسر بذلك ، لأنه اذا جاءهما مولود زادت رعيته ، وهكذا كان يكافئهما ، وان كان احد لايدري المكافأة ، وكثيرا ما كانت المرأة تموت وهي تضع ، والطفل يولد احيانا وهو اعمى او اصم ، ومع ذلك فان احدا لايرى الهواء ، وان كان موجودا طبقا لرأي العارفين . واذا ارتكب انسان مع امرأة اثما عاقبه الملك ، وان كان احد لايرى العقاب . واحيانا يؤجل العقاب الى حين او يؤجل الى نهاية الحياة ، لكن ذلك لم يكن يغير من الأمر شيئا ، لأن الملك كان ملك الموتى ايضا ، ولا يمكن أن يتصور احد مايدخره لهم من أهوال في القبر .

« وشرب الصبي وترعرع . وتزوج زواجا مناسبا وكافأه الملك ، وان كان ابنه الوحيد قد توفي ولم يتقدم هو في مهنته ـ كان يريد دائما أن ينحت تماثيل ، تبلغ في كبرها واهميتها تمثال ابي الهول . وبعد وفاة ابنه تشاجر مع زوجته وعاقبه الملك عن ذلك . وبالطبع لم يكن بوسع احد أن يرى العقاب ولا المكافأة كما قلت . وبمضي الوقت اصبح صائغا مشهورا ، فان واحدة من النساء اللاتي أعجبنه اعطته مالا لاتقان تدريبه ، واستطاع ان يصوغ اشياء جميلة كثيرة مرضاة لحبيبته وللملك بالطبع . وبدأت المكافآت تنهال عليه ، والمال ايضا . ثم ترك زوجته وترك حبيبته ، وترك نساء كثيرات ، بعد أن كانت له معهن وقائع عديدة . كان يسمى هذا حبا وكن يسمينه كذلك هن ايضا ، ولابد انه عوقب عن هذا ، ولكن ما كان لانسان أن يرى العقاب بالطبع .

« ثم زاد غنى ، وصاغ حليا اجمل وابدع ، وزادت النساء افتتانا به ، ولكن المشكلة انه بدأ يمل ويزيد مللا . فما من أحد كان يأبى عليه شيئا او يقول له لا . وما من أحد جعله يتألم او يتعذب ـ كان الآخرون هم الذين يتألمون ويتعذبون . وكان يمكن

احيانا لمجرد التفكير ان يستعذب الاحساس بالم العقاب الذى لابد ان الملك كان ينزله به طول الوقت . وكان بوسعه ان يرتحل الى اى مكان شاء ، وبعد فترة كان يبدو له انه ارتحل الى ابعد من المائة ميل التى تفصله عن الملك ، والى ابعد من النجم الاقصى ، ولكنه اينما ولى وجهه كان يعود دائما الى نفس المكان الذى تحدث فيه نفس الاشياء : مقالات فى الصحف تطرى براعته فى الصيافة ، ونساء يتهافتن عليه من كل طراز ، وحاشية للملك تطنب فى مدح مناقبه وتنعته بانه من المخلصين الاوفياء بين الرعية .

« وبسبب ان الناس لم يكونوا يرون الا المكافأة والتكريم ، ولان العقاب كان خافيا مستترا ، فقد اشتهر صاحبنا بانه رجل صالح . ومن الناس من كان يحيرهم احيانا استمتاع مثل هذا الرجل الصالح بكل اولئك النساء — وهى محاذير تنافى الاخلاص للملك الذى استن شرائع اخرى . لكنهم اعتادوا مع الوقت ان يفسروا هذا بانه طاقة كبرى تتسع لهذا الحب الكبير ، وكانوا ينظرون الى الحب دائما على انه اسمى المناقب . ثم كانت الصدمة الكبرى حين اكتشف ذات يوم انه لم يكن يحب على الاطلاق » .

— وكيف اكتشف هذا ؟

— كان ذلك اول عدة اكتشافات هامة تهيأت له فى ذلك الوقت. هل قلت لك انه كان رجلا ذكيا جدا ، اذكى كثيرا ممن حوله من الناس ؟ كان حتى وهو صبى قد اكتشف لنفسه كنه الملك . فقد كان ابواه يروون عنه قصصا كثيرة تدور كلها حول محبتهم له ، دون ان يتجاوزوا هذا الى ابعد منه . اما هو فقد اقام البرهان على ان الملك موجود ماثل بحكم الادلة التاريخية والمنطقية والفلسفية. وكان ابواه يقولان ان هذا مضيعة للوقت ، لانهم يعرفونه بالفطرة ، وانه ماثل فى قلوبهم رغم كل اساليده وبراهينه .

— اننى لا احب الكلام الرمزى ، ولا احب بطل حكايتك .

— وهو لا يحب نفسه كثيرا ، وهذا هو السبب فى انه لم يتكلم قط من قبل — الا بهذه الطريقة .

— ومتى تصل الى ذروة الحكاية ؟ هل لها نهاية سعيدة ؟ اننى لا اريد ان اظل مستيقظة الا اذا كانت كذلك . لماذا لا تصف لى بعض اولئك النساء ؟

— انت مثل كثير من النقاد . تريدين منى ان اكتب القصة التى تطابق هواك .

ـ هل قرات قصة مانون ليسكو ؟
ـ منذ سنوات بعيدة .
ـ كنا فى الدير نحبها كلنا . طبعا كانت ممنوعة . وكنا نتبادلها يدا ليد ، وقد الصقت على نسختها غلاف كتاب م . لوجين المعروف باسم (تاريخ الحروب الدينية) . وما زالت عندى حتى الآن .
ـ لابد أن تدعينى أكمل حكايتى .
فقالت مستسلمة وهى تستلقى الى الخلف مستندة الى الوسائد:
ـ آه ، لابأس . ان كان لابد من هذا .
ـ أخبرتك عن الاكتشاف الأول الذى تهيأ لبطل حكايتى. أما الثانى فقد جاء بعد ذلك بكثير عندما أدرك انه لم يولد ليكون فنانا على الاطلاق : وانما مجرد صائغ بارع ، فقد صنع حلية ذهبية على شكل بيضة نعام : كانت كلها من المينا والذهب ، واذا فتحها الانسان وجد داخلها تمثالا صغيرا من الذهب جالسا الى منضدة . وعلى المنضدة بيضة صغيرة من الذهب والمينا ، واذا فتح هذه وجد داخلها تمثالا صغيرا جالسا الى منضدة وبيضة صغيرة من الذهب والمينا ، واذا فتح هذه ... لست بحاجة الى استمرار الوصف . كان كل انسان يقول انه صائغ حاذق ، لكنهم أغدقوا عليه أبدع الثناء بسبب جدية مادته ، اذ كان يضع فوق قمة كل بيضة صليبا من ذهب مرصعا بالأحجار الكريمة تمجيدا للملك . وكانت المشكلة انه أضنى نفسه بتصميمه المبتكر. ثم عندما كان يصنع محتويات البيضة الأخيرة مستعينا بعدسة بصرته ـ وهى ما كانوا يسمونه العدسات المكبرة فى قديم الزمان وسالف العصر والأوان الذى حدثت فيه هذه الحكاية ، لأنها بالطبع لا تمت بمشابهة لعصرنا هذا ولا لأى شخصية من الشخصيات المعاصرة ...
واحتسى كبرى جرعة أخرى كبيرة من الويسكى . ولم يعد بوسعه أن يتذكركم طال به الوقت منذ أن انتابه هذا الابتهاج الغريب الذى لايسعه الآن . وقال :
ـ ما الذى كنت أقوله؟ اظن اننى سكرت شيئا ما . ان الويسكى لايؤثر فى عادة بهذه الكيفية .
فأجابه الصوت المشبع بالنوم من تحت الغطاء :
ـ كنت تتكلم عن بيضة .
ـ آه ، نعم . هو الاكتشاف الثانى . فجأة أدرك بطلنا الى اى حد يشعر بالملل ـ اصبح لايريد أن يمد يده من جديد لتركيب

اية حلية جديدة . لقد نفض يده من مهنته ـ وصل الى النهاية . ما كان له ان يصنع شيئا اكثر ابداعا كالذى صنعه حتى الآن ، ولا اكثر عمقا ، ولم يعد يطيق سماع اى اطراء أغلى مما تلقاه من قبل .

ـ واذن فماذا حدث ؟

ـ ذهب الى منزل رقمه ٤٩ فى شارع يسمى شارع دى رمبار حيث كانت عشيقته تستاجر شقة بعد أن هجرت زوجها . وكان اسمها مارى مثل اسمك . فوجد جمعا من الناس خارج المنزل . ووجد الطبيب والبوليس هناك ايضا لانها قتلت نفسها منذساعة.

ـ يا للبشاعة !

ـ لم يكن هذا فى نظره . فمنذ امد طويل كان قد وصل الى نهاية المسرة كما وصل الآن الى نهاية العمل .

هذه حكاية خرافية كريهة جدا .

بهذه الكلمات جاءه صوتها من تحت الغطاء حيث كانت قد جذبت الغطاء فوقها . لكنه لم يعبأ بانتقادها ومضى يقول :

ـ اقول لك انه ليس من السهل ان يترك الانسان مهنته كما لا يسهل ان تترك المراة زوجا . فى كلتا الحالتين يكلمك الناس كثيرا عن الواجب . فقد جاءه الناس يطلبون ان يصنع لهم بيضا تعلوه صلبان (كان هذا واجبه نحو الملك ونحو اتباع الملك) . وبدا من الضجة التى اقاموها كأنه لا يوجد احد غيره يستطيع ان يصنع بيضا او صلبانا . لقد اصبح فى نظر الجميع صائغ الملك . وماكان لشيء ان يغير هذا . وبدا الكتاب يضعون الكتب عن فنه ، وكانت الكتب كلها تقول نفس الشيء ، وعندما قرأ بطلنا كتابا واحدا منها كان كأنه قراها جميعا .

وعندئذ جاءه الصوت من تحت الغطاء يقول :

ـ لماذا تصر على أن تسميه صائغا. انت تعرف تماما انه مهندس معمارى .

ـ اننى حذرتك الا تربطى بين الشخصيات الواقعية وبين حكايتى. ستقولين فى المرة التالية انك تعرفت على نفسك فى شخص مارى الاخرى ، وان كنت لست بحمد الله من النوع الذى يقتل نفسه .

فقالت له : قد تدهش اذا عرفت ما يمكن أن افعله . ان حكايتك ليست بحال مثل قصة مانون ليسكو، ولكنها مثيرة للحزن رغم ذلك .

ـ ان ما لم يعرفه احد من اولئك الناس هو ان بطلنا قد

اكتشف فى نفسه اكتشافا رهيبا . فقد تبخرت كل معتقداته الماضية وافسدها الغرور والنجاح ، واصبح قلبه يخفق فقط بالغرور كلما اتم مبنى ...

ـ قلت (مبنى) ؟

ـ كلما اتم حلية او انتصر على امراة .

وحانت منه التفاتة الى الويسكى فى الزجاجة ، فراى انه لافائدة من الابقاء على القليل الذى بقى بها ، وهكذا افرغه فى كاسه ولم يكلف نفسه عناء اضافة ماء اليه .

واستطرد يقول :

ـ لقد ادرك انه كان يخدع نفسه كما كان يخدع الآخرين . كان يعتقد مخلصا انه عندما يحب عمله فهو يحب الملك ، وانه عندما كان يحب امراة فانه كان على الاقل يقلد بطريقة خاطئة محبة الملك لرعيته.

فقالت الفتاة : اراك بدات تخلط الاشياء خلطا .

ـ ثم ادرك فى النهاية ان كل ما كان يعمله انما كان يعمله حبا لنفسه فقط . فكيف يكون هناك اى جدوى بعد ذلك فى صنع حلى او التعلق بحب امراة من اجل متعته وحده ؟ ان هذا الخواء المطبق الشامل الذى اصبح يعيش فيه قد يكون عقابه على تحطيم النواميس التى اقدم على تحطيمها عامدا . بل من الجائز ان يكون هذا هو ما يسميه الناس بالالم . ان المشكلة كانت معقدة الى حد السخف، وقد بدا يحسد ابويه على بساطتهما وسلامة فطرتهما.

ـ وماذا بعد ذلك ؟

ـ قلت لك انه من الصعب ان يترك الانسان مهنته كما يصعب ان تترك المراة زوجا . فاذا تركت زوجك فامامك الايام والليالى الطويلة التى تلاحقك ، وهناك المكالمات التليفونية التى يعرب بها الاصدقاء عن مشاعرهم الطيبة والنبذات التى تنشرها الصحف . لكن هذا الجانب من الحكاية ليس فيه تشويق حقيقى.

فقالت : وهكذا اخذ صاحبنا اشتراكا مفتوحا للسفر بالطائرات.

نفد الويسكى عن آخره . وبزغ الفجر فجاة فى الاقليم الاستوائى مثل شىء انشق مرة واحدة فى استدارة السماء . فقال لها :

ـ لقد ابقيتك مستيقظة طوال الليل .

ـ ليتك حكيت لى قصة عاطفية . على كل حال فان حكايتك صرفت ذهنى عن اشياء كثيرة .

وتضاحكت تحت الغطاء ، واردفت تقول :

ـ بامكاني ان اقول له اننا امضينا الليل معا . هل تظن انه قد يطلقني ؟ لا اظن . ان الـكنيسة لن تسمح بالطلاق .

ـ هل انت تعسة الى هذا الحد فعلا ؟

لم يجبه رد . ان النوم يلم بالصغار فجاة مثل بزوغ الفجر فى البلدة الاستوائية . ففتح الباب بهدوء وخرج الى الممشى الذى كان لايزال مظلما لايضيئه سوى مصباح ليلى شاحب . وعلى قيد غرف من مكانه سمع صوت باب يقفله نائم متاخر او مستيقظ مبـكر . فجلس فى فراشه والضوء يزداد من حوله .

كانت ساعة الهدوء والصفاء .

ولعله وجد هنا موطنا وحياة .

الفصل الثانى

(١)

خرج كيرى مبكرا لانجاز كثير من المهام التى كلفـــه بها الدكتور كولين قبل ان يشتد الحر . ولم يشاهد اى اثر لمارى ريكيه وقت الافطار ، كما لم يسمع اى صوت من خلال الفاصل بين غرفتيهما. وعرج على الـكاتدرائية فجمع الرسائل التى كانت تنتظر السفينة التالية ، وقد سر اذ لم يجد بينها رسالة موجهة اليه. ان صاحبة الرسالة الأخيرة قد ابدت برسالتها لفتة اخيرة اليه فى مقره المجهول، وكان يرجو فى قرارة نفسه ان تكون لفتتهـــا من قبيـــل الواجب والعرف لا الحب ، وعندئذ لا يؤدى سكوته الى مزيد من جرح شـــــعورها .

وعندما عاد الى الفندق حوالى الظهر وجد فى المشرب رجلا كان هو باركنسون . ولما رآه باركنسون رفع كأسه قائلا :

ـ خذ كأسا على حسابى .

ـ كنت اظن انك ســـــــافرت .

ـ سافرت حتى مدينة ستانلى فيل فقط لمتابعة الأحداث . وبعد ان ارسلت مقالى اجدنى الآن حرا مرة اخرى الى ان يجد جديد .

ـ الى متى ســـــتبقى هنا ؟

ـ الى ان تصلنى برقيـــة من ادارة المجلة . ان قصـــتك لقيت نجاحا . وربما طلبوا منى مقالا ثالثا عنها .

ـ انك لم تستخدم ما زودتك به .

ـ نحن نـكتب للعائلات ايضا .

ـ لن تحصل منى على شىء آخر .

فقال باركنسون : قد تدهش لما يفعله الحظ احيانا بالانسان . ان المقال الأول كان نجاحا ساحقا . لقد نشر فى بلاد عديدة ، ولقى رواجا بين الأمريكيين خاصة لما اشتمل عليه من مزيج بين الدين

ومناهضة الاستعمار . وهناك فقط شيء واحد اسفت له ـ فانك لم تأخذ لى تلك الصـورة الفوتوغرافية وانا محمول الى الشاطىء محموما . وقد استعضت بصورة اخذتها مدام ريكيه . الى اين تذهب ؟

ـ الى غرفتى ...

ـ آه ، نعم . غرفتك رقم ٦ فى نفس الممشى الذى انا فيه ، اليس كذلك ؟

ـ رقم ٧ .

ـ آه ، رقم ٧ . لعلك غير مستاء منى ؟ اؤكد لك اننى لم اكن اعنى تلك الـكلمات الغاضبة التى صدرت منى فى ذلك اليوم . كان المقصود منها حملك على الـكلام .

وفى هذه اللحظة فتح الباب الخارجى حيث الشمس المتقـدة ودخلت مارى ريكيه . فقال باركنسون مبتهجا :

ـ انظر من القـادم ؟

ـ اننى اركبت مدام ريكيه فى سيـارتى من المزرعة .

فقال باركنسون للساقى : كاس اخرى من (الجين) .

فقالت مدام ريكيه بانجليزيتها الملتوية :

ـ لا اشرب (الجين) .

فقال باركنسون : وماذا تشربين ؟ الحقيقة اننى لا اتذكر اننى رايتك مرة وفى يدك كاس . هل تشربين عصير البرتقال يا طفلتى ؟

فقالت مدام ريكيه متفاخرة : انا مغرمة جدا بالويسكى .

ـ احسنت . اراك كبرت بسرعة !

وانتقل بنفسه الى المقصف لطلب الشراب ، وفى هـذه اللحظة سألها كيرى :

ـ هل من جديد ؟ ...

ـ ان الطبيب لايمكنه الجزم بشيء ـ الى بعد غد . وهو يظن ..

ـ نعم .

فقالت باكتئاب : يظن اننى (شبكت) .

وعندئذ عاد اليهما باركنسون بالشراب قائلا :

ـ سمعت ان الرجل العجوز مصاب بالحمى .

ـ نعم .

ـ انا خبير بها . انه محظوظ أن يجد زوجة شابة تمرضه .

ـ انه لا يحتاج الى كممرضة .

ـ هل ستبقين هنا طويلا ؟
ـ لا أعرف . ربما يومان .
ـ هناك فرصة اذن لأكلة معى ؟
فقالت دون تردد : آه ، لا . لا وقت لذلك .
فابتسم بلا مرح . وبعد ان احتوت كاسها قالت لكيرى :
ـ سنتغدى معا ، انت وانا ، اليس كذلك ؟ امهلنى دقيقة لغسل يدى ، وساحضر مفتاحى .
فتطوع باركنسون باحضار المفتاح قبل ان تجد فرصة للاعتراض، وقد حمله اليها قائلا :
ـ رقم ٦ . نحن الثلاثة فى طابق واحد .
فقال كيرى : ساصعد معك .
وما كادت تدخل غرفتها حتى عادت الى كيرى مسرعة وقالت :
ـ هل يمكن أن ادخل عندك ؟ ان غرفتى فى حالة شنيعة ، فقد استيقظت متأخرة ولم يرتبوا الفراش بعد .
ومسحت وجهها بمنشفة ، ثم نظرت مستاءة الى الآثار التى خلفتها المساحيق فى المنشفة ، قائلة :
ـ انا آسفة . لم اقصد ان اتسبب فى هذه الفوضى .
ـ لا يهم .
ـ النساء مقززات ، اليس كذلك ؟
ـ بعد عمر طويل ، لم اجدهن كذلك .
ـ انظر الى الورطة التى تسببت لك فيها . أمامنا اربع وعشرون اخرى فى هذا المازق .
ـ الا يمكن أن يكتب اليك الطبيب بالنتيجة ؟
ـ لا يمكن ان اعود قبل ان اعرف . ان كانت النتيجة نعم فلابد ان اخبر زوجى فى الحال . وعلى اى حال فان هذا كان هو المبرر لرحلتى .
ـ وان كانت النتيجة (لا) ؟
ـ ساكون سعيدة جدا الى درجة لا يهمنى معها اى شىء . بل ربما لا اعود اليه .
ـ اليست عندك اية رغبة بتاتا فى طفل ؟
ـ ريكيه اصغر ؟ لا .
واخذت المشط من فرشاته ودسته فى شعرها دون ان تنظر فيه ، قائلة :

ـ لعلى لم اضغط عليك لتناول الغداء معك ؟ الم تكن تنوى الغداء مع احد آخر ؟

ـ لا .

ـ الحقيقة هى أننى لا أطيق ذلك المدعو باركنسون . لكن كان من المستحيل الابتعاد عنه فى (لوك) . فلم يكن فى البلدة أكثر من مطعمين ، واختار ثلاثتهم نفس المطعم . وكانوا هم كل رواده. وكان يراقبهما وهو يزدرد طعامه من مائدته المجاورة للبـــاب وقد علق الـكاميرا على المقعد المجاور له .

وقالت مارى ريكيه وهى تتناول كمية ثانية من البطاطس :

ـ لا تقل اننى أتناول طعام اثنين .

ـ لن اقول .

ـ هذه هى النكتة التى يقولونها هنا عن المريض بالديدان .

ـ كيف حال المغص المعوى ؟

ـ ذهب بكل أســـف . كان من رأى الطبيب انه لا علاقة له بموضوع الحمل .

ـ الا يحسن ان تتصلى بزوجك تليفونيا ؟ من المؤكد انه ســـوف يقلق اذا لم تعودى اليوم .

ـ يحتمل ان تكون الخطوط التليفونية معطلة هى كذلك عادة .

ولـكنها راجعت نفسها بعد تناول الحلوى ، قائلة :

ـ اظنك على حق . ساتـكلم بالتليفون .

وتركته وحده يشرب القهوة .

وناداه باركنسون من مكانه قائلا :

ـ البريد لم يصل بعد . كنت أنتظر نسخة من مقالى الثانى . ساتركها فى غرفتك اذا جاءت . اهى رقم ٦ ام ٧ ؟ لا فائدة اذا اخطات الغرفة .

ـ لا تشغل بالك .

ـ انت مدين لى بصـــورة فوتوغرافيـــة . ربما تتكرم بها مع مدام ريكيه .

ـ لن تحصل على صورة منى يا باركنسون .

ودفع كيرى الحساب وذهب الى مكان التليفون ، فوجده على مكتب امرأة زرقاء الشعر والنظارات ، تدون الحسابات بقلم برتقالى. فقالت له مدام ريكيه :

ـ التليفون يدق . لـكنه لا يرد .

ـ ارجو الا تكون الحمى قد اشتدت .
ـ ربما خرج الى المصنع .
ووضعت سماعة التليفون قائلة :
ـ اننى بذلت جهـــدى ، اليس كذلك ؟
ـ يمكنك أن تحاولى مرة ثانية هذا المساء قبل أن نتناول العشاء .
ـ انت مقيد بى ، اليس كذلك ؟
ـ لا انت ولا أنا كذلك .
ـ اليست عندك حكايات اخرى تقولها ؟
ـ لا . لا أعرف الا حكاية واحدة .
فقالت : الوقت ثقيل حتى الغد . لا أعرف ماذا افعـــل الى ان أعرف نتيجة الفحص الطبى .
ـ استريحى فترة .
ـ لايمكننى . ما رأيك اذا ذهبت الى الـكاتدرائية وصليت ؟
ـ كما تحبين .
ـ هل يغير هذا من النتيجة ؟
ـ لا تنتظرى منى أن اتكلم فى هذه المسائل .
ـ بامكانى أن ادعو لنفسي بالسعادة .
ـ ممكن
ـ واظن ان هذا الدعاء سوف يشمل كل شيء .

(٢)

وجد كيرى ايضا الوقت ثقيلا بطيئا . وبعد جولة فى البلدة على غير هدف عاد الى الفندق ليجد باركنسون فى القصف وعيناه على الباب . وما أن رآه حتى تقدم اليه على أطراف اصابعه وقال له وهو يبتسم ابتسامة ماكرة تنبىء فى نفس الوقت عن شيء هام ملح :
ـ لابد لى من كلمة هادئة معك قبل أن تصعد الى غرفتك .
ـ عن اى شيء ؟
فاجاب باركنسون : عن الموقف العام . هناك عاصفة فى الأفق . هل تعرف من هناك فوق ؟
ـ تبدو عليك اللهفة للـكلام . تـكلم .
فقال باركنسون بصوت غليظ : الزوج .
ـ اى زوج ؟
ـ ريكيه . انه يبحث عن زوجته .
ـ اظن انه سوف يجدها فى الـكاتدرائية .

ـ المسألة ليست بهذه البساطة . انه يعرف انك معها .
ـ طبعا يعرف . اننى كنت فى بيته امس .
ـ ومع ذلك لا اظن انه كان يتوقع ان يجدكما هنـــا فى غرفتين متجاورتين .
فقال كيرى : تفكيرك مثل تفكير كتاب القيل والقال . ما الفرق اذا تجاورت الغرف ؟ بالامكان التلاقى حتى لو كانت الغرفتـــان فى مكانين متباعدين .
ـ لا تستهين بكتاب مقالات القيل والقال . انهم يكتبون للتاريخ.
ـ لا اظن ان التاريخ سوف يعنيه شىء من ريكيه وزوجتـــه .
وتقدم الى المكتب وقال للمرأة :
ـ اريد حسابى من فضلك . سأغادر الفندق الآن .
فقال باركنسون : اتهرب ؟
ـ ولم الهروب ؟ اننى كنت باقيا فقط لكى اعيدها بسيارتى كما جئت بها . اما الآن فاننى اتركها لزوجها ، فهو المسئول عنها .
فقال باركنسون : انت شيطان كبير . لقد بدأت اصدق بعض الأشياء التى قلتها لى .
ـ انشرها بدلا من هرائك الأخلاقى السخيف . ربما يكون من المشوق ان تقول الحقيقة مرة .
ـ مهما يكن فان ما كتبته عنك حقيقى .
ـ لا .
ـ لقد دفنت نفسك هنا ، اليس كذلك ؟ وانت تعمل من اجل المجذومين . وقد دخلت الى قلب الغابة بالليـــل فعلا لانقـــاذ ذلك الرجل ... ان حصيلة هذا كله هى ما يحب النـــاس أن يسموه بالصـــلاح .
ـ انا أدرى الناس بدوافعى .
ـ ان التاريخ قد يأخذ بتأويلاتى مثلما يأخذ بتأويلاتك . سبق ان قلت لك يا كيرى اننى سوف ارفعك الى عليين . اللهم الا اذا وجدت بالطبع كما يبـــدو الآن محتملا ان القصة ستكون حفـــل بالاثارة اذا هدمتك .
ـ هل تعتقد فعلا ان لك كل هذه القدرة ؟
ـ ان مونتاجو باركنسون له قراء فى اكبر صحف العالم .
وعندئذ قالت المرأة ذات الشعر الأزرق :
ـ الحساب يامسيو كيرى .

وعندما استدار لكي يدفع قال له باركنسون :
ـ أليس الأفضل أن تطلب مني معروفا ؟
ـ لست أفهم .
ـ انني صادفت مصاعب كثيرة في مهنتي حتى تعرضت مرات للضرب والحبس وكثير من أنواع العدوان . والغريب في كل هذا أن أحدا ممن كنت أتعامل معهم لم يحاول أن يفهمني ويعرف ما في نفسي من طيبة . ان هذا قد يكون أنجع .
فقال كيري برفق وقد لمس ما في نبراته من حزن حقيقي :
ـ ربما كنت أفعل ما تقول ، لو كنت اهتم بأي شيء .
فقال باركنسون : لايمكنني ان أطيق تلك اللامبالاة اللعينة البادية منك . هل تعرف ماذا وجد ريكيه فوق ؟ هناك منشفة في غرفتك. انني أريتها له بنفسي . ومشط به شعر طويل . لقد خاب ظني فيك يا كيري . انني بدأت أصدق قصتي عنك .
فقال كيري : هذا من دواعي الأسف .
وفي هذه اللحظة سمع صوت رجل يتعثر في استدارة السلالم . كان ريكيه يهبط . وكان بيده كتاب له غلاف قرمزي لين . وكانت أصابعه تهتز فوق حاجز السلالم وهو يهبط من اثر الحمى أو بتأثير الانفعال . وقد توقف قائلا : كيري .
ـ أهلا يا ريكيه . هل تشعر بتحسن ؟
فقال ريكيه : لا أستطيع أن أفهم الحكاية . انت من دون الناس في الدنيا كلها !.. كنت أظنك صديقي يا كيري !
فقال كيري : لا اعرف ما الذي تتكلم عنه يا ريكيه . يحسن أن تأتي معي الى (البار) . سنكون هناك وحدنا أكثر .
وتأهب باركنسون لمتابعتهما ، بيد أن كيري اعترض طريقه في المدخل قائلا :
ـ لا . ليست هذه قصة للنشر في مجلة (بوست) .
فقال ريكيه بالانجليزية : ليس عندي ما أخفيه عن مستر باركنسون .
ـ كما تحب .
كانت شدة الحر قد أبعدت كل انسان حتى الساقي . وقد قال كيري :
ـ ان زوجتك حاولت أن تتصل بك تليفونيا وقت الغداء ، لكن لم يرد عليها أحد .

ـ وماذا تظن ؟ انني كنت في الطريق منذ الساعة السادسة صباحا .

ـ يسرني انك جئت . يمكنني الآن ان ارحل .

فقال ريكيه : لا فائدة من انكار اى شيء يا كيرى ، اى شيء على الاطلاق . انني كنت في غرفة زوجتي ، رقم ٦ ، فلم اجدها ، وعرفت انها كانت في غرفتك ، رقم ٧ .

ـ لا لزوم للتسرع واستنتاج اشياء سخيفة يا ريكيه . حتى بخصوص المناشف والامشاط . ماذا اذا كانت غسلت وجهها في غرفتي صباح اليوم ؟ اما عن الغرف فانها كانت الوحيدة الجاهزة عند وصولنا .

ـ لماذا ذهبت معها دون حتى ولو كلمة .. ؟

ـ كنت انوي ان اخبرك، لكنني تكلمت انا وانت في اشياء اخرى.

وتطلع الى ناحية باركنسون الذي وقف مستندا الى المقصف . فرآه يراقب حركات شفاههما بدقة وكأنه بذلك يستشف مدلول الكلام .

قال ريكيه : انها ذهبت وتركتني مريضا بحمى شديدة ...

ـ كان عندك خادمك . كان لديها اشياء تفعلها في البلدة .

ـ اية اشياء ؟

ـ اظن انها صاحبة الشأن في ان تقول لك يا ريكيه . للمرأة ان تكون لها اسرارها الخاصة .

ـ يبدو انك تشاطرها تماما هذه الاسرار . اليس للزوج حق..؟

ـ انت مفرم كثيرا بالكلام عن الحقوق يا ريكيه . ان لها حقوقها ايضا . لكنني لا انوي ان اقف واجادل ...

ـ الى اين تذهب ؟

ـ للبحث عن تابعي . اريد ان ابدأ رحلة العودة . يمكننا ان نقطع مسافة اربع ساعات تقريبا قبل حلول الظلام .

ـ عندي كلام كثير اقوله لك .

ـ ماذا ؟ عن العقيدة والتدين ؟

فقال ريكيه: لا . عن هذا .

وفتح الكتاب الذي بيده عن صفحة مصدرة بتاريخ . فرأى كيرى انها كراسة يوميات ذات سطور مخطوطة ، وبها كتابة متانية دقيقة كالتي تكتبها البنات في المدرسة . وقال ريكيه : اقرأ .

ـ انا لا اقرأ يوميات الغير .

ـ اذن فسأقرأ لك : « أمضيت الليل مع ك » .
فابتسم كيرى وقال : هذا صحيح ـ الى حد ما ـ اننا جلسنا نشرب الويسكى ، وقد حكيت لها حكاية طويلة .
ـ أنا لا أصدق كلمة واحدة مما تقول .
ـ انت لا تستحق خيرا يا ريكيه ، لكننى لم أعتد اغواء صغيرات السن .
ـ أنا أعرف ما ستقوله المحاكم فى هذا .
ـ احترس يا ريكيه . لا تهددنى . ربما أغير رأيى .
فقال ريكيه : بامكانى أن أجعلك تدفع غاليا .
ـ أشك فى وجود محكمة فى العالم تأخذ بكلامك ضد كلامها وكلامى . وداعا يا ريكيه .
ـ لايمكن أن تذهب من هنا وكأنه لم يحدث شىء .
ـ كنت أود ان اتركك على نار من ظنونك ، لكن هذا ليس من الانصاف لها . لم يحدث أى شىء يا ريكيه . اننى حتى لم أقبل زوجتك . انها لا تستهوينى بأى حال .
ـ بأى حق تحتقرنا على هذه الصورة ؟
ـ كن رجلا عاقلا . أعد تلك المفكرة الى مكانها ولا تقل شيئا .
ـ « أمضيت الليل مع ك » ـ ثم لا أقول شيئا !
فالتفت كيرى الى باركنسون وقال له : قدم شرابا لصاحبك واجعله يعقل . انت مدين له بمقال نشرته .
فقال باركنسون مكتئبا : ان مبارزة يمكن أن تكون منها قصة مثيرة .
فقال ريكيه : من حسن حظها اننى لست من أهل العنف ، ان جلدها بالسوط ...
ـ أهذا جزء من تعاليم الزواج الصالح التى تنافق بها ؟ ..
واستحوذ عليه اعياء بالغ . فطالما شب وهو يشهد مثل هذه المواقف . وكذلك مر بين الرجلين دون أن يعبأ بصراخ ريكيه وهو يقول : اننى سأطالب بحقى ...
وعندما جلس فى مقصورة سيارة النقل الصغيرة الى جانب ديوجراتياس عادت اليه سكينته من جديد . وقال له :
ـ انك لم تعد مرة أخرى الى قلب الغابة ، وأنا أعرف انك لن تأخذنى الى هناك . ومع ذلك كم اتمنى هذا .
فجلس ديوجراتياس مطرقا دون ان يجيب . فقال كيرى : لاباس.

وتوقف كيرى بالسيارة خارج الكاتدرائية ونزل. كان من الصواب ان يحذرها. ووجدها جالسة تحت تمثال قديسة شابة ، فقال لها :

ـ ان زوجك فى الفندق .

فقالت بصوت فاتر : احقا ؟ ..

ـ انه قرأ مفكرة تركتها فى غرفتك . ما كان يجب أن تكتبى ما كتبت ـ « أمضيت الليل معك » .

ـ كان هذا حقيقيا ، اليس كذلك؟ وفضلا عن هذا فاننى وضعت علامة تعجب لكى ابين ان الكلام غير جدى ، فقد تعودت وانا اتعلم فى الدير ان هذه علامة المبالغة .

ـ لا اظن ان زوجك يعرف رموز الدير .

فقالت ضاحكة : اذن فهو يعتقد فعلا ...

ـ اننى حاولت اقناعه بغير ذلك .

ـ يبدو ان هذا مضيعة للوقت ، ان كان هذا اعتقاده . الى اين تذهب الآن ؟

ـ ساعود الى موقعى .

ـ كنت أود أن اعود معك اذا قبلت . ولكننى اعرف انك لن تقبل .

ثم اضافت بعد برهة : هل يجب ان اخبره عن الطفل ؟ ..

ـ الأفضل ان تخبريه قبل ان يكتشف هذا .

فقالت باكتئاب : لو وجد هذا الطفل فعلا ، فسوف يحزننى أن يكون هو أبوه .

ـ لا لزوم لهذا التفكير القاتم . يجب الا تفكرى ان زواجك فشل نهائيا .

ـ اواه ... هذه هى الحقيقة المرة !

الفصل الثالث

(١)

اقيم احتفال كبير ابتهاجا برفع سقف المستشفى وزعت فيه الحلوى على المجذومين الذين عملوا فى اقامة المستشفى هم وعائلاتهم.

ولم يخل قرار الأب توماس برفع السقف من معارضة . فقد رغب الأب جوزيف الانتظار شهرا على أمل ان يعود رئيس الرهبان ، وقد أيده الأب بول أول الأمر ، ولكن عندما اتفق الدكتوركولين فى الرأى مع الأب توماس، سحب الاثنان معارضتهما ، وقد قال الدكتور كولين فى هذا الصدد :

ــ لندع الأب توماس يقيم الاحتفال وصلوات التدشين . اننى اريد المستشفى .

وقد انتحى الدكتور كولين وكيرى جانبا ، وقال الطبيب :

ــ رغم ذلك فاننى كنت أود لو كان رئيس الرهبان معنا فى هذه المناسبة . لو كان ذلك لاستمتع بهذا الانتصار ولكانت خطبته افعل فى القلوب .

وعند حلول الظلام بدات نذر العاصفة ، فأخذ الهواء يهب عابثا بأشجار النخيل . وقد نهض كيرى من القاعة لاغلاق الباب المفتوح ، ولكن بدا له أن يخرج فأغلق الباب خلفه . كانت السماء تومض من ناحية الشمال . وكانت أصوات الطبول التى يدقها المجذومون تختلط بقصف الرعد . ولمح كيرى فى وميض البرق شخصا يتحرك فى الشرفة ، عرف فيه ديوجراتياس . فقال له :

ــ لماذا لا تشترك فى الحفلة يادیوجراتياس ؟

ثم تذكر ان الحفل خصص لغير المشوهين من البنائين والنجارين ومن اليهم ، فاستدرك قائلا :

ــ انهم قاموا بعملهم خير قيام .

ولما لم يجب الشاب قال له كيرى :

ـ لا اظنك تنوى الهروب مرة ثانية ؟
واشعل سيجارة ودسها بين شفتيه ، فقال ديوجراتياس . لا وشعر كيرى فى الظلام بوكزة من جانب الشاب ، فقال له :
ـ ما الذى يضايقك ياديوجراتياس ؟
فاجاب : سوف تذهب عنا ، بعد ان تم بناء المستشفى .
ـ آه ، لا . لن اذهب . هنا انوى ان اختم أيامى . لا يمكن ان اعود الى المكان الذى جئت منه ياديوجراتياس . انا لا انتمى الى هناك بعد الآن .
ـ هل قتلت احدا ؟
ـ اننى قتلت كل شىء .
واشتد قصف الرعد ، واعقبه المطر ، الذى نزل رذاذا أول الأمر ، ثم استحال الى وابل منهمر ، حتى انقطع صوت الطبول كانها لهب اطفأه الماء .
واقترب ديوجراتياس من كيرى قائلا :
ـ أريد ان أذهب معك .
ـ قلت لك اننى باق هنا . لماذا لا تصدقنى ؟ سأبقى الى نهاية حياتى . وسوف ادفن هنا .
ولعل صوته لم ينفذ الى سمع ديوجراتياس من خلال المطر، اذ ردد قوله : سأذهب معك .
وفى خلال ذلك سمع رنين تليفون ـ ان صوتا آدميا هزيلا كان يلح من خلال التليفون كصرخة طفل خلال المطر .

(٢)

بعد ان خرج كيرى من القاعة قال الأب توماس :
ـ اننا لم نوف الرجل حقه ، وفى رأيى انه يجدر بنا ان نعرب له عن امتنان الارسالية ، رسميا ، عندما يعود .
فقال الدكتور كولين : لن تفعل اكثر من ان تثير ارتباكه . كل ما يريده من اى واحد بيننا هو ان نتركه وشأنه .
واشتد انهمار المطر حتى كان يدق السقف ، فاخذ الأخ فيليب يوقد الشموع فوق المنضدة احتمالا لانقطاع التيار الكهربائى .
قال الأب توماس : كان يوما سعيدا يوم ان جاء الينا . من كان يتصور ان يحدث هذا ؟ كيرى العظيم !
فرد الدكتور كولين قائلا : وهو يوم اسعد بالنسبة اليه . فان شفاء العقل اصعب من شفاء البدن ، ومع ذلك اظن ان الشفاء

يوشك أن يكون تاما .
وفى هذه اللحظة بدأ التليفون يرن . فقال الدكتور كولين :
ـ هو المستشفى على الأرجح . اننى اتوقع حالة وفاة الليلة .
ونهض الى مكان التليفون ورفع السماعة قائلا :
ـ من المتكلم ؟ الأخت كلير ؟
والتفت الى الأب توماس قائلا : هذه واحدة من الأخوات ، فخذ المكالمة . لا يمكننى أن اسمع ما تقول .
وتخلى عن السماعة للأب توماس وعاد الى مكانه قائلا :
ـ أن صوتها يبدو فيه الاهتيـــاج .
وقال الأب توماس : من المتكلم ؟ الأخت هيلين ؟ لايمكننى أن أسمعك . ان العاصفة شديدة . قولى هذا مرة ثانية . انا لا أفهم .
وعندما عقب الأب جوزيف بحديث جانبى التفت اليه الأب توماس وقال حانقا :
ـ اسكت يا أبى . لايمكننى أن اسمع وانت تتكلم . ليس هذا دعابة . يظهر أن شيئا شنيعا قد حدث ...
فقال الطبيب : هل هناك مريض ؟
فقال الأب توماس فى التليفون : قولى للأم اجنيس اننى ساحضر حالا . والأفضل أن ابحث عنه واصحبه معى .
ووضع السماعة ووقف منحنيا فوق التليفون . فقال الطبيب :
ـ ماذا جرى يا أبى ؟ هل يمكن أن أساعد ؟
ـ هل يعرف أحد أين ذهب كيرى ؟
ـ انه خرج منذ دقائق .
ـ كم اتمنى لو كان رئيس الرهبان هنا !
تطلع الجميع الى الأب توماس فى دهشـــة ، اذ بدا لهم فى حالة كرب بالغ . وقال الأب بول :
ـ الأفضل أن تقول لنا ماذا هناك .
فقال الأب توماس : اننى وثقت أكثر من اللازم بالظواهر .
ـ هل فعل كيرى شيئا ؟
ـ حرام أن ندين رجلا قبل أن نسمع كل الحقائق ...
وفتح الباب ودخل كيرى . وتدفق رشاش المطر فى أعقابه حتى كان عليه أن يجاهد لاغلاق الباب ، وقال :
ـ ان مقياس المطر فى الخارج وصل نصف سنتيمتر حتى الآن .
لم يتكلم أحد . وتقدم الأب قليلا نحوه ، قائلا :

ـ هل صحيح يامسيو كيرى انك عندما ذهبت الى (لوك) ، ذهبت مع مدام ريكيه ؟
ـ اركبتها معى . نعم .
ـ مستخدما سيارتنا ؟
ـ طبعا .
ـ بينما كان زوجها مريضا ؟
ـ نعم .
فقال الأب جوزيف : عن اى شىء هذا كله ؟
فرد الأب توماس : سل مسيو كيرى .
ـ يسالنى عن ماذا ؟
جذب الأب توماس حذاءه الطويل المطاط والمظلة من مكانهما فقال كيرى وهو يقلب نظره بين الأب جوزيف والأب بول الذى أومأ بانه لا يفهم شيئا :
ـ ما الذى تظنون اننى فعلته ؟
فقال الدكتور كولين : يحسن ان تقول لنا ما الذى يجرى يا أب توماس .
ـ لابد ان اطلب منك ان تاتى معى يامسيو كيرى . اننا سنناقش فيما يجب عمله بعد ذلك مع الأخوات . كنت ارجو بكل جوارحى ان يكون هناك خطأ . بل اننى اتمنى لو انك حاولت ان تكذب . اذن لكان هذا اقل وقاحة . اننى لا اريد ان يجدك ريكيه هنا اذا وصل .
فقال الأب جان : وماذا يريد ريكيه من هنا ؟
ـ انه قد يطالب بزوجته . هى الآن مع الأخوات . لقد وصلت منذ نصف ساعة . بعد سفر ثلاثة أيام وحدها فى الطريق . وهى تنتظر طفلا . هو طفلك .
ومرة اخرى دق جرس التليفون .
قال كيرى : كلام فارغ ! لايمكن ان تقول شيئا كهذا لأحد .
ـ مسكينة . اظن ان اعصابها لم تطاوعها لكى تقول لك هذا وجها لوجه . وقد جاءت من (لوك) للبحث عنك .
ودق التليفون من جديد . فنهض الأب جوزيف للرد . واستطرد الأب توماس يقول :
ـ الم نستقبلك هنا بالترحاب والحفاوة ؟ اننا لم نسالك سؤالا واحدا . اننا لم نتدسس الى ماضيك . وفى مقابل هذا تقدم الينا ـ

الفضيحة . الم يكفك نساء اوربا ؟ هل كان لابد أن تجعل من مجتمعنا الصغير هذا قاعدة لعملياتك ؟

وفجأة غلبه طبعه المضطرب ، فاخذ يبكى . وفى خلال ذلك كان الاب جوزيف ينادى فى التليفون : آلو . آلو . الا يمكن بحق كل القديسين ان ترفع صوتك ، يا من تتكلم ؟

قال كيرى : سأذهب واراها معك فى الحال .

فقال الأب توماس : هذا حقك ، وان كانت ليست فى حالة تسمح لها بالمناقشة . فانها لم تجد ما تأكله طيلة ثلاثة ايام سوى بعض الشكولاتة . بل لم يكن معها خادم عندما وصلت . لو كان رئيس الرهبان فقط ..! مدام ريكيه من دون الناس جميعا !.. كانت دائما مثال الطيبة مع الارسالية كلها . بالله يا اب جوزيف ، ماذا الآن ايضا ؟

فقال الأب جوزيف متنفسا الصعداء : المستشفى فقط . التليفون يادكتور كولين .

فقال الدكتور كولين وهو يتناول السماعة : هى حالة الوفاة التى كنت أتوقعها . أخيرا وجدنا فى هذه الليلة الغريبة شيئا يسير فى مجراه الطبيعى !

(٣)

عندما وصل كيرى مع الأب توماس الى بيت الراهبات الأبيض القريب كانت احدى الأخوات فى الانتظار وهى تحمل شمعة نظرا لانطفاء الأنوار الكهربائية فجأة بسبب العاصفة . وقد راحت الأخت تتطلع الى كيرى وكأنه الشيطان تجسد فجأة امامها بنظرة تجلى فيها الخوف والنفور والفضول ، وقالت : ان الأم اجنيس جالسة مع مدام ريكيه .

وقادتهما الى حجرة بيضاء الطلاء حيث تمددت مارى ريكيه فوق سرير ابيض فى ضوء سراج ليلى . وكانت الأم جالسة قرب الفراش تلمس بيدها خد مارى ريكيه . وبدا مشهدها لكيرى كفتاة عادت الى بينها فى سلام بعد طول اغتراب . فقال الأب توماس همسا :

ـ كيف حالها ؟

فاجابت الأم اجنيس : لم تصب بسوء ، اعنى بدئيا .

واستدارت مارى ريكيه فى الفراش وتطلعت اليهما بلمعان عينى طفل أعد كذبة محبوكة . ثم ابتسمت لكيرى وقالت :

ـ انا آسفة . كان لابد ان اعود . كنت فى فزع .

وجلبت الأم اجنيس يدها واخـــذت تراقب كيرى بدقة وكأنما كانت تخشى عملا عنيفا يصيب من ترعاها . فقال كيرى برقة :

ــ لا لزوم للفزع . أن هذا بسبب رحلتك الطويلة . والآن بعد أن صرت فى أمان بين أصدقاء فسوف تشرحين الموقف .

فقالت همسا : آه ، نعم . كل شىء .

ــ انهم لم يفهموا ما قلت لهم . عن زيارتنـــا لبـــلدة (لوك) سويا . وعن الطفل . هل سيكون هناك طفل ؟

ــ نعم .

ــ فقط قولى لهم طفل من هو ؟

فقالت : قلت لهم . هو طفلك . وطفلى أيضا بالطبع .

فقال الأب توماس : هل رأيت ؟

ــ لماذا تقولين لهم هذا ؟ انت تعرفين انه غير حقيقى . اننا لم نـكن فى صحبة بعضنا الا فى (لوك) .

فقالت : فى تلك المرة الأولى ، عندما جاء بك زوجى الى المنزل. كان ايـــر له لو شـــعر بالغضب ، لـكن لم يخامره شىء من هذا . ان الكذب ظاهرة طبيعية فى سن معينة ، مثل اللعب بالنار.

قال لها : انت تعرفين أن كل ما تقولينه كلام فارغ . انا واثق انك لا تريدين ان تسببى لى اى ضرر .

فقالت : آه ، لا . ابدا . انا احبك ياحبيبى . كلى لك .

بدا النفور فى وجه الأم اجنيس ، بينما قالت مدام ريكيه :

ــ ولهذا جئت اليك الآن .

فقالت الأم اجنيس : لابد أن تستريح الآن . كل هـــذا يمكن مناقشته فى الصباح .

ــ لابد أن تتركونى اتـكلم معها على انفراد .

فقالت الأم اجنيس : لا قطعا . ليس هـــذا من الصواب . لن تسمح له بذلك يا اب توماس .

ــ ياســـيدتى الفاضلة ، هل تظنين اننى سأضربها ؟ بالامكان ان تسرعوا لنجدتها عند أول صرخة منها .

فقال الأب توماس : من الصـــعب ان نرفض اذا رغبت مدام ريكيه فى هذا .

فقالت : بالطبع ارغب . اننى ماجئت الى هنا الا لذلك .

ووضعت يدها على كم كيرى وهى تبتسم ابتســـامة المـكتئب المخذول حتى كانت أشبه بلوحة برنارد عن مرغريت جوتييه وهى

على فراش الموت .

وما كادا يصيران وحدهما حتى تنهدت سعادة وقالت :

ـ هذا هو المطلوب .

ـ لماذا قلت لهم هذه الأكاذيب ؟

فأجابت : ليست كلها أكاذيب . انني احبك فعلا .

ـ منذ متى ؟

ـ منذ ان امضيت ليلة معك .

ـ انت تعرفين تماما ان هذا لم يكن شيئا بتاتا . اننا شربنا بعض الويسكى . وقلت لك حكاية لمساعدتك على النوم .

ـ نعم . يحكى ذات مرة فى سالف العصر والأوان . كان ذلك عندما وقعت فى حبك . لا . لم يكن هذا . اخشى اننى اكذب من جديد .

ثم اضافت تقول بانكسار غير مقنع : كان ذلك عندما جئت الى بيتنا لأول مرة .

ـ الليلة التى قلت لهم اننا كنا فيها معا ؟

ـ كانت هذه كذبة ايضا . كانت الليلة التى كنا فيها معا حقيقة هى الليلة التى اقام فيها الحاكم حفلته المعروفة .

ـ ما هذا الذى تقولين الآن بالله ؟

ـ اننى لم اكن أريد زوجى عندئذ . كان لابد ان اغمض عينى وافكر فيك . ومن هنا لابد ان الطفل نجم . وهكذا ترى ان ما قلته لهم ليس اكذوبة .

ـ ليس أكذوبة ؟

ـ نصف اكذوبة فقط . لو لم افكر فيك لماكان للطفل ان ينجم . فهو بدوجة طفلك .

راح يتفرس فيها فى عجب . كانت بحاجة الى عالم لاهوت لكى يفهم المنطق الملتوى فى حججها ، ولكى يفربل ما فى عقيدتها من خير وشر معا ، ومنذ عهد قريب فقط كان يحسبها طفلة ساذجة غريرة لا خطر منها عليه . ولم تلبث ان ابتسمت فى وجهه ابتسامة اخاذة وكانما تحاول اغراءه بأن يحكى لها حكاية اخرى تؤجل موعد النوم . واخيرا قال لها :

ـ يحسن أن تخبرينى بالضبط ما الذى حدث عندما قابلت زوجك فى (لوك) ؟

فقالت : كان شيئا مروعا . مروعا حقا . ظننت لحظة انه

سيقتلني . ولم يصدق ما قلته من المفكرة . وقد استمر يبـــدىء ويعيد طول الليل حتى تعبت وقلت له : « حسنا . ليكن ما تظن. انني كنت معه . هنا وهناك وفى كل مكان » . وعندئذ ضربني . وكان يمكن أن يضربني مرة ومرة لو لم يتدخل مسيو باركنسون .

ـ هل كان باركنسون هناك أيضا ، اذن ؟

ـ انه سمعني ابكي وخف الينا .

ـ لأخذ بعض الصور الفوتوغرافية كما اظن .

ـ لا اظن انه اخذ اية صور .

ـ وماذا حدث بعد ذلك ؟

ـ انه بالطبع عرف كل شيء عموما . وكان يريد ان نعود الى البيت فى الحال ، لـكنني رفضت ، وكان لابد أن ابقى فى (لوك) حتى اعرف النتيجة . فقال لي : « تعرفين ؟ ! » . وبعد ذلك قلت له كل شيء . وفى الصباح ذهبت الى الطبيب ، وبعد ان عرفت اسوأ ما هناك تركت البلدة دون ان أعود الى الفندق .

ـ وريكيه يظن ان الطفل هو طفلي ؟

ـ حاولت بكل جهدى اقناعه بانه طفله ـ لانه بالطبع طفـــله بدرجة ما .

وتمددت وتمطت فى الفراش وهى تتنهد وادعة وقالت :

ـ يا الهى ! كم أنا مسرورة بوجودى هنا . كان من المفزع حقا ان أقود السيارة طول الطريق وحدى . انني لم ابحث عن اى طعام او فراش ونمت فى السيارة .

ـ فى سيارته ؟

ـ نعم . لـكنني اعتقـــد ان مسيو باركنسون ســـوف يقله فى سيارته للعودة .

ـ هل هناك فائدة اذا طلبت منك ان تقولى الحقيقة للأب توماس؟

ـ حسنا .الحقيقة انني قطعت خط الرجعة فى نفسى واحرقت قواربي . الا ترى هذا ؟

فقال كيرى : بل انك احرقت المـأوى الوحيد أمامي .

فقالت تفسر له بلهجة الاعتذار : كان لابد لى من الهروب .

لأول مرة ووجه بانانية مطبقة كانانيته . ان مارى الأخرى قد نالت ثأرها العادل . أما التى كتبت تقول له « كلى لك » فقد جاء دورها الآن فى الضحك .

قال لها : ماذا تنتظرين منى ان أفعل ؟ أحبك ردا على هذا ؟

ـ كم يكون لطيفا لو فعلت ، لـكن اذا لم تستطع ، فلابد لهم من اعادتي الى بلادى . اليس كذلك ؟

ذهب كيرى الى البـاب وفتحه . كانت الأم اجنيس متربصة فى نهاية الممشى ، فقال : لقد فعلت كل ما امكننى .

ـ اظن انك حاولت اقناع الفتاة المسكينة بان تحميك .

ـ آه ، انها اعترفت لى بكذبها طبعا ، لـكن لم يكن معى شريط تسجيل . من سوء الحظ انكم لاتقرون وضع ميكروفونات مخبأة .

ـ هل لى ان أطلب منك يامسيو كيرى من الآن فصـاعدا ان تبتعد عن بيتنا ؟

ـ لا حاجة الى طلب هذا منى . احذروا انتم اصبع الديناميت الصغير الموجود فى الداخل .

ـ انها فتاة صغيرة مسكينة بريئة ...

ـ آه ، بريئة . أظنك على حق . وقانا الله مثل هذه البراءة . ان المذنبين يعرفون على الاقل ما هم بسبيله .

كان العطل الـكهربائى لم يصلح بعد ، وقد راح يتلمس الطريق بقدميه حتى وصل الى مبانى الارسالية . وكان المطر قد تحول الى الجنوب ، ولـكن البرق كان يومض بين وقت وآخر فوق الغابة ، والنهر . وكان عليه قبل الوصول الى الارسـالية أن يمر ببيت الطبيب . فرأى مصباحا زيتيا موقداً خلف النافذة والطبيب واقفا بجانبه يرسل نظره الى الخارج . فطرق كيرى الباب ، فقال الطبيب:

ـ ماذا تم ؟

ـ انها اصرت على اكاذيبها . انها وسيلتها الوحيدة للهروب .

ـ الهروب .. ؟

ـ من ربقيه ومن هنا .

ـ أن الأب توماس يتكلم الآن مع زملائه . ولمـا لم يكن ذلك يعنينى فقد عدت الى بيتى .

ـ انهم يريدون ان اذهب عنهم ، فيما اظن ؟

ـ كم أتمنى لو كان رئيس الرهبـان هنا . ان الأب توماس ليس بالضبط الرجل المتوازن .

جلس كيرى الى المنضدة وقال :

ـ كنت اظن اننى جئت الى مكان بعيد بما فيه الـكفاية ، عندما وصلت الى هنا .

ـ قد تخمد المسألة . دعهم يتكلموا . انت وانا عندنا ما هو أهم

لـكي نعمله . الآن وقد تم المستشفى يمكننا البدء فى عمل الوحدات المتنقلة والمراحيض التى تـكلمت معك عنها .

ـ اننا لا نتعامل مع مرضـاك يادكتور ، فهؤلاء اناس طبيعيون اصحاء النفوس تعرف نواياهم الطيبة وتفاعلاتهم سلفا . ويبـدو اننى لن اقترب من الوصـول الى (بنكاوى) اكثر مما اقترب ديوجراتياس .

ـ ان الأب توماس لا سلطان له على . يمكنك البقـاء فى بيتى منذ الآن اذا لم تمانع فى النوم فى غرفة العمل .

ـ آه ، لا . لايمكنك أن تجازف بالشجار معهم . ان وجودك هام جدا فى هذا المـكان . لابد لى ان اذهب عنهم .

ـ والى اين تذهب ؟ ..

ـ لا أعرف . من الغريب اننى كنت فى قلق شديد عندما جئت الى هنا ، لاننى ظننت اننى اصبحت بمنجاة من الاحساس بالألم . لـكنكـكنت علىحق ، اذ اتذكر انك قلت لى : ماعليك الا ان تنتظر .

ـ انا آسف .

ـ اما انا فلا آسف على شىء . قلت لى مرة انه عندما يتعذب الانسان ، فهذا بدايةالاحساس بانه جزء من الـكيان البشرى . هل تتذكر ؟ لقد كتبت عبارة مثل هذه فى مفكرتى قلت فيهـا : « انى اتعذب ، واذن فانا موجود » . لست اذكر بالضبط ماذا كتبت ولا اين كتبته ، ولم تـكن الـكلمة « اتعذب » .

فقال الطبيب : عندما يشفى الانسان ، فاننا لا نعرضه للضياع .

ـ يشفى ؟ ..

ـ أن (حالتك) لم تعد تحتاج الى مزيد من اختبارات الجلد .

(٤)

قال الأب جوزيف ساهما :

ـ يجب الا ننسى انه ليس هناك من دليل سوى كلامها فى مقابل كلامه .

فقال الأب توماس : وما الذى يجعلها تخترع قصة مروعة مثل هذه ؟ على اى حال فان حكاية الطفل حقيقية بما فيه الكفاية .

فقال الأب بول : ان كيرى كان ذا نفع كبير لنا هنا . ولنا الحق فى ان نشعر نحوه بالامتنان .

ـ امتنان ؟ أيمكن يا ابى أن تفكر هكذا حقا ، بعد أن جعلنـا اضحوكة ؟ « ناسك الـكونغو » ـ « قديس له ماض » . كل تلك

القصص التى نشرتها الصحف . ما الذى سوف تنشره الآن ؟
فقال الأب جان : انك كنت أكثر سرورا بهذه القصص منه .
ـ بالطبع كنت مسرورا . كنت اؤمن به . كنت اظن ان دوافعه فى المجىء الى هنا طيبة . بل اننى دافعت عنه لدى رئيس الرهبان عندما حذرنى... لكننى لم أدرك وقتها ماذاكانت دوافعه الحقيقية.
فقال الأب جان بصوته الجاف القاطع :
ـ ان كنت تعرف هذه الدوافع فقلها لنا .
ـ لايمكن ان اظن الا انه كان هاربا من مشكلة نسائية فى أوربا .
ـ (مشكلة نسائية) ليست وصفا دقيقا تماما ، ثم اليس المظنون اننا كلنا هاربون من هذه المشكلة ؟ ..
وقال الأب جوزيف باصرار :
ـ ان كيرى بناء مقتدر جدا .
ـ ماذا تقترحون اذن : أن يبقى هنا فى الارسالية ، يعيش فى الخطيئة مع مدام ريكيه ؟ ..
فقال الأب جان : لا بالطبع . ان مدام ريكيه لابد أن ترحل غدا. ومما قلته انت لنا فليست لديه رغبة فى الذهاب معها .
فقال الأب توماس : ان المسألة لن تنتهى عند هـذا الحد . ان ريكيه سوف يطلب الانفصال . بل انه قد يقاضى كيرى طالبا الطلاق ، وسوف تنشر الصحف القصة تفصيلا . ان الصحف مهتمة أصلا بشخصية كيرى. هل تظنون ان الحاكم سوف يسر عندما يقرأ على مائدة الافطار الفضيحة المتعلقة بمستعمرة الجذام عندنا ؟
فقال الأب جوزيف : ان سقف المستشفى قد أقيم بسلام ، لكن لا تزال هناك أعمال كثيرة لابد أن تتم .
فقال الأب بول : ليس هناك ضرر محتمل من مجرد الانتظار . قد تكون الفتاة كاذبة . وقد لا يتخذ ريكيه أى اجراء . وقد لا تنشر الصحف شيئا . بل قد لا تصل القصة الى سمع الحاكم ـ أو نظره .
ـ هل تظنون ان الأسقف لن يسمع بها ؟ انها قد تكون منتشرة ، فى كل انحاء (لوك) فى الوقت الحالى . وفى غياب رئيس الرهبان فاننى مسئول ...
وهنا تكلم الأخ فيليب لأول مرة ، فقال :
ـ هناك رجل فى الخارج . الا يحسن أن أفتح الباب ؟
كان القادم هو باركنسون . جاء غارقا بماء المطر ومنعقد اللسان.

جاء يمشي بكل سرعة . وكان يدير يده فوق قلبـــه وكأنما يحاول تلطيف ضرباته . فقال الأب توماس :

ـ اعطوه مقعدا .

فقال باركنسون : اين كيرى ؟

ـ لا أعرف . ربما فى غرفته .

ـ ان ريكيه يبحث عنه . لقد ذهب الى بيت الأخوات ، ولـكن كيرى كان قد انصرف .

ـ وكيف عرفت اين تبحث عنه ؟

ـ انها تركت رســـالة لريكيه فى بيتها ، وكان يمكن ان نلحق بها ، لولا عطل بسيارتنا .

ـ واين ريكيه الآن ؟

ـ الله يعلم . ان الظلام شديد فى الخارج .

ـ وهل رأى زوجته ؟

ـ لا . ان راهبة عجوزا دفعتنا نحن الاثنين الى الخارج وأغلقت الباب . واقول لـكم ان هذا ضاعف من جنونه . اننا لم ننم ست ساعات منذ خروجنا من (لوك) ، وكان ذلك منذ ثلاثة أيام .

وراح يتمايل فى مقعده أماما وخلفا ، شاكيا من ضعف قلبـــه . وكان الأب توماس يجد صعوبة بانجليزيته المحدودة فى فهم مرامى فكر باركنسون ، وراح الباقون يتابعون الموقف عن كثب دون أن يفهموا سوى القليل . وبدا لهم ان الموقف قد خرج من كل سيطرة بصورة مؤسفة .

ثم انبعث فى الخارج صوت يصيح بصورة غير مفهومة .

فقال باركنسون : انه هو . يهدد فى كل مكان . انه مهتـــاج كمجنون . لقد قلت له ان المتدينين أمثاله يصطفحون ، لـكن لا فائدة الآن من الـكلام معه .

وزاد الصوت اقترابا . وسمعوه يصيح :

ـ كيرى . كيرى . انت انت يا كيرى .

فقال باركنسون : أظن انه (يريد) أن يأخذ بأسوأ الظنون . وربما يريد ان يصبح ندا لـكيرى ، عندما يتقاتلان من أجل فتـــاة واحدة . انه لا يطيق أن يبدو غير ذى أهمية .

وفتح الباب مرة ثانية ، ووقف ريكيه فى المدخل غارقا فى المطر مشعث الشعر . وراح يقلب نظره بين الآباء واحدا واحدا وكأنما يتوقع ان يجد كيرى بينهم ، ربما متنكرا كراهب !

قال الأب توماس : مسيو ريكيه .
ـ أين كيرى ؟
ـ أرجوك أن تدخل وتجلس لنتكلم معا ...
فقال ريكيه : كيف يمكن أن أجلس ؟ أنا رجل مكروب .
ثم جلس مع ذلك فوق مقعد كان متداعيا ، ومضى يقول :
ـ اننى أعانى من صدمة فظيعة يا أبى . اننى فتحت قلبى لذلك الرجل ، واطلعته على مكنون أفكارى ، فكان هذا جزائى .
ـ دعنا نتكلم بهدوء وتعقل ...
فجعل ريكيه يقول : انه ضحك منى واحتقرنى . اى حق له فى أن يحتقرنى ؟ كلنا سواسية فى نظر الله . حتى مدير مزرعة مسكين وكيرى العظيم . كيف يحطم زواجا باركته الكنيسة ؟
كانت تفوح منه رائحة ويسكى قوية ، وقد تابع كلامه قائلا :
ـ اننى سأعتزل العمل بعد سنين معدودة . فهل يظن اننى سأنفق من معاشى على مولود غير شرعى ؟ ..
ـ انك لبثت فى الطريق ثلاثة أيام يا ريكيه ، وانت فى حاجة الى نوم ليلة . وبعدها ...
ـ انها كانت تهجر فراشى . وكانت دائما تنتحل شتى الأعذار، ولكن عندما يصل الى هنا لأول مرة ، ولكونه رجلا مشهورا ...
فقال الأب توماس : اننا جميعا نريد تجنب الفضيحة .
فقال ريكيه بحدة : اين الطبيب ؟ انهما كانا متواطئين كاللصوص :
ـ الطبيب فى بيته . وليس له أى ضلع فى هذا .
اندفع ريكيه الى الباب . ووقف مكانه لحظة وكأنه على خشبة المسرح ونسى الكلمات التى يخرج بها ، ثم قال أخيرا :
ـ لا توجد هيئة محلفين يمكن أن تدينني .
وخرج على الأثر الى الظلام والمطر . ومضت لحظة لم يتكلم فيها أحد ، الى أن قال الأب جوزيف :
ـ ما الذى يقصده بهذا الكلام ؟ ..
وقال الأخ فيليب : معذرة ...
فقال الأب توماس : الى أين تذهب ياأخ فيليب ؟ ..
ـ انه قال كلاما عن هيئة محلفين يا أبى ، وقد خطر لى انه ربما كان يحمل مسدسا . أظن انه يحسن ان أحذر ...
فقال الأب توماس : هذا كثير جدا .
والتفت الى باركنسون وسأله بالانجليزية :

ـ هل معه مسدس ؟ ..
ـ لا أعرف قطعا . ان الكثيرين يحملون المسدسات هذه الأيام . لكن لا اظن ان اعصابه ستطاوعه لاستخدامه ... قلت لكم انه يريد فقط ان يبدو ذا أهمية .
فقال الأخ فيليب : اظن ، اذا سمحت لى يا ابى ، انه يحسن ان اذهب الى بيت الدكتور كولين
فقال الأب بول : احترس يا اخ ..
فرد الأخ فيليب قائلا : آه ، أننى اعرف الكثير عن الأسلحة النارية .

(٥)

قال الدكتور كولين : هل هذا صوت أحد يصيح ؟ ..
ـ لم اسمع شيئا .
قال كيرى هذا وهو يتقدم الى النافذة وينظر فى الظلام . ثم اضاف :
ـ ليت الأخ فيليب يصلح العطل الكهربائى . حان الوقت لكى اعود الى غرفتى ، وليس معى (بطارية) .
ـ انهم لن يعيدوا التيار الآن على كل حال ، فقد بلغت الساعة العاشرة .
ـ انهم سيطلبون أن اذهب بأقرب ما يمكن ، اليس كذلك ؟ لكن من المحتمل ان السفينة لن تتمكن من الوصول الى هنا قبل اسبوع على الأقل . ربما أجد سيارة يقودها أحد لكى ارحل ...
ـ اشك فى ان يكون الطريق صالحا الآن بعد الأمطار ، وسوف يزيد هطولها .
ـ اذن فأمامنا بضعة ايام للكلام فى موضوع تلك الوحدات المتنقلة التى تحلم بها . لكننى لست مهندسا يا دكتور . ان الأخ فيليب يمكنه ان يساعدك فى هذه الناحية افضل منى .
فقال الدكتور كولين : ان حياتنا هنا تحتاج بطبيعتها الى البدائل . كل ما أريده هو نوع سابق الاعداد يتحرك على عجلات شىء يمكن تركيبه على (شاسيه) سيارة نقل صغيرة زنة نصف طن . اين وضعت تلك الورقة ؟ ان بها فكرة تصميم أريد ان أريك اياه ...
وفتح الطبيب درجا فى مكتبه . كان بداخله صورة فوتوغرافية لامراة . كانت الصورة مائلة فى موضعها تنتظر ، محجوبة عن انظار

الغرباء ، بعيدة عن الغبار ، حاضرة على الدوام كلما فتح الدرج .
قال كيرى : ستوحشنى هـــذه الغرفة ـ حيثما اكون . انك لم تـكلمنى ابدا عن زوجتك يا دكتور . كيف كانت وفاتها .. ؟
ـ بمرض النوم ، كان من عادتها أن تمضى وقتا طويلا فى داخل الغابة فى ايامنا الأولى هنا لاقناع المجذومين بالمجيء عندنا للعلاج . ولم يكن عندنا حينئذ مثل العقاقير الفعالة الحالية لمرض النوم كما هو الآن . فـكان الناس يموتون بهذا الداء عاجلا .
ـ كان فى مأمولى أن تنتهى حياتى فى نفس هـــذه الأرض مثلك مثلها . اذن لـكنا ثالوثا فريدا .
ثم أردف كيرى بعد لحظة : هناك احدهم ينادى فى الخارج. يخيل الى انه ينادى اسمى .
وفعلا سمع من ينادى قائلا :
ـ كيرى ... كيرى ...
فقال كيرى : هذا ريكيه . لابد انه تبع زوجته الى هنا . ادعو الله الا تـكون الأخوات قد سمحن له بالدخول لمقابلتها . يحسن أن اخرج واتـكلم ...
ـ دعه يهدأ أولا .
ـ لابد أن اجعله يتعقل .
ـ اذن فانتظر حتى الصباح . لا يمكن رؤية التعقل ليلا .
ـ كيرى ... كيرى ... أين انت يا كيرى ؟
فقال كيرى : ياله من موقف غريب بشع * اذ يحدث هذا لى . هاتك العرض البرىء ! ليس هذا عنوانا رديئا لـكوميديا !
واختلج فمه بشبه ابتسامة ، واضاف قائلا :
ـ اعطنى مصباحك .
ـ من الأفضل كثيرا أن تظل بعيدا عن هذا الموقف يا كيرى .
ـ لابد أن افعل شيئا . انه يحدث ضوضاء كثيرة ... لن ينتج عنها الا زيادة ما يسميه الأب توماس بالفضيحة .
تبعه الدكتور كولين الى الخارج مكرها . كانت العاصـــفة قد عادت سيرتها الأولى من العنفوان . ونادى كيرى وهو يرفع المصباح ريكيه ... أنا هنـــــا .
سمع صوت شخص يجرى الى ناحيتهما ، ولكن عندما وصل الى دائرة الضوء عرفا فيه الأخ فيليب ، الذى قال :
ـ أرجوك أن تعود الى داخل البيت وتغلق البـــاب . فى ظننا

ان ريكيه ربما كان يحمل مسدسا .
فقال كيرى : لايمكن أن يبلغ به الجنون الى حد استعماله .
ـ ومع ذلك ، وتجنبا لكل مكروه ...
ـ لاباس. ساعمل بنصيحتك ، واختبأ تحت سرير الدكتوركولين!
ورجع خطوات معدودة عندما سمع صوت ريكيه يقول :
ـ قف . قف مكانك .
وبرز من الظلام مترنحا ، وقال بلهجة تشوبها الشكوى :
ـ انني كنت ابحث عنك فى كل مكان .
ـ حسنا . هانذا .
ونظر ثلاثتهم الى حيث كانت يد ريكيه اليمنى مخبأة فى جيبه . وقال :
ـ لابد لى من كلام معك يا ريكيه .
ـ تكلم اذن. وعندما تنتهى ، أود أن تكون لى كلمة معك ايضا.
خيم الصمت برهة . وسمع نباح كلب فى مستعمرة الجذام .
ووميض البرق فاضاءهم جميعا كمصباح وهاج .
قال كيرى : أنا منتظر يا ريكيه .
ـ انت ـ يا مرتد ، يا ملحد !
ـ هل جئت الى هنا لمناقشة دينية ؟ سأعترف بأنك أعرف منى فى هذا المجال .
وفى هذه اللحظة قصف الرعد شديدا حتى تلاشى فيه مطلع كلمات ريكيه ولم يسمع منه الا قوله :
ـ ... تقنعنى بأن ما كتبته فى المفكرة لا يعنى شيئا ، وكنت طول الوقت تعرف بوجود طفل فى الطريق ! ..
ـ هو طفلك . لا طفلى .
ـ اثبت هذا . خير لك أن تثبته .
ـ من الصعب اثبات ما هو سلبى يا ريكيه . وبالطبع يستطيع الدكتور أن يجرى تحليلا لدمى ، لكن لابد أن تنتظر ستة أشهر لكى ...
ـ كيف تجسر على الاستهزاء بى ؟
ـ انا لا أستهزىء بك يا ريكيه . ان زوجتك اساءت الينا معا.
وكان يمكن أن انعتها بالكذب لو خطر لى انها حتى تعرف ما هو الكذب . انها تظن ان الصدق هو اى شىء يحميها أو يؤدى الى عودتها الى دار الحضانة فى بلادها .

ـ انت تعاشرها ثم تشتمها . انت جبان ياكيرى .
ـ ربما كنت هذا .

[illegible]

أنا لا أطاوعك الى شيء من هذا . ان تكون [illegible] الله
ان يغفر ذلك . أنا لست [illegible] الا أن تظل [illegible]
[illegible] نسمة هذا في نظري .
عندئذ قال الأخ فيليب بجفاء :
ـ أو تجيء الى الاسكندرية يا عمو زكيه . سنحدثك
هناك . سوف تكون لنا أفضل حالا بعد نوم ليلة . ثم
نتحدث في الصباح .
أنهى هذا القول داخل من المطر فجأة كأنما جاء تأكيدا لكلامه .
ثم من كرسي صرخت غريب تعلم البكم وان تفرح بأنه ضحكة .
العجال أطلق زكيه النار مرتين فسقط المصباح بسقوط كرسي
[illegible] وساد الليل البهيم فجأة قبل المطر . صرصر
على فم تفتوح وعينين تحدث فيهما الدهشة ... ثم انطفأ

[illegible]
صاح الطبيب بقوة على زكيه في الوحل وفاحص جسم كرسي
[illegible] زكيه يقول : انه ضحك مني . كيف يجسر على أن يضحك
مني ؟
قال الطبيب للأخ فيليب : معي رأسه . أيمكنك أن تجد ساقيه ؟
لنا من الحقلة الى الداخل .
هتف يقول لزكيه : الق هذا النجس يا أخي ، وساعدنا !
[illegible] صوت كرسي يقول ليس من زكيه
انحنى الطبيب فوقه وهو لا يكاد يسمعه ، وقال له :
ـ لا تتكلم . انا سنحملك الآن . وستكون بخير .
قال كرسي : ضحكت من نفسي .
حملوه الى الشرفة ومددوه بعيدا عن المطر . وجاء زكيه بوسادة
معها تحت رأسه ، وقال :
ـ ما كان يجب أن يضحك .
قال الطبيب : انه لا يضحك بسهولة .

ومرة أخرى انبعثت حشرجة تشبه ضحكة ملتوية . وقال كيرى :
ـ مضحك . هذا مضحك ، والا فهو ...
لكن لم يقدر لهم قط أن يعرفوا اتجاه تفكيره الأخير ، فلسفيا كان أو نفسانيا ...

(٦)

عاد رئيس الرهبان الى الارسالية بعد أيام قليلة من الجنازة ، وزار المقبرة مع الدكتور كولين .
لقد دفنوا كيرى غير بعيد عن قبر مدام كولين ، ولكنهم تركوا فراغا كافيا للطبيب عندما يدركه الأجل المحتوم .
ووضع احدهم ، ولعله ديوجراتياس ، اناء مربى قديما بجانب القبر مملوءا بأغصان ونباتات مشبكة بصورة غريبة ، فكانت أشبه بقربان للمعبود نزامبى منها باكليل جنائزى .
وعمل باركنسون على ارسال اكليل من (لوك) حمل هذه العبارة : (من ثلاثة ملايين من قراء مجلة بوست) . وقد التقط صورة فوتوغرافية لهذا الاكليل لكى تنفع فى المستقبل ، ولكنه أبى فى تواضع غير منتظر منه أن تؤخذ صورته بجانب الاكليل .
وقال رئيس الرهبان للدكتور كولين :
ـ لا يسعنى الا أن أحزن اذ لم أكن هنا . فربما كان بوسعى ان أسيطر على ريكيه .
فقال كولين : كان مقدرا أن يحدث شىء عاجلا أو آجلا . انهم لم يريدوا قط أن يتركوه وشأنه .
ـ من تقصد بقولك (انهم) ؟
ـ الحمقى ، الحمقى المتطفلون . انهم موجودون فى كل مكان وزمان ، أليس كذلك ؟ انه نال الشفاء من كل شىء سوى النجاح . ولكنك لا تستطيع أن تشفى النجاح بأكثر مما استطيع أن ارد الى المجذومين المشوهين أصابع أيديهم وأرجلهم . اننى أعيدهم الى البلدة ، والناس ينظرون اليهم فى المتاجر ويراقبونهم فى الشوارع ويسترعون انظار الآخرين اليهم وهم يمرون . ان النجاح مثل هذا أيضا ـ تشويه للرجل الطبيعى . هل تسير فى طريقى ؟
ـ الى أين تذهب ؟
ـ الى المستوصف . اننا بالتأكيد اضعنا وقتا كافيا بين الموتى.
ـ سامشى معك قليلا .
فسأله كولين : هل رأيت ريكيه قبل مغادرتك (لوك) ؟

ـ بالطبع . انهم هيأوا له الراحة الكافية في السجن . انه ادى الاعتراف الديني وينوى حضور القداس كل صباح . وبالطبع تهيأت له بطولة كبيرة في (لوك). وقد بادر مسيو باركنسون فابرق الى جريدته بحديث معه ، وسوف يتوافد الصحفيون عليه من أكثر العواصم . واعتقد ان باركنسون صدر مقاله بعنوان كهذا : «مصرع ناسك». « قديس هوى » . وبالطبع سوف تكون نتيجة المحاكمة كالسوابق.

ـ الحكم بالبراءة ؟

ـ طبيعي . (الجريمة العاطفية) . كل واحد سوف ينال مراده ـ انها نهاية سعيدة حقا ، اليس كذلك ؟ فان ريكيه يشعر بانه اصبح ذا اهمية عند الله وعند الانسان . بل انه تحدث الي عن امكانية رفع التماس ديني الى روما لابطال تأثيمه ، لكنني لم اشجعه . وعن قريب ستغدو مدام ريكيه حرة للعودة الى بلادها ، وسوف تحتفظ بالطفل . وقد وجد مسيو باركنسون انه وقع على احسن قصة كان يحلم بها . ولهذه المناسبة فانا مسرور لان كيري لم يقرأ مقاله الثاني .

ـ لا نستطيع ان نقول ان النهاية كانت سعيدة بالنسبة لكيري

ـ احقا ؟ انه كان يريد على الدوام ان يمضي الى ابعد من هنا .

ـ ولكنها خسارة كبرى لنا . فعلى الرغم من خيبة آماله في الحب والعمل ، قد تعلم ان يخدم الناس ويكرس وقته لهم . وقد تعلم ان يضحك ايضا بعد طول تجهم وعبوس . وكانت ضحكة غريبة ، لكنها كانت ضحكة على اي حال . فانا افزع من الناس الذين لا يضحكون . ومعنى هذا انه قد وجد سبيلا للتعلق بالحياة .

ووصلا الى المستوصف . كان المجذومون جالسين ينتظرون على سلالم الاسمنت الحارة . وفي المستشفى الجديد كانت العمليات التكميلية دائرة على قدم وساق .

وقال رئيس الرهبان : ارى من مراجعة الحسابات انك توقفت عن استخدام اقراص الفيتامين . فهل هذا من قبيل الاقتصاد ؟

ـ لا اعتقد ان الأتيميا تأتي من استخدام عقار (دى.دى.اس) في علاج الجذام . انها تأتي من دودة الانكليستوما . والأرخص هو بناء مراحيض ، وهذا افضل من شراء اقراص الفيتامين . انه مشروعنا التالي . اعني انه كان مقدرا ان يكون .

ثم التفت الى عامل المستوصف قائلا :

ـ كم عدد المرضى اليوم ؟

ـ حوالى سنتين .

فجلس الطبيب الى المنضدة وجذب ورقة بيضاء قائلا :

ـ رقم واحد .

كان طفلا فى الثالثة . وراح الطبيب يجرى اصابعه فوق بشرة الظهر بينما كانت أم الطفل تنتظر .

وقال رئيس الرهبان :

ـ اننى أعرف هذا الصغير . كثيرا ما كان يأتى عنـــدى لطلب الحلوى .

فقال الدكتور كولين بلهجة اقرب الى الغضب :

ـ هو مصاب بالجذام بلا شك . تلمس البقع هنا وهناك ، لكن لا داعى للقلق . سوف نتمكن من شهـــفائه فى سنة أو سنتين ، وبوسعى أن أعدك بأنه لن تحدث له (تشوهات) .

تمت

اشترك في روايات الهلال

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة : السيد /هاشم على نحاس
جدة ـ ص . ب رقم ٤٩٣
المملكة العربية السعودية

البرازيل : M. Miguel Maccul Cury,
B. 25 de Maroc, 990
Caixa Postal 7406.
Sao Paulo, BRASIL.

انجلترا : THE ARABIC PUBLICATIONS
DISTRIBUTION BUREAU
7, Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

(اسعار الاشتراك على الصفحة الثانية)

هذه الرواية

ولد جراهام جريف عام ١٩٠٤ وتلقى تعليمه في مدرسة «بيركهامستد» التي كان والده ناظرا لها، وقد تخرج في كلية «باليول» بجامعة اكسفورد وفيها نشر كتابا عن النشر، ثم عمل أربع سنوات مساعد محرر في جريدة التيمس . وذاعت له شهرة دعمها بروايته الرابعة المعروفة باسم « قطار اسطنبول » ، والتي قيمها هو نفسه في سلسلة مؤلفاته بأنها لون من « التسلية » ، تمييزا لها عن أعماله الاخرى الاكثر جدية . وفي عام ١٩٣٥ قام برحلة في أرجاء ليبيريا ، سجل وصفها في كتابه : « رحلة بلا خرائط » ، وما أن عاد منها حتى أختير ناقدا سينمائيا لمجلة « سبكتاتور » .

وفي عام ١٩٣٨ نشر له كتاب جديد هو « صخرة برايتون » ، وما أن حل عام ١٩٤٠ حتى أصبح المحرر الادبي لمجلة سبكتاتور . ثم اختارته وزارة الخارجية البريطانية في العام التالي للقيام باحدى المهام ، فأوفدته الى سييرا ليوني لهذا الغرض ، واستغرقت مهمته أعوام ١٩٤١ - ١٩٤٣ . ومن احدى روائعه التي ألفها بعد الحرب العالمية الثانية والتي اتخذ افريقيا الوسطى مسرحا لها روايته « جوهر الموضوع » ، وهي معدودة لدى الكثيرين بأنها قمة مؤلفاته وأكثر كتبه شموخا . ثم أعقب ذلك كتابان هما « نهاية القضية » و « الامريكي الهادىء » ، وهو كتاب روائي مسرحه في فيتنام ، وتلاهما على الاثر « رجل لنا في هافانا » و « قضية ضائعة » .

وقد بلغت حصيلة ماكتبه جراهام جريف نحو الثلاثين من الروايات والمسرحيات وكتب « التسلية » وكتب الاطفال وكتب الرحلات ، الى جانب مجموعات تشمل مقالات وقصصا قصيرة وفي عام ١٩٦٦ أنعم عليه بلقب « وصيف شرف » .